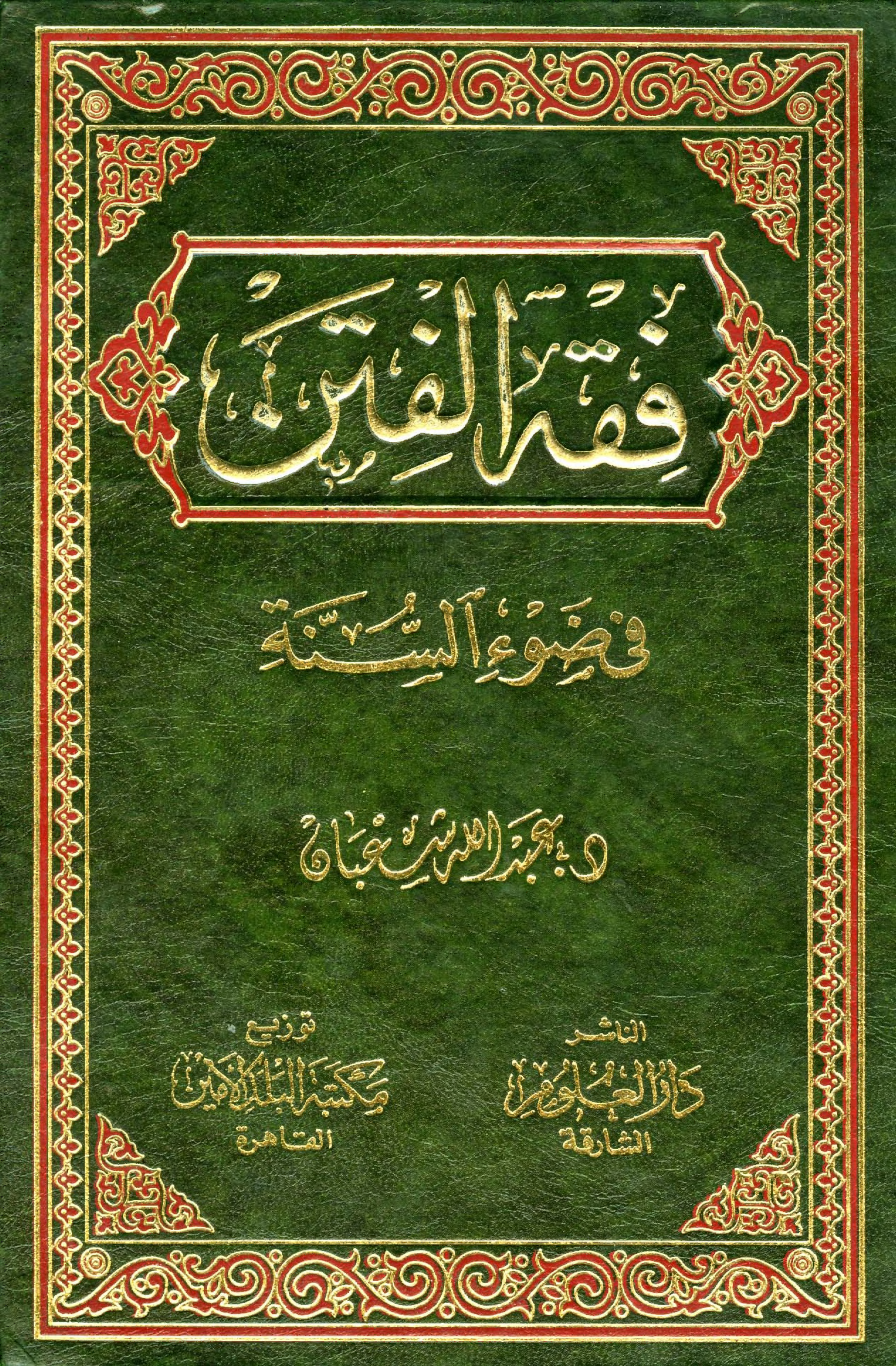

فقه الفتن
في ضوء السنة
د. عبد الله شعبان
الناشر
دار العلوم
الشارقة
توزيع
مكتبة البلد الأمين
القاهرة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٣٢٦٧
الترقيم الدولي : 977-5928-42-0

مكتبة البلد الأمين
١١ أ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
ت :٥١٢٤٨٨٢-٥٤١٣٧٠٣-٠١٠١٤٨١١٨٧

فقه الفتن في ضوء السنة

تأليف

د. عبد الله شعبان

مكتبة دار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

المقدمة

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

- فإن قضية الفتن هي قضية الماضي بغيوبه وغيومه، والحاضر بصعوباته ومشكلاته، والمستقبل بأحواله وأهواله، وآلامه، وآماله وتطلعاته.

- هي قضية المد الأفقي بشموله واستغراقاته، والرأسي بعمقه وأبعاده، والاتجاه في تصرفاته وتقلباته وغاياته وتياراته، والعمق في ظلامه وأغواره.

- هي قضية الكون كله، مكانه وزمانه، أمنه وخوفه، ورجائه، حلوه ومره، غناه وفقره، صحته وسقمه، كبيره وصغيره، رجاله ونسائه، نباته وحيوانه، مائه وناره.

- هي قضية السر والعلن، الحاضر والمشاهد، الظاهر والمستتر، الفرح والترح، الموت والحياة، النصر والهزيمة، الارتفاع والهبوط، الدنيا والآخرة.

- هي قضية الخطوط المتقابلة إذاً، الجماعة والتفرد، الخلطة والعزلة، العلم والجهل، الحب والكره، الإيمان والكفر، العبادة والعادة، السنة والبدعة، الطاعة والمعصية، الحرية والعبودية، الكلام والصمت.

- هي قضية كل شيء، ومن ثَمَّ لا ينجو منها شيء، متشعبة، ممتدة، ذات جذور وفروع، فني بسببها الكبير، وشاب من هولها

الصغير، قل أن يسلم منها أحد، ومن سلم منها في الدنيا فهل سيسلم منها في القبر، أو تراه يسلم من أهوالها يوم القيامة؟.

- ثم ماذا؟.

الموضوع لا يتصل بجانب دون آخر، ولهذا ففيه صعوبة، وفي اقتحامه مخاطر، وفي البحث فيه منعطفات ومنحنيات، ومزالق ودروب، ولافتات كذلك تتطلب التمهل، وشارات تتطلب التبصر.

الموضوع إذاً ليس من السهولة، لتعدد جوانبه، ولأنه لم يؤلف فيه باستقلال، ولذلك فإن المتعرض له بنحو مما قال الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز «١٠١» هـ:

إنني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره[١].

- ومع جدية البحث، وصدق المحاولة، والرغبة في التنبيه والتبصير، والأمل الكبير في الله أن ينفع به، لا أدعي أني بلغت الغاية في الأمر، أو السلامة من الفتن.

بل كما قال القائل:

كل يداوي سقيماً من معائبه فمن لي بصحيح ما به سقم[٢]

والله تعالى يقول:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت: ٢، ٣).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكيم/٣٧.

(٢) إيثارالحق على الخلق/٣٣ط الدار اليمنية.

خطة البحث:

يقوم البحث في «فقه الفتن في ضوء السُّنة» على جملة من القضايا والمسائل العلمية والفكرية، يتضمنها:

تمهيد، وستة فصول، وخاتمة.

ـ دار التمهيد حول: تعريف الفتن في معاجم اللغة، القرآن، السنة النبوية، ومناهج المحدثين في تناول أحاديث الفتن، وعلاقة الفتن بالغيبيات.

ـ أما الفصول:

فقد اشتمل الفصل الأول على:

الملامح الجاهلية في العصر الحديث، ووجه الشبه بين الجاهلية قديماً وحديثاً.

وتناول الفصل الثاني بدايات الفتن.

أما الفصل الثالث فخصصته لتنوع الفتن، وأنها تتشعب إلى نوعين كبيرين، يندرج تحتهما أنواع.

الفصل الرابع جعلته دائراً حول فتنة الألقاب المخترعة.

أما الفصل الخامس فيتعلق بالكمال. . . والكمال الوهمي.

أما الفصل السادس والأخير فعن فتنة الدنيا ـ مزرعة النوائب.

ـ الخاتمة في ثمرة البحث.

ـ التزمت أدب البحث وأصوله كما قررها أصحاب الشأن،

فعزوت كل قول إلى قائله، فذلك من بركات العلم.

ـ خرجت النصوص، وعرفت بالأعلام، وجمعت بين المتفرق، وعالجت الفكرة بالفكرة... واجتهدت في أن تكون المعالجة سهلة قريبة من روح العصر، مألوفة من القراء، مقدمة في ثوب دعوى تفيد الباحث والواعظ، المبتدأ والمجتهد، المتخصص وغيره...

والله من وراء القصد، به ثقتي وهو حسبي.

الباحث

التمهيد

في:

- التعريف بالفتن:

أ - في معاجم اللغة.

ب - في القرآن الكريم.

ج - في السنة النبوية.

- الفتن والغيبيات.



أ ـ في معاجم اللغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس[١].

فتن: الفاء، والتاء، والنون: أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار.

ومن ذلك الفتنة:

وفتنت الذهب بالنار إذا امتحنته.

وأورد عن الخليل[٢] قوله:

الفَتْن: الإحراق، وشيء فتين محرق. ويقال للحرة: فتين كأن حجارتها محرقة[٣].

---

(١) ابن فارس: إمام اللغة أحمد بن زكريا، العلامة المحدث، كان رأساً في الأدب بصيراً بالفقه (ت٣٩٥هـ)، كان يقول: من قصر علمه في اللغة وغولط غلط. له ترجمة في: وفيات الأعيان ١/ ١١٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٠٣، طبقات الداودي ١/ ٦٠، شذرات الذهب ٣/ ١٣٢.

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي، الإمام صاحب العربية ومنشىء علم العروض (١٠٠ ـ ١٧٠ هـ) من أقواله:
إذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً كصالح الأعمال.
إني لأغلق علي بابي فما يجاوزه همي.
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع. ترجمته في: الجرح والتعديل ٣/ ٣٨٠، البداية والنهاية ١٠/ ١٦٠، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٩ تهذيب التهذيب ٣/ ١٦٣، شذرات الذهب ١/ ٢٧٥.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤٧٢.

وأورد صاحب لسان العرب عن الأزهري[1] قال:

جماع الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار. وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد. . . . والفتنة: المحنة، والمال، والأولاد، والكفر، واختلاف الناس بالآراء.

وقيل الفتنة في التأويل: الظلم.

وفتنته المرأة، إذا ولهته وأحبها.

والفتنة: الضلال والإثم.

والفاتن: المضل عن الحق. والفاتن: الشيطان لأنه يضل العباد، أو هو ما يفتن الناس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي[2].

فدارت الفتنة في اللغة إذاً على معنى الابتلاء، الإحراق، المحنة، الكفر، واختلاف الآراء، والظلم، والضلال، والإثم. . .

ثم صار لفظ الفتنة يستعمل في كل أمر كشف الامتحان عن سوئه، أو تحول صاحبه من حال إلى حال أسوأ منه.

ب ـ في القرآن الكريم.

جاء لفظ فتن في القرآن عاماً متنوعاً.

ولعل في هذا العموم والتنوع والتكرار دليلاً على أهمية اللفظ وتعدد مدلوله، وما يشعر بعناية القرآن بالفتن وكشفه لأسبابها، وما يترتب عليها من نتائج.

---

(١) الأزهري: أبو منصور: محمد بن أحمد، الإمام المشهور، كان فقيهاً شافعياً (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) مما رواه أن أعرابياً قال: اللهم من ظلمني مرة فأجزه، ومن ظلمني مرتين فأجزني وأجزه، ومن ظلمني ثلاث مرات فأجزني ولا تجزه. ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤، شذرات الذهب ٣/ ٧٢ سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١٥.

(٢) لسان العرب مادة فتن، لسان العرب المحيط ٢/ ١٠٤٩.

ومن ذلك:

* ما يكون بمعنى الوقوع في البلية أو الصد عن الدين والصرف عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ٥/ ٤٩ ـ المعنى يوقعوك في بلية وشدة، بسبب صرفهم إياك عما أوحى إليك، أو صدك عن السبيل المراد. كما يشير إلى ذلك ما ورد في سبب النزول(١).

كذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ٧٥/ ١٤. أوقعتموها في بلية وعذاب وصرفتموها عن الهدى(٢).

* ومنه ما يكون بمعنى تعذيب المؤمن ليرجع عن دينه. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ ٢/ ١٩١. وما من شك في أن محاولات الفتنة وسواء كانت في بدايتها من تخويف وتهديد وترويع للمؤمنين الآمنين، وتجويع وتشريد ومصادمات ومصادرات... أم في نهايتها التي ترمي إليها من تحويل إلى الشرك. أشد وأكبر عند الله من أي قتل. لأن المؤمن يمثل الحق قولاً وعملاً واعتقاداً.

فانظر فيما يتعرض له المؤمنون الآن من أعداء الإسلام في مختلف قارات الأرض من الفتن!.

---

(١) ورد في سبب النزول ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: قال جماعة من أقيال اليهود وعلمائهم، فلنذهب إلى محمد لعلنا نستطيع فتنته عن دينه، فلما جاؤه قالوا: إنك تعرف أنا أحبار اليهود وأشرافهم فإذا آمنا بك اتبعك اليهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة وسنختصم إليك فاقض لنا عليهم وحينئذٍ نؤمن بك وتؤمن لك يهود، فأبى رسول الله ﷺ، ذلك وأنزل الله عليه الآية الكريمة ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ الآية. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٢/ ٣١٦.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٦، المفردات للراغب الأصفهاني/ ٣٧٢.

* ومنه ما يكون في مقابل الدين كله. وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ٨/ ٣٩. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ ٢/ ١٩٣. فكل من الدين والفتنة مناقض للأخر مناف له وفي مقابله، وبهذا فسرت الفتنة فما حصلت به فتنة القلوب إما شرك، وإما بسبب الشرك، إذ يندرج تحتها أنواع الشبهات والشهوات. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ ٢٤/ ٦٣ هي الشرك.

قال الإمام أحمد[1]: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجعل يكررها ويقول وما الفتنة؟ الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه[2].

ففي هذا دليل على أن الفتنة والإيمان متقابلان. فإما فتنة وإما إيمان.

* ومنه ما يكون بمعنى الاختبار والامتحان الذي لم يفتتن

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، إمام أهل السنة والجماعة (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) أحد من حفظ على الأمة أمر دينها، وأحد من أُدخل كير الفتنة فخرج نقيا، ذهباً أحمر، ولما قيل لبشر بن الحارث حين ضرب الإمام أحمد. لو أنك خرجت فقلت إني على قول أحمد. فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء. وصفه عمير بن النحاس فقال: رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه عرضت له الدنيا فأباها والبدع فنفاها. وعن محمد بن مصعب قال: لسوط ضربه أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث. ترجمته في طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، طبقات الحنابلة ١/ ٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣١، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، غاية النهاية ١/ ١١٢، شذرات الذهب ٢/ ٩٦.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول/ ٩٦.

صاحبه، بل خلص من الافتتان ونجح في الامتحان. دليله قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ٢٠/٤٠. والآية خاصة بنبي الله موسىٰ عليه السلام: حين امتلأت نفسه بالغم على فعلته - القتل الذي لم ينوه - وهو المصنوع على عين الله. وتحرج ضميره من اندافعه، فذكره ربه بنعمته عليه إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره ونجاه من الغم ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد، فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص، وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض..

وفي الوقت المقدر عندما نضج واستعد وابتلي فثبت وصبر، وامتحن فجاز الامتحان... في هذا الوقت يأمره ربه بالقيام بمهمة الدعوة بعد أن هيىء وأعد لها[1].

* ومنه عكسه وهو ما يكون بمعنى الاختبار والامتحان الذي حصل معه افتتان وسقوط في الهاوية التي أحاطت بهم من كل جانب وأخذت عليهم المنافذ فلا يفلتون جزاء كذبهم وهبوطهم، وتقريراً لكفرهم وإن تظاهروا بالإسلام. وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ٩/٤٩[2]. فما وقع فيه بعد فراره من الجهاد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٦ بتصرف.

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره عن ابن إسحاق، عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم. قالوا: قال رسول الله ﷺ، ذات يوم وهو في جهازة للجد بن قيس أخي بني سلمة «هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر؟ فقال يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه ﷺ، وقال: قد أذنت لك». وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أن الآية نزلت في الجد بن قيس. تفسير القرآن العظيم ٢/١٨٠

والخروج لغزوة تبوك، أعظم وهو الشرك، والعشق، ومحبة النساء، والتخلف عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه، والنفاق، والمعاذير المفتراة وما انطوت عليه صدورهم.

وفي الآية تصوير الفتنة ببئر سقط فيه المفتونون، وكأن جهنم قد أحاطت بهم وأخذت عليهم المنافذ فلا يستطيعون هرباً، وما في هذا ظلم، فالله سبحانه يعلم حقيقة القلوب قبل الافتتان والابتلاء.

* ومنه ما يكون متضمناً للأمرين شاملاً للمعنيين جميعاً، وعليه يتنزل معنى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ ٢٩/١، ٣.

فهي فتنة مقصودة لتحقيق الإيمان، وكشف الصادقين من الكاذبين، صادرة في صورة استفهام استنكاري لتصور الناس لحقيقة الإيمان.

هذه الفتنة على الإيمان أساس ثابت، وسنة جارية من سنن الله في كونه.

إن الإيمان أمانة الله في الأرض لا يحملها إلا من هم أهل لها وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد وإخلاص.

كذا قوله سبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ ٧/ ١٥٥. امتحانك وابتلاؤك تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها.

إن الله وحده عالم بحقيقة القلوب قبل الافتتان والابتلاء، وهو سبحانه بفضله وعدله إنما يعامل الناس على حسب ما يصدر منهم؛ لا على حسب علمه فقط، وذلك فضل من الله وعدل وتربية، فلم يترك الناس لدعواهم حتى ابتلاهم فانكشف في عالم الواقع ما هو معلوم لله. مغيب عن واقع الناس.

* ومنه ما هو أعم من ذلك كله. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟﴾ ٢٥/ ٢٠.

قال ابن القيم:[١] وهذا عام في جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض[٢].

وقال ابن كثير:[٣] اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

ونقل قول ابن إسحاق[٤] في الآية يقول الله تعالى لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن ابتلي العباد بهم وأبتليهم بهم[٥].

ويشهد لهذا ما رواه عياض بن حمار[٦] أن النبي ﷺ، قال ذات

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) الإمام صاحب المؤلفات النادرة: أقواله كلها حكم ومنها: علمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احتراماً لنعمتك وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل؟ حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه، فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه!.. ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧، طبقات الداودي ٢/ ٩٣.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٠.

(٣) ابن كثير إسماعيل بن عمر (٧٠٠ ـ ٧٧٤ هـ) الإمام الحافظ المفسر. وهو القائل:

تمر بنا الأيام تترى وإنما ... نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولا زائل هذا المشيب المكور

له ترجمة في: طبقات الداودي ١/ ١١١، ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي/ ٥٧، ٣٦١.

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٥١هـ) إمام المغازي وأعلم الناس بها. له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٧/ ٣٢١، الجرح والتعديل ٧/ ١٩١، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣، شذرات الذهب ١/ ٢٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٩.

(٦) عياض بن حمار المجاشعي صحابي، عاش إلى خلافة علي رضي الله عنه، له عند مسلم هذا الحديث. تهذيب التهذيب ٨/ ٢٠٠.

يوم في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. قال الله كل مال نحلته عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم الذي أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك. ونزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظانا...) الحديث[١].

ومما يدخل في دائرة العموم أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ٦٤/١٥.

قال مقاتل[٢]: بلاء وشغل عن الأخرة، فالأولاد والأزواج قد يكونون مشغلة عن الآخرة وملهاة عن ذكر الله، مدعاة للتقصير في مقامات الإيمان... وقد يحتمل الأب عنتا فيبخل ويجبن ليوفر، فهم صدوه عن الخير وثبطوه عن أداء واجبه.

لذا قال ابن عباس:[٣] فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٢١٩٧ وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ٢/٢٣.

(٢) مقاتل بن سليمان، كبير المفسرين، قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، قيل: المنصور ألح عليه ذباب فطلب مقاتلاً فسأله لم خلق الله الذباب؟ قال ليذل به الملوك، وقيل: إنه قال سلوني عما دون العرش فسألوه عن أمعاء النملة فسكت، وسألوه لما حج آدم من حلق رأسه فقال: لا أدري (ت١٥٠هـ) طبقات ابن سعد ٧/٣٧٣، المجروحين ٣/١٤١، وفيات الأعيان ٥/٢٥٥، تهذيب التهذيب ١٠/٢٧٩.

(٣) ابن عباس: عبد الله بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ كان مهيباً كامل العقل، زكي النفس من رجال الكمال، وهو القائل: إن كنت لآتي الرجل منهم ـ من الأنصار ـ فيقال هو نائم، فلو شئت أن يوقظ لي، فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك قلبه. إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ طبقات ابن سعد ٥/٣٦٥، تاريخ بغداد ١/١٧٣، سير أعلام النبلاء ٢/٣٣١.

وقال الزجاج عالم اللغة[1]: أعلمهم الله عز وجل أن الأموال والأولاد مما يفتنون به. وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله بسببه وتناول الحرام لأجله ووقع في العظائم، إلا من عصمه الله تعالى.

عقب ابن القيم على هذا قائلاً: ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ، كان يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما، وعليهما قميصان أحمران يعثران فنزل ﷺ، إليهما فأخذهما. فوضعهما في حجره على المنبر وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما»[2].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه[3]: لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن.

---

(١) الزجاج: إبراهيم بن السرى، من أهل العلم والأدب، صنف في معاني القرآن. (ت٣١١هـ) وهو القائل:
إذا قل ماء المرء قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه، له ترجمة في: تاريخ بغداد ٦/ ٨٩، وفيات الأعيان ١/ ٤٩.

(٢) الحديث أخرجه أصحاب السنن، وانظر جامع الترمذي كتاب المناقب ٥/ ٦٥٨ وقال: حسن غريب، وسنن ابن ماجه، كتاب اللباس ٢/ ١١٩٠، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٥٤.

(٣) ابن مسعود: عبد الله بن مسعود بن حبيب، الإمام الفقيه، أحد السابقين المهاجرين البدريين، كان نظيفاً فطناً، من أذكياء الصحابة، من أقواله: لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلبا، وإني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا. وخرج ذات يوم فتبعه ناس فقال لهم ألكم حاجة؟ قالوا: لا. قال ارجعوا فإنه فتنة للتابع زلة للمتبوع. وقال لو تعلمون مني ما أعلمه من نفسي لحثوتم التراب على رأسي. تاريخ بغداد ١/ ١٤٧، طبقات الشيرازي/ ٤٣، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١، تذكرة الحفاظ ١/ ٣١، طبقات القراء للذهبي ١/ ٣٣، الإصابة ١/ ٢٠٩، تهذيب التهذيب ٦/ ٢٧.

* ومنه ما يكون بمعنى ظهور الكافر على المؤمن، فيظن الكافر أنه على الحق. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ٦٠/ ٥ المعنى لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك.

قال الفراء[1]: لا تظهر علينا الكفار فيروا أنهم على حق وأنا على باطل.

وقال مقاتل: لا تقتر علينا الرزق وتبسط عليهم فيكون ذلك فتنة لهم[2]. لما في ظهورهم من إعجاب يتوهمون معه أنهم على حق وأنهم خير منا. ففتنتهم بإعجابهم بكفرهم. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠/ ٨٥.

وقيل المعنى: لا تبتلينا بأمر يوجب افتتان الكفار بنا فإنه إذ خذل المتقي ونصر العاصي فتن الكافر وقال: لو كان مذهب هذا صحيحاً ما غلب[3].

* ومنه ما يكون بمعنى الإمالة عن الحق والصرف عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ ١٧/ ٧٣.

يميلونك عن الحق ويزيلونك.

قال الراغب[4]: يوقعونك في بلية وشدة في صرفهم إياك عما

---

(١) الفراء يحيىٰ بن زياد بن عبد الله. له ترجمة في تاريخ بغداد ١٤/ ١٤٩، وفيات الأعيان ٦/ ١٧٦، تهذيب التهذيب ١١/ ٢١٢، شذرات الذهب ٢/ ١٩، غاية النهاية ٢/ ٣٧١.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٤.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٠.

(٤) الراغب: الحسين بن محمد الأصفهاني، صاحب المفردات في غريب القرآن، (ت٥٢٠هـ) على خلاف كبير في ذلك، الأعلام للزركلي ٢/ ٢٥٥، مقدمة الذريعة ط دار الصحوة.

أوحى إليك[1].

وهي واحدة من محاولات شتى قصد بها صرف الرسول ﷺ، عما أوحي إليه، وإن لم تذكر الآية تفصيلاً، ليذكر فضل الله على نبيه في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة.

* ومنه ما يكون بمعنى الإضلال، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣)﴾ ٣٧/ ١٦١ ـ ١٦٣.

المعنى: إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله إلا من هو محسوب من أهل الجحيم، الذين قدر عليهم أن يصلوها، وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين، فللجحيم وقود من نوع معروف طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة، ويستمع للفاتنين[2].

بفاتنين إذاً ـ بمضلين إلا من أضله الله.

* ومنه ما يكون بمعنى الفضيحة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ٥/ ٤١.

فضيحته. بعد أن سلك طريق الفتنة وولج فيها.

* ومنه ما يكون بمعنى القتل، وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ٤/ ١٠١.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ١٠/ ٨٣.

* ومنه ما يكون بمعنى الاختبار والمرض، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾ ٩/ ١٢٦.

---

(١) المفردات/ ٣٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ٢٣/ ٣٠٠١.

يختبرون بدعوتهم إلى الجهاد.

* ومنه ما يكون بمعنى القضاء ـ قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَآءُ﴾ ٧/ ١٥٥.

* ومنه ما يكون بمعنى المعذرة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ٦/ ٢٣.

لقد تجلت الحقيقة وتقررت وأقر المشركون بوحدانية الله رب العالمين ولكن الإقرار صدر بعد فوات الأوان، فاليوم يوم الجزاء لا العمل، ولتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٦/ ٢٤.

* ومنه ما يكون بمعنى الفوضى والوقيعة والتخذيل والتفرقة، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٩/ ٤٧، ٤٨.

فأمثال هؤلاء لو خرجوا مع الجيوش ما زادوهم قوة، بل لزادوهم فوضى واضطرابا وضعفا، وفرقة وتفريقا وتخذيلا، ولأسرعوا بالوقيعة والفتنة بين المسلمين.

وليس هذا بآخر الممكن إذ يمكن أن يكون للكلمة معان غير ما ذكر مما لم ينكشف لأحد سره أو الوقوف عليه، ويعرف المراد حيثما ورد بالسياق، والقرائن وحدها هي التي تدل عليه.

قال الراغب: أصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ ٥١/ ١٣، ١٤. عذابكم. وتارة يسمون ما

يحصل عنه العذاب، فيستعمل فيه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ ٩/ ٤٩.

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ٢١/ ٣٥. وقال في الشدة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ٢/ ١٠٢.

ثم قال الراغب: والفتنة من الأفعال التي تكون من الله ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك[1].

جـ ـ في السنة.

ظهر من استعمال الكلمة في اللغة ومفردات القرآن الكريم أنها قد اتسعت فشملت عدة معان بينها تلازم وترابط في أصلها ووضعها، وكثير من ألفاظ اللغة والقرآن دال على معنيين فأكثر. واللفظ الواحد يتناولها جميعاً.

وسعة اللغة وكونها حمالة أوجه يساعد على ذلك ويقويه، بل قد تجمع الكلمة بين معنيين بينهما تضاد، وعليه يكون الحكم للمعاني لا للألفاظ، وهذا أمر يمكن اطراده في جميع الأحوال.

ـ وفي السنة دارت كلمة «الفتن» على معان. وقد كثر استعمالها في الاختبار والابتلاء والإثم، والكفر، والقتل، والإزالة، والصرف عن الشيء..

ـ وعلماء السنة اهتموا بأمر الفتن واعتنوا بها عناية خاصة.

---

(١) المفردات/ ٣٧١.

فأفردوا لها في مصنفاتهم كتباً أوردوا تحتها ما يتصل بدلائل الفتن، والجهة التي تصدر منها، وواجب المسلم نحوها، وكيفية نزول الفتن واقترابها، وكيف يكون الرجل في الفتنة، والتثبت في الفتن، وكف اللسان وتكسير القسي، والعزلة والخمول، والوصية عند نزولها، وقتال المسلمين بعضهم بعضاً. . . إلخ.

- ومن الأئمة من اكتفى بالكلمة مجردة، ومنهم من أضاف إليها كما هو صنيع الإمام مسلم[1] حيث ترجم لكتابه (الفتن وأشراط الساعة) وإن لم يكتف من اقتصر على الفتن من ذكر ما يتناول أشراط الساعة، والدجال والمهدي، ونزول عيسىٰ عليه السلام، والملاحم، إلى غير ذلك من أبواب مندرجة تحت الفتن.

- ومنهم من أفردها بمؤلف خاص[2].

ولما كان البحث موضوعاً لمناقشة الفتن في ضوء السنة فإني سأعمل على تقييد كل فكرة بنص من نصوصها، ممهداً لذلك بهذا التمهيد.

- لا بد من وجود مبررات وتعليلات تراءت لعلماء السنة، قوت

---

(١) الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح (٢٠٤ - ٢٦١هـ)، حدث أحمد بن حمدون قال: سمعت مسلم بن الحجاج، وجاء إلى محمد إسماعيل البخاري فقبل بين عينيه وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد وطبيب الحديث في علله. . له ترجمة في: الجرح والتعديل ١٨٢/٨، تاريخ بغداد ١٠٠/١٣، طبقات الحنابلة ٣٣٧/١، اللباب ٣٨/٣، وفيات الأعيان ١٩٤/٥، سير أعلام النبلاء ٥٥٧/١٢، تذكرة الحفاظ ٥٨٨/٢، تهذيب التهذيب ١٢٦/١٠، طبقات الحفاظ/ ٢٦٠.

(٢) فعل ذلك نعيم بن حماد بن معاوية (ت٢٢٩هـ) وإن قال الذهبي أتى فيه - في كتاب الفتن - بعجائب ومناكير، له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ تاريخ بغداد ٣٠٦/١٣، سير أعلام النبلاء ٥٩٥/١٠، ميزان الاعتدال ٢٨٧/٤.
وأبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (٤٥٠ - ٥٢٠هـ) انظر مقدمة كتابه الدعاء المأثور وآدابه. ط دار الفكر المعاصر.

لديهم فكرة الجمع والمزج بين الفتن وما أضيف إليها من أبواب وفصول جمعها كتاب واحد.

قد يدرك هذا من تأمل دواوين السنة فوقف على مدى الترابط والتلازم بين الفتن وما أضيف إليها بلا عناء أو تكلف.

من ذلك:

الفتن والغيبيات، القتال والملاحم، حمل السلاح وظهور البدع، والعصبيات. تقارب الزمان...

ولنخص واحداً من هذه المفردات بمحاولة إبراز هذا التلازم.

الفتن والغيبيات[1]

ـ قد تبدو العلاقة بين الفتن والغيبيات من جهة أن الوقوف عليهما قد علم بخبر الوحي، والأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنبوة إذ لا سبيل للعلم بها إلا ذلك.

ومن الفتن ما لا يقع تحت دائرة الحس الآن، ولا سبيل إلى مدافعته ورده، وإلا وقع الإنسان تحت دائرة الشك والارتياب والإلحاد والإنكار.

ومع أنها أمور وصلت إلينا عن طريق الوحي. وأن منها ما تحقق ووقع، ومنها ما ينتظر، إذ لا تزال محجوبة عنا، فإنه لا تحول حواجز الحس دون الإيمان بها.

ثم إن في كثرة الفتن وذيوعها وانتشارها دلالة على كثرة الضلال والكفر والفضيحة، مما هو عذاب أو سبب فيه، وكله ناشىء عن المعصية وهجر الدين والانحراف عنه والصرف والإمالة بالتأويل الفاسد والانتحال الباطل، مما يؤذن بزوال العالم وقيام الساعة.

وكذلك الانحراف عن الجادة ـ الكلي والجزئي ـ الفردي والجماعي. بمسخ الحجة وانحراف النفس وتسمية الأشياء من محرمات وغيرها بغير اسمها، والتحايل على الحرام، وكثرة التقلبات من إيمان

---

(١) الغيب: كل ما استتر عن العين، واستعمل في كل غائب عن الحواس، وعما يغيب عن علم الإنسان، ويقال غيب وغائب، وقد يراد به هنا كل مالا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقيني. المفردات/٣٦٦، كبرى اليقينيات/ ٢٤٥.

إلى كفر ومن كفر إلى إيمان، كل صباح ومساء، والتنازل السهل عن الدين في مقابل عرض من الدنيا يسير بل بثمن العنز.

قيام الساعة وظهور أشراطها مرتبط مقترن بهذه الظواهر إذاً ولا أعني بالاقتران اقتران السبب بالمسبب إنما أعني أن ظهور هذه الأمور مناف للغاية من خلق الناس وأن الله سبحانه يكرم الإنسانية بحفاظها على وظيفتها وقيامها برسالتها، فإذا لم تكن رسالة تؤديها فقد خسرت مبرر وجودها ونواميس حفظها وأصول بقائها، وإذا خلت الأرض من قائمين لله بالحق، أو من العناصر الطيبة الكريمة فإن الساعة تقوم.

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة...

ومعنى خلو الأرض من العناصر الكريمة ومن قائمين لله بالحجة؛ ذهاب الأخيار وبقاء الأشرار «الغربلة» القبض على الجمر، العبادة في الهرج، مروج العهود وذهاب الأمانات، الحثالة، قبض العلماء وذهاب الفقهاء والحكماء، ومجيء أقوام يقيسون الأمور بآرائهم ويحدثون في دين الله ما ليس منه، وأن يكون العلم في الرذالة.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[١]: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية. لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم[٢].

---

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص، الإمام الحبر العابد، صاحب الفضائل والمقام الراسخ في العلم والعمل (ت ٦٣ هـ:) كان يكثر من البكاء يغلق عليه بابه حتى رمضت عيناه، وكان يقول: لأن أكون عاشر عشرة مساكين يوم القيامة، أحب إلي من أن أكون عاشر عشرة أغنياء، فإن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا، يقول يتصدق يميناً وشمالاً.. ترجمته في: طبقات الشيرازي/ ٥٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٩، سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٩، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة ٣/ ١٥٢٤ برقم ١٩٢٤.

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» «لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله»[(١)].

وقال ﷺ: «كيف بكم وبزمان تغربل فيه الناس غربلة»[(٢)]، ثم تبقى حثالة[(٣)] من الناس قد مرجت[(٤)] عهودهم وأماناتهم»[(٥)].

إن هذا كله مقدمات لقيام الساعة وهو كذلك من الفتن.

وترك السنن وشيوع البدع وإكسابها حق الوجود الشرعي بالعكوف عليها والعجز عن تغييرها وتلبيسها على الناس من دلائل ذلك أيضاً.

وإذا الغيب كل ما لا سبيل إلى الوصول إليه والإيمان به إلا من طريق الخبر اليقيني سواء في ذلك ما تحقق أو ما ينتظر تحققه ووقوعه، فإن مما يدخل في ذلك أشراط الساعة، وما يحدث بعد الموت في القبر، والجنة والنار... إلخ.

فكل ذلك من الفتن، وفي السنة قال ﷺ: «إنكم تفتنون في قبوركم قريباً أو مثل فتنة الدجال»[(٦)]. دليل على أن القبر موضع فتنة

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان ١/ ١٣١ برقم ١٤٨.

(٢) غربلة: في النهاية ٣/ ٣٥٢، أي يذهب خيارهم ويبقى أراذلهم، والمَغْربَل: المنتقى كأنه نقي بالغربال، وجاء في جامع الأصول ١٠/ ٧ غربلة الناس: إماتة الأخيار وبقاء الأشرار كما ينقى الغربال من حثالة ما يغربله ورديئه.

(٣) حثالة: الحثالة الرديء من كل شيء، ومنه حثالة الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشر ـ النهاية ١/ ٣٣٩ ـ وانظر جامع الأصول ١٠/ ٦.

(٤) مرجت: المرج الاختلاط والاختلاف، والمعنى اختلفت عهودهم. النهاية ٤/ ٣١٤، جامع الأصول ١٠/ ٧.

(٥) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن ٢/ ١٣٠٧ برقم ٣٩٥٧، وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٢، ٢٢٠، وانظر جامع الأصول ١٠/ ٦. وإسناده صحيح، وأبو داود في مسنده كتاب الملاحم ٤/ ١٢٣.

(٦) أورد العلماء في بيان معناه عشرة أقوال منها: الكذاب من الدجْلة، وقيل مأخوذ من الدجل، طلاء البعير بالقطران سمي بذلك لأنه يغطي الحق ويستره بسحره وكذبه... انظر الأقوال في التذكرة/ ٧٤٤. =

كما أن الدجال كذلك. وما الدجال والآيات التي يجريها الله على يديه إلا فتنة للناس. كما أن الإيمان بالغيب في ذاته ابتلاء وفتنة. إذ الفتنة في أخص معانيها ابتلاء وامتحان. فبينهما من هذه الناحية توافق من حيث المعنى أيضاً.

إذاً ترتبط الغيبيات بالفتن ويجمع بينهما أمور، منها:

أن طريق معرفتهما «الوحي» والأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بأنوار النبوة.

من الفتن ما هو غيب، غير واقع الآن تحت دوائر الحسّ، فالساعة غيب وقيامها مرتبط مقترن بظواهر الفتن وأعراضها، ثم ومن مبررات الإيمان بالغيب الذي هو عتبة يجتازها المؤمن وتجتاز بها نفسه مرحلة الابتلاء، والفتن جميعها ابتلاء.

وبأنوار النبوة علمنا ما ينتظرنا مما هو حادث الآن، وما يحدث في مستقبل الزمان، مما أخبر ﷺ، به من ويل وحروب، وأثرة بالملك، وطغيان للعلم. وفتنة بالمال والنساء، والولد، والاختلاف والتشتت والتفرقة، والتحزب، والحط على المخالفين في الرأي. وإن كان اختلافاً محموداً، وتجريح وتهويل يصل أحياناً إلى حد التكفير، والإخراج عن الملة... وكل ما هو واقع الآن بعد أن كان أمر الأمة جميعاً. وهذا وغيره ثابت منصوص عليه في السنة وهو غيب.

ثم والذين صنفوا في أهوال القبور وأحوال أهلها، وما يتعلق بأحوال الموتى وأمور الآخرة، قرنوا بين مفردات هذا، وبين ما يتعلق

= والحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم ١/ ٣٢، ووضوء ١/ ٥٧، وجمعة ٢/ ١٢، وكسوف ٢/ ٤٦. وأخرجه مسلم في الصحيح في عدة أماكن، منها في كتاب الكسوف ٢/ ٦٢١ بلفظ «إني قد رأيتكم تفتنون في القبور كفتنة الدجال» / ٦٢٤.

بالفتن وأشراط الساعة ومقدماتها، كذا ظهور الفحش، وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، وتداعي الأمم على المسلمين، وما يكون من خسف وزلازل، كل هذا غيب وفتن، وللسنة فيه إسهامات وتوقعات وترغيب وترهيب.

الفصل الأول

عصر الجاهلية العربية

- الاعتبار كدليل لاستنباط الحكم.
- إذا كثر الخبث.
- الهلاك واحد والمصادر شتى.
- ملامح جاهلية.

إن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض.

وقد خلت من قبلكم المثلات[1]

الزمان أنصح المؤدبين وأفصح المؤذنين فانتبهوا بإيقاظه واعتبروا بألفاظه.

ومن لم يعتبر بعينيه لا يعتبر بأذنيه.

ومن لم يعتبر بالقرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لن يعتبر.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ٥٩/٢.

والاعتبار المضي والنفوذ في الشيء. والتجاوز من حال إلى حال، والاعتبار والعبرة؛ الحالة التي يتوصل بها من معرفة مشاهد إلى ما ليس بمشاهد.

قال ابن فارس: فإن قلت اعتبرت الشيء فكأنك نظرت إلى الشيء فجعلت ما يعنيك عبراً لذلك، فتساويا عندك. قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ٥٩/٢ كأنه قال انظروا إلى من فعل ما فعل فعوقب به فتجنبوا مثل صنيعهم لئلا ينزل بكم ما نزل بأولئك[2].

على هذا فقد أمر الله بحمل ما هو معلوم على ما ليس بمعلوم لعلاقة بينهما في إثبات حكم أو نفيه.

فإذا وقع أمر لأسباب معلومة عرفت نتيجتها ثم وجدت واقعة

---

(١) المثلات: جمع مثلة، النقمة التي تنزل بالإنسان، فيكون مثالاً لغيره يعتبر به، المفردات/ ٤٦٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢١٠.

أخرى تساوي الأمر الأول في الأسباب فإن الحكم يكون واحداً ولا بد، وهذا ما يعرف بقانون التماثل، التشابه، التناظر... ومعناه: أن النظير يأخذ حكم نظيره، وأن ما يجرى على الشيء يجري على مثيله، ويستحيل أن يفترق المتساويان في الحكم كما يستحيل أن يتساوى المختلفان في الحكم[1].

وهو سنة من سنن الله الكونية العامة، لا يعرف المحاباة ولا التفريق أو التخلف.

إن شأن الاعتبار إذاً شأن الميزان يعرف به ما يوازي الحكم ليأخذ حكمه. وما لا يوازيه فلا يأخذ حكمه.

وبيان ذلك أن الله بعد أن قص ما كان من يهود بني النضير، وبين ما نزل بهم من حيث لم يحتسبوا قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ **٥٩/ ٢**. وسواء كان الاعتبار مفسراً بالعبور أو الاتعاظ فهو تقرير لسنة كونية من سنن الله تعالى في خلقه.

قال ابن تيمية[2]: الاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيفهم حكمه مثل حكمه. قال ابن عباس: هلا اعتبرتم! الأصابع مثل الأسنان[3].

---

(١) المنطلق للأستاذ محمد أحمد الراشد/ ٨١.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، الدمشقي الإمام الناقد المجتهد (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) من أقواله «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقال مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا سجني خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة. وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه. ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ١٦٣، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩٦، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، طبقات الداودي ١/ ٤٥.

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٠.

والقرآن الكريم شاهد على صدق هذا القانون في تماثل الأسباب والنتائج جميعاً.

وهذا من تمام الإنصاف والعدل. فالعدل تسوية، وتمثيل، وقياس واعتبار، وتشريك، وتشبيه، وتنظير، وكلها من جنس واحد.

وكونه من تمام الإنصاف والعدل هو ما يتفق وفطرة الإنسان. ولذلك وقع منه ﷺ، في كثير من الوقائع التي عرضت عليه ولم ينزل بحكمها وحي، الاستدلال بطريق التشبيه والتمثيل.

وهذا منه ﷺ، تشريع وتعليم للأمة.

والفقهاء من عصر الرسول ﷺ، وسائر العصور استعملوا المقاييس.

وعليه فالنظر والتأمل فيما أصاب الأمم قبلنا بما أحدثوه، وبالأسباب التي نقلت عنهم يحتم علينا الكف والاحتراز عما أحدثوه احترازاً عن الجزاء والنتيجة.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **٤٥/ ٢٠ ـ ٢٢.**

ونظائر هذا في القرآن كثير، بل ليس في الشريعة من أولها إلى آخرها شيء بخلافه.

والقرآن الكريم واسع الدلالة في إحالة ذوي الأبصار وأصحاب العقول على الاعتبار كدليل لاستنباط الحكم والتوصل من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. وأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، وأن الجمع بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين من العدل، وهو مركوز في الفطر السليمة التي فطر الله الناس عليها.

ولكونه مما فطر الله عباده عليه قال ابن القيم: ولهذا فهمت الأمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ٤/ ١٠ جميع وجوه الانتفاع من الملبس والمركب والمسكن وغيرها.

وفهمت من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ١٧/ ٢٣ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى..[١].

وقال الشوكاني[٢]: وقد وقع منه ﷺ، قياسات كثيرة حتى صنف الناصح الحنبلي جزءاً في أقيسته ﷺ[٣].

وقد عقد البخاري[٤] في صحيحه باباً هو: من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين، وقد بين النبي ﷺ، حكمها ليفهم السائل. أورد تحته حديث الأعرابي الذي أتى النبي ﷺ، فقال إن امرأتي ولدت غلاماً أسود وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر. قال: «هل فيها من أورق!»[٥] قال: إن فيها لورقا. قال: «فأنى ترى ذلك جاءها!» قال: يا رسول الله عرق نزعها، قال: «لعل هذا عرق نزعه»

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢١٨.

(٢) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد الفقيه الأصولي المجتهد، قاضي اليمن (ت١٢٥٥هـ) الرسالة المستطرفة/ ١١٤.

(٣) إرشاد الفحول/ ٢٠٣.

(٤) البخاري، الإمام شيخ الإسلام، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) من أقواله: ما وضعت في كتابي «الصحيح» حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين. أرجو أن الله لا يحاسبني أني اغتبت أحدا. له ترجمة في: تاريخ بغداد ١٢/ ٤، وفيات الأعيان ٤/ ١٨٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩١، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٧، مقدمة فتح الباري، طبقات الحفاظ / ٢٤٨.

(٥) الورق: الأسمر، والورقة السمرة. النهاية ٥/ ١٧٥.

ولم يرخص له في الانتفاء منه[1].

إنه لما كانت الواقعة مساوية لمثيلتها حكم فيها بحكمها. وقد أحال النبي ﷺ، الأعرابي على الإبل لاستنباط الحكم. وهذا هو الاعتبار، فقد ثبتت المساواة، ولم يرخص له النبي ﷺ في الانتفاء.

قال ابن بطال:[2] التشبيه والتمثيل هو القياس عند العرب[3].

وترجم الإمام النسائي[4] في سننه للحديث المتقدم بقوله: باب التشبيه والتمثيل[5].

أي التأمل في موارد النصوص لاستنباط المعنى، كالتأمل فيما أصاب من قبلنا كي لا يقع بنا ما وقع بهم، ومن ثَمَّ احتراز الجزاء. ولم يقل أحد من العلماء بخصوصية هذا الأمر بأحد أو بعصر من العصور، بل هو للمسلمين في سائر الأزمان.

والمنقول عن الصحابة في ذلك يبلغ حد التواتر المعنوي، ذلك أنهم اتفقوا على استعمال القياس من غير نكير من واحد منهم، في

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام ٩/١٢٥، ومسلم في الصحيح كتاب اللعان ٢/١١٣٧، وأبو داود في سننه، كتاب الطلاق ٢/٢٧٨، والترمذي في جامعه كتاب الولاء ٤/٤٣٩. والنسائي في سننه، كتاب الطلاق ٦/١٧٨ جميعاً من رواية أبي هريرة.

(٢) ابن بطال: علي بن خلف بن عبد الملك، شارح البخاري (ت٤٤٩هـ). كان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث العناية التامة. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/٤٧، شذرات الذهب ٣/٢٨٣.

(٣) فتح الباري ١٣/٢٩٧.

(٤) النسائي: أحمد بن شعيب بن علي بن سنان، الإمام الحافظ شيخ الإسلام، ناقد الحديث (٢١٥ ـ ٣٠٣هـ) له ترجمة في: وفيات الأعيان. ١/٧٧، تذكرة الحفاظ ٢/٦٩٨، سير أعلام النبلاء ١٤/١٢٥، طبقات الحفاظ/٣٠٣، تهذيب التهذيب ١/٣٦، شذرات الذهب ٢/٢٣٩.

(٥) سنن النسائي ٦/١٧٨.

النوازل، وقاسوا بعض الأحكام على بعض، وذلك يدل على أن الصحابة مثلوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها.. وأنه ما من أحد من أهل النظر والاجتهاد منهم إلا وقد قال بالرأي والقياس، ومن لم يوجد منه الحكم بذلك فلم يوجد منه في ذلك إنكار، فكان إجماعاً سكوتياً وهو حجة[1].

وقال علي رضي الله عنه[2]: يعرف الحق بالمقايسة عند ذوي الألباب[3].

وقال المزني:[4] الفقهاء من عصر الرسول ﷺ، إلى يومنا وهلم جرا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم. قال: وأجمعوا بأن نظير الحق حق. ونظير الباطل باطل، فلا يجوز إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها[5].

بعد هذا أقول:

لماذا تختلف التفاسير والاجتهادات والتحليلات والتبريرات للأحداث؟

ولماذا ينظر الناس أفراداً وجماعات أشياء قد تتحد في مقدماتها وأسبابها على أن نتائجها لا بد وأن تختلف؟ إن خلف كل سبب قريب أسباباً بعيدة، وإنه لمما يشق على ذوي الضمائر ما يقوم به البعض من بتر للمعلول عن العلة، والنتيجة عن السبب.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/ ٥٢، أعلام الموقعين ١/ ٢٠٣، إرشاد الفحول/ ٢٠٣.

(٢) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ)، تذكرة الحفاظ ١/ ٩، معرفة القراء الكبار ١/ ٢٥.

(٣) أعلام الموقعين ١/ ٢٠٣.

(٤) المزني: إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل (ت٢٦٤هـ) ناصر مذهب الشافعي. كان زاهداً مجتهداً، له ترجمة في: طبقات الشيرازي/ ٩٧، طبقات السبكي ١/ ٢٣٨.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٦٦.

إن من الحقائق المذهلة بل والمرة أن ينشغل الناس عادة بالنتائج دون النظر في المقدمات. والمقدمات لم تأت من فراغ..!

إن ترتيب النتيجة على المقدمة، والجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب أمر حتمي لا يختلف عليه العقلاء، وهو في القرآن يزيد على ألف موضع.. وإن النتيجة بنت المقدمة والجزاء من جنس العمل.

فلماذا تختلف التبريرات والتعليلات والاجتهادات؟، ولماذا يظن الناس أن القانون يمكن أن يختلف! وأن السنة الكونية يمكن أن تتعطل، أو تحابي أحداً على حساب أحد!.

أو أن يختلف المتساويان، أو يتساوى المختلفان في الحكم!

إن ما يجري على الشيء يجري على مثيله، ذلك منطق الفطرة، ومقتضى العدل، وتشريع النبي ﷺ، وتعليمه لأمته وبه قال الصحابة والمجتهدون في مختلف الأعصار، وعليه دل العقل والنقل وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته وتحقيق منهجه والتقرب إليه بمعرفة حقه والشفقة على خلقه..

قال ابن القيم:

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع.

* فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ ٧/١٦٦.. وهذا كثير جداً.

* وتارة يرتبه بصيغة الشرط والجزاء، كقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ ٨/ ٢٩ ونظائره...

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر، أو الأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل في ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال، ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً..[١].

وأخيراً:

يجب ألا ندور في وهم، أو في حلقات مفرغة من التبريرات، والتعليلات، والتماس الأعذار فيما نزل بالأمة. متجاهلين حقيقة الأسباب المفضية إلى تلك النتائج.

يجب أن تكون للمسلم بصيرته النافذة الناقدة بما يشهد ويعلم ويجرب.

يجب أن تبادر جماعة من العبّاد الأبرار لإصلاح الواقع، ومخاصمة الفجار إبراءً للذمة، والتماساً للعذر فلا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى.

ومن أنفع ذلك تدبر القرآن والسنة، فيجب صرف الهمة إليهما، والحفاظ على اللغة العربية، ثم تأمل أخبار الأمم، وسنن الله في كونه، وحكمه في أهل الطاعة، وحكمه في أهل المعصية، فالتاريخ فيه تفصيل ما ورد في القرآن والسنة من جزئيات.

---

(١) الداء والدواء/ ١٧.

فمن يدرك ذلك ويفهمه قبل أن يحال بينه وبين الإدراك والفهم!

قال ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون[1] الدنيا بالدين، يلبسون جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترّون؟، أم عليّ يجترئون؟، فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً»[2].

فوجب تدارك الأمر بدراسة أسباب العجز والضعف والهوان والمسخ. ومقاومة تلك الأسباب مقاومة جادة، وإحلال أسباب القدرة والقوة والعزة، واكتمال الحقيقة..

وإلا فإن أمر الله كائن «فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً».

وأظن أنها كادت إن لم تكن!

---

(١) ختل: طلب، والمعنى يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يقال ختله يختله إذا خدعه وراوغه، وختل الذئب الصيد إذا اختفى له، والختل المراودة والطلب من حيث لا يشعر المطلوب، النهاية ٢/٩.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد ٤/٦٠٤، من حديث أبي هريرة. قال وفي الباب عن ابن عمر ثم ساقه وقال: وهذا حديث حسن غريب من حديث ابن عمر لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

إذا كثر الخبث؟

جواب لسؤال، مبعثه الدهشة والاستغراب، ذلك أنه لما لاحظت أمنا أم المؤمنين زينب[١] قلق النبي ﷺ، وفزعه من نومه: وهو يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب!».

قالت أم المؤمنين أنهلك وفينا الصالحون! قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[٢].

خلاف الطيب، وأصله الرديء الجاري مجرى خبث الحديد كما قال الشاعر:

سبكناه نحسبه لجينا   فأبدى الكير عن خبث الحديد

ويتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال والقبيح في الفعال[٣].

قال ابن العربي[٤]: فيه البيان بأن الخيِّر قد يهلك بهلاك الشرير

---

(١) هي زينب بنت جحش، وابنة عمة رسول الله ﷺ، من سادات النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً (ت٢٠هـ) وهي التي كان النبي ﷺ، يقول عنها: أسرعكن لحوقا بي أطولكن يداً. وإنما عني طول يدها بالمعروف. طبقات ابن سعد ٨/ ١٠، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١١، تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٢٠.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن ٩/ ٦٠، ٧٦، ومسلم في صحيحه كتاب الفتن ٤/ ٢٢٠٧، ٢٢٠٨، والترمذي في سننه كتاب الفتن ٤/ ٤٧٩، ٤٨٠، وابن ماجه في سننه كتاب الفتن ٢/ ١٣٠٥، والإمام مالك في الموطأ/ ٧٠، وأحمد في مسنده ٦/ ٤٢٨، ٤٢٩، والحميدي في مسنده ١/ ١٤٨.

(٣) المفردات/ ١٤١.

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد (٤٦٤ ـ ٥٤٣ هـ) الإمام الحافظ العلامة صاحب العارضة ـ القدرة على الكلام ـ ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦،=

إذا لم يغير عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدي ذلك ويصر الشرير على عمله السيء ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد فيهلك حينئذ القليل والكثير ثم يحشر كل أحد على نيته[1].

قال القرطبي[2]: قال علماؤنا في الحديث دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون.. فأما إذا كثر المفسدون وقل الصالحون، هلك المفسدون والصالحون معهم إذا لم يأمروا بالمعروف ويكرهوا ما صنع المفسدون وهو معنى قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ٨/ ٢٥ بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها، هذا بفساده وهذا برضاه[3].

كثرة الخبث إذاً سبب كل هلاك وفوضى واضطراب وخراب، جماعي، هلاك الخير والشرير، إذ لا يخلو كل خبيث من أن يكون أسير هواه وشهواته، ناشرا خبثه بين الناس، يود لو أن كل واحد مثله. كما قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ ٤/ ٨٩.

أي هم يودون لكم الضلالة لتستوا أنتم وإياهم فيها وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم[4].

وكثرة الخبث لم تولد فجأة، أو تظهر بدون مقدمات، أو كان وجودها عرضا، بل أصبح عرفاً سائدا وعملاً جماهيريا، ونمطاً عاماً بالسكوت عليه.

= تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٨، طبقات الداودي ٢/ ١٦٢.

(١) فتح الباري ١٣/ ١٠٩.

(٢) القرطبي، المفسر الجليل محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري (ت٦٧١هـ) طبقات الداودي ٢/ ٦٩.

(٣) التذكرة/ ٦٠٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٣٣.

والأرض لم تخلو من قائمين لله بالحجة، وصالحين يبادرون أهل الفساد والنكير والإصلاح والتغيير خشية الدمار الجماعي، بيد أن تمادى الكثرة في خبثها وعدم جدوى المحاولة سبب علو الكثرة واستظهارها وارتفاعها، فإذا علا أهل الفساد والخبث وهم كثرة، فقد لخص أمير المؤمنين عمر رض الله عنه[1] النهاية وحدد النتيجة في صياغة قانونية.

ذلك أنه لما سئل أتوشك القرى أن تخرب وهي عامرة! قال: نعم إذا علا فجارها على أبرارها، وساد القبيلة منافقوها[2].

هذه من عمر كتلك التي كانت من نبينا محمد ﷺ، الرمز واضح، والعلاقة بينة، والربط بين كلا الجوابين ظاهر.

ولا عجب فالحق يخرج من مشكاة واحدة، وعليه نوره، وليس على الحق دليل أبين من هذا مهما نأت بأهله البلاد وتباعدت الديار فإنهم يجرون على طريقة واحدة لا يميلون ولا يحيدون.

ولو جمعت ما جرى على ألسنتهم وجدته كأنه جاء من قلب واحد، وجرى على لسان واحد!.

لكن هل كثرة الخبث نتيجة ذيوعه وشيوعه فتكون الكثرة كمية، ويقع من الغالبية!

أم يمكن أن تكون الكثرة بفعل قلة من الناس صار هذا ديدنها ودأبها وطبعها السائد!

---

(١) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الفاروق ـ رضي الله عنه ـ أيد الله به الإسلام، الصادق المحدث الملهم. جعل الله الحق على لسانه وقلبه، أول من سن للمحدثين سنة التثبت في النقل حتى قالوا: عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر فإنه كان قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله ﷺ. (ت٢٣هـ) له ترجمة في: تذكرة الحفاظ ١/٥، الإصابة ٢/٥١٨، الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/٤٥٨، شذرات الذهب ١/٣٣.

(٢) الداء والدواء/ ٤٥.

وكذا الأمر في علو الفاجر وسيادة المنافق قد يثير هذا الإشكال.

فقهر الفجار واستيلاء المنافقين وتجبرهم وارتفاعهم. هل هو رغم قلتهم. أم أن الغالبية صار هذا وصفها!

الظاهر ـ والعلم عند الله ـ أن الأمر لا يرتبط بكثرة عددية ولا زيادة في كمية، بل يمكن أن تكون كثرة الخبث بإكسابه حق الوجود الشرعي، ووسمه بسمة الاستقرار والتأصيل. بسبب السكوت عنه وعدم مقاومته تلك المقاومة الجادة، ولو كان الفاعلون له قلة. كما في علو الفاجر وتوليته لأمثاله.

فالخبث خبث في كل الأحوال إلا أن ضرره يكون أقل إذا لم يظهر، أو ظهر وعمل الناس على مقاومته.

كما في تمادي الفاجر في فجوره، واستخفاء الأبرار وأهل الصلاح، وخوفهم وسكوتهم عند وقوع الشر منهم، وهذا ما يشهد له الواقع.

الأمر إذاً لا يقاس بعدد الموجودين له، فالخير موجود، وفي الناس حب له، وحرص عليه. وهو أمر مركوز في الطباع والفطر.

كما في الناس نفور من الشر ورفض له وتأب عليه، وهو كذلك مركوز في الطباع والفطر.

وعدد الخيرين ونسبهم في ازدياد مستمر، لكنها زيادات عديمة الفاعلية، قليلة الجدوى، إذا ما قورنت بما يحدثه المسيطرون على الأمور الموجهون لها، المالكون لزمامها..؟

ولعل في ترجمة الإمام مالك[1] رحمه الله كما في الموطأ

---

(١) إمام دار الهجرة، مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي (٩٣ ـ ١٧٩هـ) من أقواله: قال بلغني أنه ما زهد أحد في الدنيا واتقى الله إلا نطق بالحكمة، وقال: إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه. وكان يقول: حق على من=

للحديث ما يساعد على ذلك، إذ قال: باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة..[1].

وهو ما دلت عليه الآيات. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ ١٦/١٧.

فالفسق وقع من البعض، والدمار على الكل، وما في هذا ظلم، فالأمة تؤاخذ وينالها العقاب إن سكتت عن وقوع المنكر من بعض أفرادها.

وكون العامة معاقبة بعمل الخاصة، فلأن الأمة جسم واحد، ولأن ترك إنكار المنكر من العامة على الخاصة، قد يجعلهم في سلك الآثمين لتركهم واجباً، وإن كانوا غير آثمين باعتبار عدم المشاركة.

قال الله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ٢٥/٨.

المعنى أنها لا تختص بالظالمين وحدهم، بل تشملهم وتشمل غيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقرأ طائفة من السلف[2] ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ وكلا القراءتين حق، فإن الذي

= طلب العلم أن يكون له وقار وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسْم الله تعالى، فلا تمكن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطىء، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه. ترجمته في الحلية ٣١٦/٦، طبقات الشيرازي/٦٧، وفيات الأعيان ١٣٥/٤، سير أعلام النبلاء ٤٨/٨، تذكرة الحفاظ ٢٠٧/١. تهذيب التهذيب ٥/١٠ ـ شذرات الذهب ١٢/٢.

(١) الموطأ/ ٧٠.

(٢) هي قراءة زيد بن ثابت، وعلي، وابن مسعود رضي الله عنهم جميعاً. التذكرة/ ٦١٠.

يتعدى حدود الله هو الظالم، وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ ٨/ ١٦٥.

فأنجى الله الناهين. وأما أولئك الذين كرهوا الذنب ومن قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فالأكثرون على أنهم نجوا أيضاً، لأنهم كانوا كارهين للذنب، وأنكروا بحسب قدرتهم. وأما من ترك الإنكار مطلقاً فهو ظالم لنفسه ولغيره. فوجب أن يعذب كما قال النبي ﷺ، «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[١]. وهو حديث موافق للآية، والمقصود هنا أنه يصح النفي والإثبات في الآية باعتبارين. كما أن قوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لا يختص بالمعتدين، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره ومن ثَمَّ يعم بلاؤها من وقع ومن رضى، هذا بوقوعه وفساده. وهذا برضاه وسكوته وإقراره. ومن قرأ من السلف «التصيبن» يكون المعنى أنها تختص بالظالم فقط ولا تتعداه إلى غيره[٢].

هذا العذاب قد يكون في الدنيا ثم يبعث الله الناس على نياتهم، كما في حديث الجيش الذي يغزو الكعبة.. وفيه: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم. فقلت[٣] يا رسول الله: فكيف بمن كان كارها؟ قال

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢/ ١٣٢٧، وأحمد في مسنده ١/ ٢،٥،٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٣٨٢.

(٣) التي في سند الحديث أنها أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وقد ذكر مسلم بعد هذه الرواية حديثاً من رواية حفصة وقال: عن أم المؤمنين ولم يسمها،=

يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»[1].

فبدرجة الكره والإنكار يؤدي المرء ما عليه، إن لم يستطع غيرها، وبشرط الإخلاص فيهما لله تعالى والتبرؤ من ذلك، وهجر المكان ما أمكن. كما هو صنيع بعض السلف[2].

قال مالك: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها.

وقال: لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق والسب للسلف[3].

فإن هم سكتوا، ولم يحدث تغيير وإنكار بأقل درجاته، فالكل آثم والكل معاقب بهذا الإثم.

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب.

قال الحافظ[4]: ولهذا الأثر شاهد من حديث عدي بن

= فالحديث إذا محفوظ عن حفصة وعن أم سلمة، وقد قيل إن أم سلمة توفيت قبل فتنة ابن الزبير، في خلافة معاوية، فذكرها غير مستقيم، ومن قال إنها توفيت أيام يزيد فالأمر مستقيم. قال الدارقطني: هي عائشة. صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٤/٢٢٠٩.

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٠٨، والبخاري معلقاً في الحج ٢/١٨٣، ووصله في البيوع ٣/٨٦، وأحمد في مسنده ٦/١٠٥، ١٠٩.

(٢) هكذا كان الحكم فيمن قبلنا هجر أماكن الفتنة، كما في قصة السبت. وبه قال مالك رضي الله عنه واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية.

(٣) التذكرة/ ٦١٢.

(٤) الحافظ أحمد بن حجر بن علي العسقلاني شيخ الإسلام (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) له ترجمة في: ذيل تذكرة الحفاظ/ ٣٨٠ ـ طبقات الحفاظ/ ٥٥٢، شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠.

عميرة[1]. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإن فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»[2].

فيكون هلاك الخاصة والعامة عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي والمجاهرة بها، طهرة للمؤمن ونقمة للفاسق لقوله ﷺ: «ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته».

وعليه فإن شؤم المعصية يعم من وقع فيها ومن رضيها. الأول بفعله والثاني برضاه وإقراره: وما في هذا تعارض مع النصوص الأخرى تلك التي توجب ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ذلك أن الواجب عند رؤية المنكر تغييره، فإن هو فعل فقد أدى ما عليه، فإن عجز عن التغيير أنكر بقلبه وليس وراء ترك الإنكار بالقلب حبة خردل من إيمان. ولذا لا يعذر أحد بتركه.

فأما إن سكت ولم يعمل على بلوغ تلك الدرجة، فهو عاص برضاه وسكوته كما أن الفاعل عاص بفعله. وقد جعل الله بحكمه وحكمته الراضي بمنزلة الفاعل فانتظم في العقوبة معاً. دليله قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ ٤/ ١٤٠. ففيم تكون المثلية إذاً؟

يجب أن تتولد عند الناس غيرة، مقاومة لكل منكر مهما كان. فالمنكر منكر مهما دق حجمه، وإلا لزم الجميع عاره. وكان كل من رضي به كمن فعله.

---

(١) عدي بن عميرة من بني فزارة الكندي، صحابي معروف، قيل مات بالكوفة (سنة ٤٠ هـ) الإصابة ٢/ ٤٧٠. تهذيب التهذيب ٧/ ١٦٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٩٢، وأبو داود في سننه: ملاحم ٤/ ١٢٤، وإسناده حسن، فتح الباري ١٣/ ٤.

قال وهب[1]: لما أصاب داود الخطيئة قال يا رب اغفر لي. قال: قد غفرتها لك وألزمت عارها بني إسرائيل. قال: كيف يا رب وأنت الحكم العدل الذي لا تظلم أحداً، أعمل أنا الخطيئة ويلزم عارها غيري، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود إنك لما اجترأت علي بتلك المعصية لم يعجلوا عليك بالنكرة[2].

ومن هذا أن لما حسن رجل عند الشعبي[3] قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه[4]. قال الشعبي: قد شركت في دمه.

---

(١) وهب بن منبه بن كامل أحد التابعين الثقات، حدث عن جملة من الصحابة. من أقواله: العلم خليل المؤمن. والجسم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيمه، والصبر أمير جنوده والرفق أبوه، واللين أخوه، وقال: المؤمن ينظر ليعلم ويتكلم ليفهم، ويسكت ليسلم، ويخلو ليغنم، وقال: استكثر من الإخوان ما استطعت فإن استغنيت عنهم لم يضروك وإن احتجت إليهم نفعوك. له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٥/٥٤٣، الحلية ٤/٢٣، طبقات الشيرازي/٧٤، وفيات الأعيان ٦/٣٧، تذكرة الحفاظ ١/٩٥، سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٤، تهذيب التهذيب ١/١٦٦.

(٢) التذكرة/٦١١.

(٣) الشعبي: عامر بن شراحيل ـ الإمام علامة العصر، (ت٢٠٤هـ) أدرك جماعة من الصحابة، كان يقول: ما بكيت من زمان إلا بكيت عليه، ويقول: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقيه من إذا علم عمل. ويقول: ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ـ له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٦/٢٤٦، تاريخ بغداد ١٢/٢٢٧، طبقات الشيرازي/٨١، وفيات الأعيان، ٣/١٢، سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤، ـ تذكرة الحفاظ ١/٧٤.

(٤) أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ من السابقين الصادقين، تستحي منه الملائكة، قتل شهيداً في داره مظلوماً ـ قاتل الله قاتله ـ (سنة ٣٥هـ) له ترجمة مشهورة وقد قام بدراسة حياة هذا الخليفة دراسة علمية الشيخ الفاضل محمد الصادق عرجون، في كتاب عثمان بن عفان الخليفة المفترى عليه. وانظر تذكرة الحفاظ ١/٨، معرفة القراء الكبار ١/٢٤، طبقات الحفاظ/١٣، شذرات الذهب ١/٤٠.

وفي الحديث أن النبي ﷺ، قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: فأنكرها ـ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[1].

فغاية الأمر وجماله أن التصدي للمنكر فرض حتم على كل مسلم حفاظاً للأمة وحرزاً، وليس هذا من فروض الكفايات التي يعفى بتركها بعض الناس، فكل حسب طاقته، فاحرص على النطق بكلمة الحق واعمل على رفض الباطل ومقاومة الضلال. ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

واستكمل إيمانك وطاعتك بقوتك الإيمانية والعلمية. ثم كمل غيرك بوصيته بذلك، وأمره به وبملاك ذلك كله وهو الصبر، ولا تكن من الخاسرين الغافلين عن نفع نفسه ونفع غيره، بل اعرف الحق واشتغل بدلالة الخلق عليه، فربك لم يكتف منا بمجرد معرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضنا بعضاً ويرشده ـ فكل من عدا هؤلاء ـ من كمل نفسه وكمل غيره. فهو من الخاسرين.

هذا وللفتن علاقة وثيقة وارتباط محكم بانتشار المنكر وذيوعه وظهوره، والمطالع لدواوين السنة يدرك عمق هذا.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الملاحم ٤/١٢٤، وعنده أيضاً: «لن يهلك الناس حتى يعذروا، أو يعذروا من أنفسهم..» وانظر طرقاً للحديث في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٣١١.

الهلاك واحد... والمصادر شتى

متى ظهر المنكر، وجاهر الناس بالمعاصي، وعالنوا بها.. يكون إهلاك الناس. ثم يبعث الله الناس على نياتهم..

فيكون الهلاك واحداً بلا تفريق أو تمييز.. دل على هذا الحديث المتقدم. «فكيف بمن كان كارها!؟ قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته».

وفي بعض طرقه: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»[(١)].

ويشهد لهذا ما أورده ابن حبان[(٢)] في صحيحه أن النبي ﷺ، قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وعنده أيضاً «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»[(٣)].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الفتن ٩/ ٧١ من حديث ابن عمر.

(٢) ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، أحد فقهاء الدين وحفاظ الآثار، ومن ألوية العلم في الفقه واللغة والحديث، (٢٧٠ ـ ٣٥٤ هـ) ترجمته في: معجم البلدان ١/ ٤١٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٢، تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٢٠، ميزان الاعتدال ٣/ ٥٠٦، لسان الميزان ٥/ ١١٢ شذرات الذهب ٣/ ١٦.

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/ ٢٦١.

ويجمع بين هذه الأحاديث عموم العقاب، الهلاك. للطائع والعاصي، ويجازي كل إذا بعث على نيته، وعلى عمله.

والعمل مختلف، والنوايا لا يطلع عليها إلا الله.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ ١٧/ ٨٤. تنوعت الأعمال ومن قبلها تنوعت النوايا.

ولا يلزم من الاشتراك في صفة الهلاك أو العقاب الدنيوي بالموت الاشتراك بعد ذلك في العاقبة والجزاء. وإنما ينال كل بمقدار ما قدم وعمل.

فإذا تساوى الناس في تحسّ كأس المنون لا فرق بين غبي وألمعي، وأنه قدر محتوم لا ينجي منه فرار أو حذر: فإن الكل سيموت الموتة التي كتبها الله تعالى عليه ـ وفروق هائلة بعد ذلك في المنزلة، وفي الحياة البرزخية، وما يلي ذلك من مواقف ومشاهد.

من هنا فإذا عجز المرء عن مقاومة المنكر بمراتبه المختلفة، استحب له أن يهرب من مواطن الفتنة، فقد جوز العلماء الهرب من الظلمة والفسقة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة. هذا إذا لم يعنهم ويرضى بفعالهم. فأما إذا أعان ورضي فهو منهم ومشارك لهم.

معنى هذا ـ أنه متى وجد المرء سبيلاً إلى هجر أماكن الفتنة فلا يتردد في تركها، فقد أذن النبي ﷺ بالإسراع في الخروج من ديار ثمود. لكن ما العمل إذا كانت الديار كلها ثمودية.

يصور لنا ذلك ما ثبت عن عمر بن عبد العزيز[1] قال: فلان

---

(١) أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان، الإمام المجتهد الزاهد العابد رضي الله عنه، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إن من ولدي رجلاً بوجهه شتر. يملأ الأرض عدلاً. كان يقول: من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، وكان يقول: إن لي نفساً=

بالمدينة، وفلان بمكة، وفلان باليمن، وفلان بالعراق، وفلان بالشام. امتلأت الأرض والله جورا[1].

وهذا من الفتنة أيضاً ـ أن تكون بمكان يعمل فيه بالبلاء فتريد الانتقال إلى مكان آخر لا يعمل فيه بالبلاء فلا تجده.

وأخيراً فبعث الناس على نياتهم وأعمالهم من مقتضيات العدل، حكم عدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة، أما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيراً لما قدموه من عمل سيء، فكان العذاب المرسل في الدنيا من الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاء على مداهنتهم، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله[2].

وتأمل من كان معهم ولم ينكر عليهم! فكيف بمن زين وأعان وظلم؟

وفي هذا تتضح جوانب المعارك الدائمة بين القائمين لله بالحجة وبين المعاندين.

= تواقة وإنها لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أعطيت ما لا أفضل منه، تاقت إلى ما هو أفضل منه ـ يعني الجنة، ترجمته أفردها ابن عبد الحكم بكتاب مستقل هو سيرة عمر بن عبد العزيز، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤، طبقات ابن الجزري ١/ ٥٩٣، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥. حلية الأولياء ٥/ ٥٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨.

(١) التذكرة/ ٦١٢.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٦١.

وهذي الليالي كلها أخوات

الأيام بنت الليالي. والليالي تلدن كل عجيب.

لا بد من بيان حالنا وحال زماننا الذي نعيش فيه وإثبات أن المسلم المتمسك بدينه في غربة ما بعدها غربة. وأن محن المسلمين لم تكن في أي وقت كما هي الآن. وأن حرمان المسلم من العيش في ظلال الإسلام لم يحدث في التاريخ كله كما هو حادث في هذا الزمان.

وأن أوجهاً من الشبه كبيرة تربط بين واقعنا اليوم وما كان عليه العرب في جاهليتهم قبل الإسلام.

ملامح جاهلية

من ينظر في واقعنا المعاصر. وفي واقع العرب قبل الإسلام يجد أوجهاً من الشبه عدة، وكأني بالعالم حين واجهه الرسول ﷺ، كما هو الآن. فهل علينا أن نراعي هذا التشابه؟

ولماذا؟

لنصل إلى القيمة التي قررها الإسلام للإنسان من ناحية، وإلى أسباب الهبوط والارتقاء من ناحية أخرى، ولنتأمل معالم تلك النقلة البعيدة المدى في شتى جوانب الحياة، ولندرك عمق الفارق بين تلك المعالم وبين حالات التردي والتراجع. فنعلم جميعاً أننا إذا لم نكن بالإسلام فلن نكون، وإذا لم يكن الإسلام بنا فسيكون بغيرنا.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ ٤٧/٣٨.

وإذا صح أن يوصف عالم اليوم بأنه يعيش مرحلة التيه، أو مرحلة المقت لما كان في الأمر غرابة، إذ لم يمر العالم بتجربة أمر، ولا أقسى مما هو عليه الآن.

ملامح ذلك:

*** تلك الاتجاهات المتناقضة والمتعاقبة، التي تستولي على الإنسان، فتوزعه وتشتته وتوسع الفجوة بينه وبين ما يصبوا إليه من أمن وأمان وسكينة واستقرار.**

* التدمير النفسي والروحي للشخصية الإنسانية، وانتكاس فطرة الإنسان قديماً وكذلك اليوم.

إذ لو ألقى الإنسان نظرة متأنية في حياة العرب قبل الإسلام لرأى ما يفطر الأكباد ويزلزل العقول. ذلك أن العرب قديماً خاضوا في الشهوات والشبهات ووقعوا في الأدناس. ومثل هذا نجده اليوم.

همة أحدهم بطنه ودينه هواه.

* ظهرت في الناس سكرتان؛ سكرة الجهل، وسكرة حب العيش.

* أصيب البناء النفسي والروحي بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً فإذا كل شيء في غير محله.

* هانت على الإنسان إنسانيته، فسد عقله وذوقه. وضاع نظام تفكيره.

* انقلبت الأمور، فآمن في موضع الشك، وارتاب في موضع الجزم.

* اختلت الموازين، وانعسكت الخطوط وفسدت الأذواق، وتداخلت العواطف، فلم توظف التوظيف الملائم، فانقلبت إليه وعادت وبالاً عليه. وكل هذا كائن الآن.

* سيطر على الناس الهوى فعنه يصدرون وإليه يردون، وإذا كان هذا حالنا فقد سقطنا وخسرنا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

* أصبح الإنسان نموذجاً للتناسي. نسيان النفس، الهدف والغاية من الوجود، ومن ثَمَّ فقد تغير فيه كل شيء وبحكم التناسي تحولت الرذيلة فضيلة، وانقلبت الشجاعة فتكاً وهمجية، ومثل هذا نجده الآن.

* اختلت المعايير، وانطلق الناس من الأهواء، وأصبح البشر

نوعاً من السوائم السائبة حتى في رقيهم وتقدمهم، فلو ذهبت تحلل التقدم الذي أحرزه البشر العصريون فلن تجد إلا طباع الحيوان، فضائل السباع، مخالب الطيور. مناسر اللصوص.

* انتكست الفطرة ـ كان هذا هو الواقع السائد قبل ظهور الإسلام. وهو السائد الآن، وسيزداد سوءاً مما يغمر القلب كآبة ثقيلة، ولعله مما يشق أمره استقصاء الأحوال وتتبعها وما أهدف إلا إلى:

* الربط الواقع بين العهدين في كل شيء تقريباً، ثم ما يترتب على ذلك من انحطاط وضياع وسقوط.

* بقاء الأصل الوحيد المحفوظ صحيحاً سليماً إلى أن تفيىء البشرية إلى ظله وتثوب إلى قواعدها الربانية.

* وبدون هذه العودة إلى الكتاب والسنة فإن كل شيء لا يبقى في مكانه اللائق به، بل سيفارقه إلى غير رجعة.

ولعله مما يبعث على العجب والاستغراب أن الناس قديماً قبل الإسلام، كانت لهم أعذار فما نزل عليهم كتاب ولا جاءهم رسول كما أخبر ربنا ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ ٦/٣٦. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٣/٣٢، فما عذر البشرية الآن؟

وما عذر المؤمنين من البشرية الآن؟

إنه بمقدار ما يتساهل المسلمون في تحقيق إسلامهم، بمقدار ما يضيعون في الحياة.

وبمقدار ما يضيعون بمقدار ما يتواجد غيرهم؟

إن العالم المادي إنما يتقدم بعوامل تأخرنا، وبحكم نسياننا لوظيفتنا وحقيقة أنفسنا وعجزنا عن أن نخطوا خطوة في دائرتنا

الإنسانية. ومن يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض[1].

ثم ماذا ـ تكون النتيجة أن يتقدم، العالم بالوفاق، ونتأخر نحن إلى الوراء.

(١) وجهة العالم الإسلامي/ ٢٥.

إذا لم نجد إلا أخانا

* قديماً كانت الأمة مهلهلة، منقسمة حتى على نفسها، موزعة فرقاً وشيعاً وأحزاباً. لم تكن لها إمامة أو قيادة واعية حكيمة توجهها أو تأخذ بيدها.

لم تكن لها قوانين تضبطها أو تكبحها، تقوم الحروب بينها لأتفه الأسباب، وبدون أسباب، فإذا لم يجدوا من ينابذوه العداء، أو يحاربوه حاربوا أنفسهم.

بغاة ظالمين وما ظلمنا　　ولكنا سنبدأ ظالمينا

* * *

وأحياناً على بكر أخينا　　إذا لم نجد إلا أخانا

* * *

ترى الناس إن سرنا يسيرون حولنا　　وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

* * *

هذه مآثرهم وما خلفوه من مناقب كما تحفظها سجلاتهم ودواوين أشعارهم فهل يختلف الأمر الآن؟ وهل حال الأمة اليوم يفترق عن حالها قبل الإسلام؟

بطر يتملك المرء كلما شعر بتفوقه. تحكم في إرادة الآخرين. لم يعد الصغير يأمن الكبير، ولا الجار جاره، ولا الأخ أخاه وعندما يبلغ مجتمع هذه الحالة، وتتوقف رياح الدفع التي حركته نحو الوعي والقيم والخير، عن تحريكه تفقد الأمة أعز ما لديها، بإهماله وإهداره - وثمن الإهمال والإهدار العذاب من حيث لا تشعر.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٩/ ٥٤ ـ ٥٥.

لقد كان للعرب قديماً وجود، أتت عليه عوامل الفناء والدمار فأنزل الله قانونه العادل وبأسه الذي لا يرد عن القوم الظالمين، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ ٣٤/ ١٧.

ذبذبة بين قوتين؟

* في القديم كان العالم يسوده قوتان؛ الفرس والروم. والعرب لأيهما تبع.

أكاسرة الفرس يدعون الناس إلى تقديس الدماء التي تجري في عروقهم لأنها بزعمهم دماء آلهة ليست من نوع دماء العامة، وعلى الناس أن ينظروا إليهم كآلهة لا تجري أسماؤهم على ألسنتهم، ويرونهم فوق القانون، والانتقاد، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل الناس، وليس للناس حق عليهم. ولم تكن الأمم في ظل الحكم الروماني إلا خادمة، تستهين الدولة بكل حق ومبدأ، ولا يمنع من هذا الاشتراك في دين أو عقيدة والإخلاص والوفاء للمملكة، والأمم ناقة ركوب في بعض الأحيان. حلوب في بعضها، لا يقدم لها من العلف إلا ما يقيم صلبها أو يدر ضرعها[١]..

باختصار كانت النظم لا تحس بشيء من العطف نحو الشعوب الخاضعة لها، فماذا كانت نظرتها إلى أمة العرب؟!

كان العالم لا يأبه بالعرب، ولا يقيم لهم وزنا، كان العرب كما حكى القرآن ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ٨/٢٦.

أرأيت؟ ماذا بعد هذا؟ قليل! مستضعفون في الأرض؟ تخافون - ومن أي شيء؟ إنهم أشبه بقطعة لحم في يد طفل. أعلمت دلالات هذه الكلمات. قليل.. لا ترى ولو بالمجاهر المكبرة. مستضعفون في

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٩ - ٧٧.

الأرض، بعمومها واختلاف أماكنها، لا قوة لهم، ولا عدد. بل ضعف، قلق، خوف، فزع، وجل، زيغ. هذا قدْر العرب كما ذكر القرآن؟ فانظر قدرهم عند عدوهم وعند أنفسهم: «لما كان يوم القادسية، ذهب المغيرة بن شعبة[1] في عشرة إلى صاحب الفرس، فقال: إنا قوم مجوس، وإنا نكره قتلكم لأنكم تنجسون علينا أرضنا[2]؟.

فتأمل: نكره قتلكم لأنكم تنجسون علينا أرضنا، وأي هوان بعد ذلك.

ثم لندع واحداً من الأصحاب يصور لنا وضع العرب قبل الإسلام. قال ابن مسعود: لقد كنا كالغنم في الليلة الشاتية.

وقال أبو برزة الأسلمي[3] وقد سأله أبو المنهال[4] ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ قال: إني احتسبت عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام ومحمد ﷺ، حتى بلغ

---

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الأمير، من كبار الصحابة أصحاب الشجاعة والمكيدة، ويقال له مغيرة الرأي. اختلف في سنة وفاته فقيل (٥٠هـ). طبقات ابن سعد ٤/ ١٨٤، تاريخ بغداد ١/ ١٩١، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١، شذرات الذهب ١/ ٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٢.

(٣) أبو برزة الأسلمي: نضلة بن عبيد، ممن أسلم قديماً وشهد فتح مكة (ت ٦٠ هـ) قيل كانت لأبي برزة جفنة من ثريد غدوة وجفنة عشية للأرامل واليتامى والمساكين. له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٤/ ٢٩٨، الجرح والتعديل ٣/ ٣٥٥، تاريخ بغداد ١/ ١٨٢، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٠. تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٦.

(٤) أبو المنهال: سيار بن سلامة الرياحي، من ثقات التابعين (ت١٢٩هـ) تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩٠. تقريب التهذيب ١/ ٣٤٣.

ما ترون، وهذه الدنيا قد أفسدت بينكم[1]. كان هذا أمراً سائداً ووضعاً قائماً قبل الإسلام.

ثم تأمل بعد هذا معالم النقلة البعيدة، والوثبة الفسيحة الواسعة، أسبابها، آثارها، خطواتها، مدى ما فيها من عموم وشمول. لنصل معاً إلى أنه لا بتر للمفهوم التاريخي.

ولا إبطال للماضي، ولا انسلاخ عنه، ولا تمرد أو عصيان عليه. وتتضح أهمية هذا في أنها تتيح لنا رصد عوامل الانحطاط والتقهقر، إلى جانب عوامل التقدم والنماء رصداً موزوناً في الوقت الواحد والآن الواحد، بلا بتر ولا تجزأة وانفصال.

إن ظاهرة التقدم غير منفصلة عن ظاهرة التأخر، وإن العالم الإسلامي لفي مسيس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدي سعيه نحو النهضة، ولهذا فإن مما يهمنا في المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه[2].

ثم ليكون بمثابة التنبيه لنا إلى أن ما نزل بغيرنا نازل بنا، ولا يظلم ربك أحدا، فمعاملة رب العالمين للأمم لا تدخلها المحاباة، وقانون الله واحد، من صفى صفى له، ومن خلط خلط عليه، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله[3]...

* وفوق هذا كله وزيادة على ما تقدم من أوجه للربط بين الجاهليتين فإن ثمة أمر آخر هو:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الصحيح ٩/ ٧٢، وأورده ابن سعد في طبقاته ٤/ ٣٠٠، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٢، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٣ مختصراً.

(٢) وجهة العالم الإسلامي/ ٢٦.

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي/ ٣٤.

رفض التحاكم إلى شرع الله تعالى وحده، والتحاكم إلى شرائع بشرية وضعية.

ولئن كان للناس قبل الإسلام عذرهم فليس لهم من عذر الآن.

ليس من عذر يتمسك به أبناء الإسلام في تغييبهم للإسلام.

وليس من عذر في غياب الوعي والفهم العملي للإسلام.

وليس من عذر في تعطيل شرع الله تعالى.

وليس من عذر في استيراد وانتشار الأفكار والثقافات الوافدة الغربية.

إنها لظاهرة مفتنة، وإنها لجديرة بالملاحظة تلك هي السرعة الهائلة في اتجاهنا نحو الغرب خاصة في مجال الثقافة والفكر، والله تعالى يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٩/٥١.

عصر الجاهلية العربية

وأخيراً فماذا يمكن أن نسمي عالمنا العربي وأهواله، وأي وصف يمكن أن يوصف به؟ ماذا بقي من أوصاف بعد ما قيل: نكبة، كارثة، نكسة، ضباب، حسم، عنق الزجاجة، النفق المظلم، الصمود، الانفتاح، أوراق الحل بيد، التطرف، الأصولية، الجمود، جيلنا المخدوع، بلادة الحس...

عشرات الأسماء، وإن جبلنا على اختراع الألقاب والعناوين الضخمة والمظاهر الكبيرة، فما من شك في أننا نحب أن تخترع لنا الألقاب!

ثم ماذا...؟ لقد كانت المحصلة لهذا كله ما شهدت به تقارير لجان حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية سنة ١٩٩٠ م بألف واقعة ودليل. على أن مؤشر إهدار كرامة الإنسان العربي في تصاعد وبصورة لافتة للنظر، وأن التقدم الذي أحرزه العالم اقترن بتراجع محزن في العديد من أقطار العالم العربي؟؟[1].

(١) جريدة الخليج، الثلاثاء ١/١/١٩٩١م.

الفصل الثاني

بداية الفتنة تبديل

- معنى التبديل.
- التبديل سمة من؟.
- جنايات المبدلين.
- الاعتصام بالميثاق

من الأدب إجراء الأحاديث التي خرجت مخرج الزجر والتنفير علىٰ ظاهرها من غير تأويل، فإنها إذا أولت خرجت عن مراد الشارع.



بداية الفتنة تبديل...

إنّ بلاء الإسلام ومحنته عظمت من المبدلين والمحدثين في دين الله ما ليس منه.

فما من فساد إلا ومنشؤه التبديل، ولقد جرىٰ علىٰ الإسلام منه ما جرىٰ.

بل هو أعظم الجنايات علىٰ الدين. وأصل فساد الدنيا والآخرة. وخراب العالم.

فما التبديل!؟

قيام الشيء مقام الشيء الذاهب.

بدل: غيَّر، جعل شيء مكان شيء آخر بعوض أو بدونه، فهو التغيير مطلقاً[1].

هذا الأمر عام في كل تبديل وإحداث، لا يخص أمراً دون آخر، ولا تتخلف محدثة دون أخرىٰ في حكم الفساد. كما لا يستثنىٰ من أفرادها شيء أو يخرج جنس..

وإلىٰ هذا يشير قول النبي ﷺ، «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٢١٠ ـ المفردات/ ٣٩.

وقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1].

وتحذيره ﷺ من المحدثات: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[2].

علىٰ سبيل العموم والإطلاق.

والحديث الأول واحد من أصول الإسلام العظيمة وموازين الأعمال الظاهرة. وأحد مدارات قواعد الدين الإسلامي. عده الإمام أحمد: ثلث الدين.

وعن إسحٰق بن راهويه[3] قال: أربعة أحاديث هي أصول[4] الدين، وعده منها.

فأمر التبديل والتغيير مهما قل عظيم خطير.

وهذا أمر مجمع عليه ومحل اتفاق بين سلف الأمّة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم، إجماع ثابت. عموم وإطلاق. ذلك أنّ التبديل مغايرة ومعاكسة، طرح شيء وإحلال آخر مكانه.

---

(١) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود ٣/ ٢٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور ٣/ ١٣٤٣، وأبو داود في سننه ٤/ ٢٠٠، وأحمد في مسنده ٦/ ٢٧٠، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان ١/ ١١٤، ١١٦.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٠١، وابن ماجه في سننه ١/ ١٥، ١٦، والدارمي في سننه ١/ ٤٤، والترمذي في سننه ٤/ ٤٤، وأحمد في مسنده ٤/ ١٢٦.

(٣) سيد الحفاظ، الإمام الكبير إسحق بن إبراهيم بن مخلد (١٦١ - ٢٣٨هـ)، وفيات الأعيان ١/ ١٩٩، ميزان الاعتدال ١/ ١٨٢، سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٥٨، تهذيب التهذيب ١/ ٢١٦، شذرات الذهب ٢/ ٨٩، الرسالة المستطرفة/ ٦٥.

(٤) وحديث إنما الأعمال بالنيات، وحديث إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، وحديث الحلال بيّن والحرام بيّن.

ففيه مضادة للشرع ومشاقة للشارع. ولذلك ترىٰ المبدلين يؤلوا كل ما يخالفهم ويتبعوا كل شبهة توافقهم طلباً للفتنة. وهو ما صرحت به الآية من سورة آل عمران، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ ٣/ ٧.

فذم متبعي تأويل المتشابه، وقرنهم بمبتغي الفتنة في الذم، ثم أخبر أن المتشابه لا يعلمه إلا الله، وقد دلت الآية علىٰ وصفهم بالزيغ الذي هو الميل عن حد الاستقامة، فلما فارقوا الاستقامة ومالوا عنها عاملهم بذلك[١].

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ ٦١/ ٥.

والزيغ يوصف به القلب والبصر كما في قوله تعالىٰ ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ٣٣/ ١٠.

وكما وصفهم بالزيغ الذي هو الميل عن الاستقامة، وصفهم باتباع المتشابه وهو قسيم المحكم الواضح الذي يعلمه الكثير من الناس لصفائه[٢].

ففي طبعهم عناد وشذوذ، قد شذوا في اتباع الشرع، وذلك باتباعهم المتشابه الذي تحار العقول في فهمه وتختلف في تحديد مقصوده لغموضه ودخوله في شكل غيره ولتفرد أهل الرسوخ في العلم بعد الله بفهمه ومعرفته، وذلك برده إلىٰ المحكم أو بالتفسير الصحيح الذي لا بدّ منه عند احتماله أوجهاً كثيرة وعدم استقلاله بنفسه[٣].

ولظهور الربط بين التبديل والفتن ترجم البخاري لأول حديث في الفتن بقوله «باب: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ وما كان النبي ﷺ، يحذر من الفتن..

---

(١) المفردات/ ٢١٧.

(٢) انظر البرهان للزركشي ٢/ ٦٨، مناهل العرفان ٢/ ٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري ٩/ ٥٨.

قال ابن حجر: يشير إلىٰ ما تضمنه حديث الباب من الوعيد علىٰ التبديل والإحداث، فإن الفتن غالباً إنما تنشأ عن ذلك... ثم ذكر حديث أسماء بنت أبي بكر[1] مرفوعاً «أنا علىٰ حوضي أنتظر من يرد عليّ فيؤخذ بناس من دوني أقول أمتي، فيقال لا تدري، مشوا علىٰ القهقرىٰ»[2].

قال ابن أبي مليكة[3]: اللهمّ إنّا نعوذ بك أن نرجع علىٰ أعقابنا أو نفتن[4].

فانظر كيف قرن بين الرجوع علىٰ الأعقاب والفتنة..

---

(١) أسماء بنت أبي بكر ـ والدة عبد الله بن الزبير، تلقب بذات النطاقين، عاشت إلىٰ أوائل سنة (٧٣ هـ) قالت لابنها يا بني عش كريماً، ومت كريماً، لا يأخذك القوم أسيرا، طبقات ابن سعد ٨/ ٢٤٩، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٧، تهذيب التهذيب ١٢/ ٣٩٨، الإصابة ٤/ ٢٢٩.

(٢) المشي إلىٰ الخلف من غير أن يعيد وجهه إلىٰ جهة مشيه، وقيل هو ضرب من الارتداد عما كانوا عليه ـ النهاية ٤/ ١٢٩ ـ.

(٣) ابن أبي مليكة/ عبد الله بن عبيد الله، كان قاضياً لابن الزبير (ت سنة ١١٧ هـ)، وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان. ترجمته في طبقات ابن سعد ٥/ ٤٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٨، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٠٦، طبقات الحفاظ/ ٤١.

(٤) صحيح البخاري ٩/ ٥٨.

حكيم الأمة يخاف

لما حيل بين المبدلين وبين النبي ﷺ، ربما بسبب ردتهم أو بما أحدثوه وابتدعوه، وبدلوه.

ولأنهم لم يموتوا علىٰ ظاهر ما فارقهم النبي ﷺ، وتركهم عليه، قال ﷺ، فأقول: «سحقاً لمن غيَّر وبدّل». . .

قال أبو الدرداء[1]: فقلت يا رسول الله: ادع الله أن لا يجعلني منهم، قال: «لست منهم»[2].

فسبيل ورودك الحوض. وعدم الحيلولة بينك وبين النبي ﷺ، أن تكون علىٰ الطريق، بلا تبديل، ولا تغيير، فإن كنت كذلك فأنت علىٰ الأثر، فقد كانوا يرون أنهم علىٰ الطريق ما داموا علىٰ الأثر.

وأمر الثبات واللزوم مقيد بالكتاب والسنة.

---

(١) أبو الدرداء، الإمام القدوة، حكيم الأمّة وسيد القراء، مختلف في اسمه فقيل: عامر، وقيل: عويمر، مات قبل مقتل عثمان ـ رضي الله عنهما ـ من أقواله: أعوذ بالله من تفرقة القلب، قيل وما تفرقة القلب؟ قال: أن يكون لي في كل واد مال. وقال: لولا ثلاث ما أحببت البقاء، ساعة ظمأ الهواجر، والسهر في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقىٰ أطيب الثمر ـ طبقات ابن سعد ٧/ ٣٩١، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٤، معرفة القراء ١/ ٣٨.

(٢) فتح الباري ١١/ ٣٨٥، وعزاه إلىٰ الطبراني، وحسن إسناده.

أمران لا ثالث لهما

جعل الله اتباع الوحي مضاداً للتبديل وقسيماً له، وحيثما تعيَّن اتباع الوحي، وجب رد ما عداه.

فإما الوحي وإما التبديل.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾..﴾ ١٠/ ١٥.

ففي الآية أمران متضادان.

القرآن.

قرآن آخر، بدلاً من الأول. مخترع أو مستحدث.

وتتكرر كلمة بدله، وما يطلب إحلاله محل القرآن.

ثم الإصرار علىٰ اتباع الوحي. وهذا كله واضح في أنّ القصد ترك التبديل، وفي الآية إشعار بأن المبدلين متبعون لأنفسهم يجرون وراء ذواتهم، يضعون النفس في مقابل الوحي، غير عابئين بيوم الحساب. متصورون أنّ القرآن يمكن أن يخترع.

سيد يشرح

يقول رحمه الله:

وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله، وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا يظنون أنهم سيلقون الله! لا يتوقعون لقاء الله. كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية، فما على محمد إلا أن يقبل التحدي ويؤلف قرآناً آخر أو يؤلف جزءاً مكان جزء..

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه وإن هو إلا مبلغ متبع للوحي الذي يأتيه وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب أليم[١].

(١) في ظلال القرآن، ١١/١٧٧١.

التبديل سمة مَنْ؟

في معرض حديث القرآن عن المبدلين نعتهم بالمخلفين من الأعراب، وبالظلم، فحرموا معية الرسول ﷺ، واستحقوا العذاب. قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ ٤٨/ ١٥.

هم إذاً مخلفون ـ تأخروا عن الركب لنقصان ـ أو قصور ـ شأن كل متخلف. . .

همهم تحصيل غنم ليس إلا.

لا يفقهون إلا قليلا. فالفقه عصمة وقد حرموه.

وقال الله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٢/ ٥٩.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ ٧/ ١٦٢.

وهاتان الآيتان في معرض الحديث عن اليهود؛ وما أحدثوه غير خاف علىٰ أحد؟

لا يظهر الود المستقيم من القلب السقيم

الدين الإسلامي ليس موكولاً لأحد من الناس.

إذ كل موكول إلىٰ الناس عرضة للضياع، ورهينة للفساد والتبديل، وقد أخبر ربنا أنّ الوحي مرتبط به، غير مرتبط بالأشخاص، وأن حظ الأشخاص منه علم وعمل واستقامة ولزوم وثبات وأن من لزمه وثبت عليه أكرمه الله تعالىٰ. وتكفل له بالهداية في الدنيا وسعادة الآخرة.

أما من تنكب وأعرض وزاغ وراغ، فقد أبعد نفسه عن الخير وأبعده الله. فقد كانوا يرون أنهم علىٰ الطريق ما داموا علىٰ الأثر.

فألزمه زاداً وصيانة عن الضلال.

قال القاضي شريح[1]: لن تضلوا ما أخذتم بالأثر.

وكانوا يتواصون بالسنن فإنها قوام الدين. والمخالف فيها علىٰ خطر عظيم. والوفاء لمثلنا يجب أن نتعلمه ونترجمه صوراً من الحفاظ علىٰ السنن والدين ونماذج من الاتباع والاقتداء والرد إلىٰ الحق

---

(١) شريح القاضي ـ الفقيه شريح بن الحارث بن قيس (ت ٧٨ هـ) ـ قال ميمون بن مهران لبث شريح في الفتنة ـ يعني فتنة ابن الزبير ـ تسع سنين لا يخبر فقيل له: قد سلمت قال كيف بالهوىٰ، وقال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات؛ أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذا رزقني الصبر عليها، وأحمد إذا وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني. له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٦/ ١٣١، طبقات الشيرازي/ ٨٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٦٠، سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٥٥، طبقات الحفاظ/ ٢٠، شذرات الذهب ١/ ٨٥.

والحمل علىٰ الصواب لا سيما عند تباعد الزمان وتشعب الناس وكثرة الاختلاف. عندها أمر النبيّ ﷺ بلزوم السنة. فقال: «عليكم بسنّتي».

فعالج قلبك، يظهر ودك. وجاهد نفسك بأسياف الرياضات، وألزمها الثبات علىٰ الأمر والعزيمة علىٰ الرشد، فما فيك يظهر علىٰ فيك.

واحملها علىٰ ترك آراء المبدلين فقد كانوا يرونها دغل القلوب[1].

ولا تقبل إلا علىٰ الشرط ـ شرط العرض علىٰ الكتاب والسنّة، فكل أمر لاح لك ضوءه بمنهاج الحق فاعرضه علىٰ الكتاب والسنة والآداب الصالحة[2].

وزن جميع الأقوال والأحوال والأفعال بميزانها. واتهم خواطرك تكن في عداد الرجال.

والأصل الأصيل في ذلك أن ندور مع القرآن والسنة حيثما دارا. لا مع المبدلين المغيرين، ولا مع المفتونين بآرائهم وأهوائهم. فإنّ صنيع السلف دوماً اتهام الرأي وهم أبرّ الأمّة قلوباً وأعمقها علماً ورحمة وأبعدها عن الهوىٰ والشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ ٢٢/ ٥٤.

فليس بين أصحاب هذه القلوب والحق إلاّ أن يعلموه فيحبوه ويؤثروه وينقادوا له ويقبلوه ـ وهو معنىٰ الإخبات في الآية ـ إذ هو

---

(١) أصله الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه، أو هو من قولهم: أدغلت في هذا الأمر إذا أدخلت فيه ما يخالفه ويفسده، النهاية ٢/ ١٢٣.

(٢) رسالة المسترشدين/ ٨٢.

قرين التواضع ومرادف له، قبول الحق ممن جاء به مع الرضا والتسليم.

والإخبات أول مقامات الطمأنينة كالسكينة واليقين والثقة بالله وهو ورد المأمن من الرجوع والتردد، والواردات وكل ما من شأنه أن يقطع الطريق علىٰ القلوب فتمنعها من مطالعة الحق وقصده، فمن تمكن منه الإخبات لم يطمع فيه عارض الفتنة. وقد قيل: من أخذ العلم من عين العلم ثبت ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبه ومالت به العبارات واختلفت عليه الأقوال[1]...

---

(1) مدارج السالكين ٢/٦.

جنايات؟؟

التأويل بالباطل يتضمن تعطيل ما جاء به القرآن والسنّة. والكذب على الله وعلى رسوله ﷺ، بتحميل الكلام ما لا يحتمله، وصرفه عن مراد الله ومراد رسوله ﷺ، وهو بداية الفتنة.

كما فيه إبطال للحق، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس والتقول بلا علم.

من هنا يختل تماماً الترابط العضوي والموضوعي، الفكري والسلوكي، بين ما هو ثابت في الشرع وبين التطبيق. ومن ثَمَّ يتكون لدينا كمٌّ هائل من النصوص المعطلة المهدرة البعيدة عن الاستعمال.

وعندما يصبح أمر النص هكذا تفقد الأمة أعز ما لديها.

هذا وقد أخذ التأويل صوراً، ودعت إليه أغراض، والتُمِست له تبريرات ومعاذير في بعضها سذاجة وقلة اكتراث وحمق وفيها ضرب من الكذب ـ إخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمداً أم لا ـ وفيها محاولة إلباس الباطل ثوب الحق، والكذب ثوب الصدق. وإيهام الناس أنّ في هذا الصنيع خدمة للدين ومساعدة لصاحب الشرع. حيث زعموا أنهم يكذبون له. لا عليه ـ وفي معرض رد العلماء على أصحاب هذا الزعم يقول ابن حجر: وما دروا أن تقويله ﷺ: ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى، لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية سواء كان في الإيجاب أو الندب. وكذا مقابلهما وهو الحرام والمكروه[1].

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٠٠.

ويترتب علىٰ هذا تعبيد الناس لربهم بغير ما أذن به، وأن يعملوا بما لم يشرعه لهم. أو يكون سبباً في ترك ما أذن به وشرع، وهذا مذموم باطل وتحريف للكلم عن موضعه وابتداع وتأويل بغير دليل يوجبه. ولا شك أنّ الإثم يلحق العالم العامد له، ويزداد الإثم كلما زادت المفسدة المترتبة عليه.

ولا شك أيضاً أنه كلما ازداد التأويل ضعف التمسك بالأصول ونقص الإيمان. وعوض البدلون أنفسهم بما أحدثوه من بدع فحلت محل السنن، فإذا عمل الناس علىٰ تغييرها قالوا غيرت السنن. والأمر عظيم.

فتأمل هذا التدرج وعمليات الإحلال. والانتقاص من جانب بالتأويل والتبديل وقيامهما مقام الأصل... وانظر معهما حجم المشكلة. وكيف أن الناس مع تقادم الأزمان علىٰ أمر يختلف عما كانوا عليه زمن النبي ﷺ حسبوه حقاً بل لا يرون الحق خلافه.

يصور لنا ذلك الحسن البصري[1] حين يقول: سأل رجل أبا الدرداء رضي الله عنه، فقال: رحمك الله. لو أنّ رسول الله ﷺ بين أظهرنا، هل كان ينكر شيئاً مما نحن عليه! فغضب واشتد غضبه وقال: وهل كان يعرف شيئاً مما أنتم عليه؟!.

---

(١) الحسن بن يسار، سيد أهل زمانه علماً وعملاً، أدرك جماعة من الصحابة (ت ١١٠ هـ) كان من رؤوس العلماء في الفتن والدماء، وكان يقول: ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمّة ثم لا ترىٰ لها عاشقاً. ويقول: يا ابن آدم ترك الخطيئة أهون عليك من معالجة التوبة، ما يؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة فأنت في غير معمل أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون إذا أهنتها. ضحك المؤمن غفلة من قلبه. طبقات ابن سعد ١٥٦/٧، طبقات الشيرازي ٨٧، وفيات الأعيان ٦٩/٢، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤، تذكرة الحفاظ ٦٦/١، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢، شذرات الذهب ١٣٦/١.

وقال المبارك بن فضالة[1]. صلّى الحسن الجمعة وجلس فبكىٰ فقيل له ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال تلومنني علىٰ البكاء، ولو أنّ رجلاً من المهاجرين اطلع من باب مسجدكم ما عرف شيئاً مما كان عليه علىٰ عهد رسول الله صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم. ما أنتم عليه اليوم إلاّ القبلة.

هذا من الحسن وهو في صدر القرن الثاني فماذا يمكن أن يكون رأيه علىٰ فرض وجوده الآن؟.

إنها الفتنة العظمىٰ التي قال فيها ابن مسعود رضي الله عنه: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري علىٰ الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل غيرت السنة. أو هذا منكر.

فانظر صعوبة العودة إلىٰ الأصل الذاهب بحكم النشأة علىٰ خلافه وطول أمد الناس علىٰ غيره وجريان البدع علىٰ الناس مجرىٰ السنن، وكيف عظم أمر العامة والجهال وكل من جعل نفسه قاضياً وحاكماً علىٰ السنن ومن شبه عليهم الأمر فظنوا البدع سنناً، إذا غيرت قالوا غيرت السنن. كما صور ذلك مرة عبد الله بن الحسن[2] وكان يكثر الجلوس إلىٰ ربيعة[3] وتذاكرا يوماً السنن. فقال رجل كان في

(١) المبارك بن فضالة بن أبي أمية البصري. جالس الحسن مدة (ت ١٦٦ هـ) تهذيب التهذيب ٢٨/١٠.

(٢) عبد الله بن الحسن بن علىٰ الهاشمي، رضي الله عنه، ثقة جليل القدر (ت ١٤٥ هـ) كان صاحب شرف وهيبة ولسان شديد، الجرح والتعديل ٣٣/٥، تهذيب التهذيب ١٨٦/٥، تقريب التهذيب ٤٠٩/١.

(٣) ربيعة بن أبي عبد الرحمن ـ فروخ ـ المعروف بربيعة الرأي. فقيه أهل المدينة (ت١٣٦ هـ) مما قال: العلم وسيلة إلىٰ كل فضيلة، وبكىٰ يوماً فقيل له ما يبكيك! قال: رياء حاضر وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كصبيان في حجور أمهاتهم، إن أمروهم ائتمروا وإن نهوهم انتهوا. له ترجمة في تاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠، وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٨، تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٧، سير أعلام النبلاء، ٨٩/٦، ميزان الاعتدال ٢/ ٤٤، ـ تهذيب التهذيب ٢/ ٢٥٨.

المجلس: ليس العمل على هذا. فقال عبد الله: أرأيت إن كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام. فهم الحجة على السنّة!

فقال ربيعة: أشهد أنّ هذا كلام أبناء الأنبياء[1].

فانظر كيفية الإقدام والجهل بمواقع السنة، مع أنّه لم يستشر أو يطلب رأيه. وقد قال العقلاء: إن رأي المستشار أنفع لأنه بريء من الهوى، بخلاف من لم يستشر فإنه غير بريء ولاسيما في الدخول فى المناصب العالية والرتب الشرعية كرتب العلم.

وإذا الأمر على ما وصف. فإننا ندرك أبعاداً منها:

حتمية وجود الأمر والإبقاء عليه دون تبديل أو تأويل والحفاظ عليه كما هو.

وإنها لحتمية ماضية إلى يوم القيامة، وآية الحق وجود الأمر كما هو، والحق الثابت قوام الوجود. وعلى الناس أن يخضعوا له كما جاء دون أن تلعب به الأهواء فلو لم يخضعوا له على تلك الكيفية وأخضعوه بكيفيات مختلفة وأهواء فاسدة، فسد نظام الكون واختلّ الوجود، قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ ٢٣/ ٧١. وقد حذر الله من مخالفة الأمر. فقال سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٤/ ٦٣.

والأمر في الآية أعم من الأقوال والأفعال، والمخالفة كذلك. وفي الحديث «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[2].

ولأهمية الأمر فقد أبى الله أن يجعله لأحد غيره.

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ٣/ ١٥٤ .﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) تقدم تخريجه/ ٧٠.

كُلُّهُۥ ﴾ ١١/ ٢٣ .﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ٧/ ٥٤ ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ ٣٠/ ٤. فجعله خاصاً به سبحانه دون خلقه.

ولما كان الأنبياء مظنة أن يجعل الناس لهم من الأمر نصيباً. قال الله لنبيه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ ٣/ ١٢٨.

ولهذا سلم الأنبياء جميعاً بالأمر ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ٣٧/ ١٠٢ فتمثل هذا، وليكن لك بهم إسوة، ولا تتخلف أو تتردد وبادر وانهج نهج نبي الله إسماعيل أو كن وريثه. فإنه لما قال له إبراهيم عليه السلام: إنّ الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك[1]!

كن وريثه ولا تنازع، ولو كان في الأمر ذبح.

بل بادر ولا تتردد أو تميل فتعاقب كما قال الله تعالىٰ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ٢٢/ ٦٧. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ٣٤/ ١٢ .﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ٦٥/ ٨ ـ ١٠.

ولخطورة الميل عن الأمر والتنازع فيه وجدنا من السلف من يتورع عن القول في الدين مع غلبة الظن بصدقه، شفقة منه علىٰ نفسه وعلىٰ غيره متىٰ جاءه من يستفتيه، مبالغة منه في حساسية النفس المؤمنة ـ وود أن غيره قد كفاه أمر القول، فإذا لم يكن بدّ وأرغم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٧٥.

جمع عقله وبذل جهده. كيف لا وهو موقع عن الله. داخل بين الله وبين خلقه فلينظر كيفية الدخول وليطلب لنفسه مخرجاً قبله. ومنهم من ندم على ما حدث به. ومنهم من كان عامة جوابه لا أدري.

وعدوا من الجنون من يفتي الناس في كل ما يستفتىٰ فيه.

ومنهم من يعمل جاهداً علىٰ التمييز بين قوله وأنه خاص به، وبين النص من الكتاب والسنة. ويقول: هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني واستغفر الله.. مع نعيهم علىٰ من يتعجل الفتوىٰ؛ أو يقدم عليها، أو يكثر منها ويسارع إليها. ومن ثَمَّ كانوا يتدافعونها ويود كل واحد منهم أن غيره قد كفاه أمرها، وقالوا ليس هذا الأمر لمن ودّ أن الناس قد احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه، والمفتي داخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل؟ وليطلب لنفسه مخرجاً قبله.

حدث الشعبي قال: إنَ أحدكم ليفتي في المسألة. ولو وردت علىٰ عمر لجمع لها أهل بدر، والمفتي موقع عن الله[(١)]. ومع شدة التصون والتحرز عن القول، كانوا يعملون علىٰ الحيلولة بين من يستفتيهم وبين المخالفة، محاولين منعه؛ إدراكاً منهم لخطورة التبديل في الأمر زيادة أو نقصاً. حكىٰ ابن عيينة[(٢)] قال: سمعت مالك بن

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٧٠ ـ الفتوىٰ في الإسلام/ جمال الدين القاسمي/ ٤٤.

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون ـ مولده بالكوفة (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ).
قال الشافعي: ما رأيت أحداً فيه آلة العلم مثل سفيان بن عيينة وما رأيت أحداً أكفّ عن الفتوىٰ منه، من أقواله: ـ العلم إذا لم ينفعك ضرك: ويقول: من رأىٰ أنه خير من غيره فقد استكبر. ثم ذكر إبليس. وحج سفيان ثمانين مرة وفي كل مرة يقول في الموقف: اللهمّ لا تجعله آخر العهد منك، حتىٰ كان العام الذي مات فيه لم يقل شيئاً وقال: استحييت من الله تعالىٰ طبقات ابن سعد ٥/٤٩٧، تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٦٢، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤، تهذيب التهذيب ٤/١١٧، شذرات الذهب ١/ ٣٥٤ ـ.

أنس وأتاه رجل فقال يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل، قال إني أريد أن أحرم من عند القبر، قال: لا تفعل فإني أخشىٰ الفتنة! قال: وأي فتنة في هذا إنما هي أميال أزيدها. قال وأي فتنة أعظم من أن ترىٰ أنك سبقت إلىٰ فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ. إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٤/٦٣.

فعد مخالفة أمر النبي ﷺ، في هذا فتنة.

وفي معناها أقوال:

الكفر.

العقوبة.

بلية يظهر فيها ما في قلوبهم من النفاق[(١)]..

ومن ذلك ما رواه سعيد بن جبير[(٢)] عن عبد الله بن مغفل[(٣)] وكان جالساً إلىٰ جنبه ابن أخ له فخذف[(٤)] فنهاه وقال له: «إنّ رسول الله ﷺ، نهىٰ عنها، وقال: إنها لا تصيد صيداً ولا تنكي عدواً وإنها تكسر السن وتفقأ العين. قال: فعاد ابن أخيه يخذف، فقال:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٢.

(٢) سعيد بن جبير بن هشام، الإمام الحافظ الشهيد أحد الأعلام (ت ٩٥ هـ).
سئل مرة عن علامة هلاك الناس. فقال إذا ذهب علماؤهم، وكان يقول: التوكل علىٰ الله جماع الإيمان، وكان يدعو: اللهمّ إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظنّ بك. له ترجمة في:
طبقات ابن سعد ٦/٢٥٦، طبقات الشيرازي/ ٨٢، وفيات الأعيان ٢/ ٣٧١ سير أعلام النبلاء ٤/٣٢١، تهذيب التهذيب ٤/١١، تذكرة الحفاظ ١/ ٧١، شذرات الذهب ١/١٠٨.

(٣) عبد الله بن مغفل ـ صحابي شهيد الحديبية ـ تجريد أسماء الصحابة ١/ ٣٣١.

(٤) الخذف: هو رميك حصاة أو نواة تأخذها بسبابيك وترمي بها ـ النهاية ٢/ ١٦.

أحدثك أن رسول الله ﷺ: نهىٰ عنها، ثم عدت تخذف، إذاً لا أكلمك أبداً»[1].

وهذه من عبد الله بن مغفل كتلك التي كانت من عبد الله ابن عمر[2] لما حدث عن رسول الله ﷺ. قال: «لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد، فقال ابن له إنا لنمنعهن، فقال: فغضب غضباً شديداً وقال: أحدث عن رسول الله ﷺ، وتقول: إنا لنمنعهن»[3].

كان هذا نهجاً عاماً ونظاماً سائداً. ألا يتركوا الأمر، ولا يقبلوا معه رأياً مهما كان قدر صاحبه. ولو كان من جاء به أباً أو ابناً فالحفاظ علىٰ سلامة الأمر أولىٰ. منادين في الجميع إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم..

ومن وجدوا فيه انحرافاً ولو يسيراً خاصموه وتواصوا بعدم الأخذ عنه.

ويشتد هذا عند الفتنة.

فعن ابن سيرين[4] قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٨.

(٢) ابن عمر عبد الله بن عمر بن الخطاب، الصحابي الجليل (ت ٧٤ هـ) قالت عنه عائشة: ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر. ولما احتضر قال: ما آسى علىٰ شيء من الدنيا إلا علىٰ ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وإني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا ـ يعني الحجاج ـ طبقات ابن سعد ٢/٣٧٣، ٤/١٨٨، تاريخ بغداد ١/٢٧١، وفيات الأعيان ٣/٢٨، سير أعلام النبلاء ٣/٢٠٣، تهذيب التهذيب ٥/٣٢٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٨.

(٤) الإمام الرباني محمد بن سيرين، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ـ (وتوفي سنة ١١٠ هـ). قال هشام الدستوائي: ترك محمد أربعين ألفا في شيء ما يرون به اليوم بأسا وعنه قال: قلت مرة لرجل يا مفلس فعوقبت، وبلغه هذا فقال: قلت ذنوب القوم فعرفوا من أين أتوا، وكثرت ذنوبنا فلم ندرِ من أين نؤتىٰ ـ ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/١٩٣، تاريخ بغداد ٥/٣٣١، طبقات الشيرازي/٨٨، وفيات الأعيان ٤/١٨١، سير أعلام النبلاء ٤/٦٠٦، تذكرة الحفاظ ١/٧٣، تهذيب التهذيب ٩/٢١٤، شذرات الذهب ١/١٣٨.

وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم فينظر إلىٰ أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلىٰ أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم...[1].

وكان مالك يقول: إنّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه. لقد أدركت في هذا المسجد سبعين ممن يقول: قال فلان، قال رسول الله ﷺ. وإن أحدهم لو أئتومن علىٰ بيت مال لكان به أميناً، فما أخذت منهم شيئاً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[2].

فأمر الدين من الأهمية بحيث لا يصلح كل أحد لأن يؤخذ عنه.

---

(١) صحيح مسلم ١/٧، الحلية ٢/٢٧٨، سير أعلام النبلاء ٤/٦١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٣٤٣.

الاعتصام بالميثاق

العودة إلىٰ الأمر الأول.

تقييد كل أمر بالكتاب والسنّة، إذ لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ. أو في إجماع العلماء علىٰ أمر فيهما. ومن ظنّ أنه يستغني عنهما أو لا يستغني عنهما ولا عن غيرهما. فيضم إليهما غيرهما، فلا التفات إليه ولا اقتداء به.

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

سنّ رسول الله ﷺ، وولاة الأمر من بعده سنناً. الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة علىٰ دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر مخالفها، من اهتدىٰ بها فهو المهتدي، ومن استنصر بها فهو المنصور، ومن ترك واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولىٰ وأصلاه جهنم وساءت مصيرا...

كان الإمام مالك يعجبه عزم عمر بهذا الكلام[1].

الأخذ بالسنن إذاً عصمة.

ولأمر ما وجدنا من أئمة السلف من يترجم بقوله: الاعتصام بالكتاب والسنة.

وهي ترجمة تغني عن كل تعليق.

---

(١) جامع العلوم والحكم/ ٢٥٠، وهو منسوب إلى الإمام مالك أيضاً. سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٨.

فمن اعتصم بهما فقد وقي الشرّ كله.

وكان من السلف من يقول: السنة كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

ومما قاله الزهري[1]: كان من مضىٰ من أسلافنا يقولون الاعتصام بالسنّة نجاة[2].

وقال عمر رضي الله عنه: أما بعد فاختار الله لرسوله ﷺ، الذي عنده علىٰ الذي عندكم. وهذا الكتاب الذي هدىٰ الله به رسولكم فخذوا به تهتدوا..

نجاة واعتصام في الفهم والتطبيق، وثبات وعزم. وعدم تبدل ورجرجة وتغير، نجاة واعتصام تجمع الأوائل والأواخر من حين بدأ نزول القرآن، وانتهاءً بمن آمن به ولم يشهد نزوله، وإن رآه المبدلون جموداً ووقوفاً.

إنه الاعتصام الذي لا يزيده طول التطبيق والاسترشاد والأخذ إلا ثباتاً واستقراراً ورسوخاً.

والانخلاع عن الاعتصام خروج عن الهداية والطاعة والنصرة والتأييد والسبق.

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب ـ الإمام العلم حافظ زمانه (٥٠ ـ ١٢٤هـ) كان يقول: لا تناظر بكتاب الله ولا بكلام رسول الله ـ ويقول: ثلاث إذا كنّ في القاضي فليس بقاض: إذا كره الملام وأحبّ المحامد، وكره العزل. طبقات الشيرازي/٦٣، وفيات الأعيان ٤/١٧٧، تذكرة الحفاظ ١/١٠٨، سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦، ميزان الاعتدال ٤/٤٠، تهذيب التهذيب ٩/٤٤٥، طبقات الحفاظ/٤٢، شذرات الذهب ١/١٦٢.

(٢) سنن الدارمي ١/٤٥، مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٦٢٣.

فمن اكتملت عصمته لم يخذله الله أبداً ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٣/١٠١. ومن اكتملت عصمته نصره الله علىٰ نفسه وشيطانه، فكمال النصرة عليهما بكمال الاعتصام. فاعرف قدره وعظم أمره واعرف حقيقة الانخلاع والتبديل وعظم خطرهما. واعلم أنّ في الاعتصام والثبات توفيقاً، كما في الانخلاع والتبديل خذلاناً. وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»[١].

فتأمل وهم كذلك؟

علىٰ ما كانوا عليه ـ علىٰ الأمر الأول إبقاءً علىٰ الأصل. فإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب والتردد بين الدعوات الحائرة، والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة، وما النصر إلا من عند الله[٢].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام ٩/ ١٢٥، بلفظ (لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) ـ ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان ١/ ١٣٧ بنحوه عند البخاري، وكتاب الإمارة ٣/ ١٥٢٣، وأبو داود في سننه، كتاب الفتن ٤/ ٩٧، والترمذي في سننه كتاب الفتن ٤/ ٤٧٥، وابن ماجه في سننه، مقدمة ١/ ٥، وكتاب الفتن ٢/ ١٣٠٤ من حديث طويل، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٤ ـ وفي بيان المراد بالطائفة قال البخاري: هم أهل العلم، ونقل عن ابن المديني أنهم أصحاب الحديث، قال الحاكم في معرفة علوم الحديث عن أحمد: إن لم يكونوا أهل الحديث، فمن هم!. وقال القاضي عياض: إنما أراد أهل السنّة والجماعة ومن يعتقد مذاهب أهل الحديث ـ قال النووي: ويجوز أن تكون الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ـ منهم شجعان ومقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرىٰ من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض.

صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٦٧. فتح الباري ١٣/ ٢٩٥.

(٢) رسالة إلىٰ الشباب للإمام البنا.

وهم كذلك. كما كان شأن السلف، الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض المعاني إلى الله.

كان هذا أمراً مجمعاً عليه ومحل اتفاق: والإجماع حجة قاطعة متبعة.

وقد درج أصحاب النبي ﷺ، على ترك التعرض للمعاني وهم صفوة الأمّة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الشريعة وتعليم الناس ما يحتاجونه منها، فلو كان التأويل حقاً لاهتموا به وعلموه الناس كما كانوا يعلمونهم فروع الشريعة.

ولأن التأويل ليس بواجب بالإجماع، ولأنه لو وجب لكان فيه تكلف ما لا يطاق، وإيجاب على العامة أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، أو لأنه مما لا يحتاج إلى معرفته لأنه لا ينبني عليه عمل ولا تدعو إليه حاجة.

فعليك أخي بلزوم السنة، فإن السنة إنما جعلت عصمة ليستن بها ويقتصر عليها، فقد سنها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ، فارض لنفسك ما رضيه لك صاحبها.

فيا معشر القراء خذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً[١].

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٧.

الفصل الثالث

تشعب الفتن

- فتن الشبهات.
- فتن الشهوات.
- بين الشهوات والفتن.
- ما يعين على الخلاص.
- المراتب العالية.
- التوالد المستمر.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب؛
باب شبهة أورثت شكا في دين الله.

وباب شهوة، أورثت تقديم الهوى على طاعة الله ومرضاته.

وباب غضب، أورث العبد العدوان على خلق الله.

تشعب الفتن

الفتن أنواع وضروب متعددة ومتنوعة.

منها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتعلق بالعبادة والسلوك.

منها ما يتعلق بالطاعة، ومنها ما يتعلق بالمعصية.

منها ما يتعلق بالإيمان، ومنها ما يتعلق بالكفر.

منها ما يتعلق بالعلم، ومنها ما يتعلق بالجهل.

منها ما يتعلق بالغنى، ومنها ما يتعلق بالفقر، والصحة والمرض، والزمان والمكان، بالفرد والجماعة.

منها ما يتعلق بالحاضر، ومنها ما يتعلق بالمستقبل. والإنسان، والحيوان، والنبات، والجن، والملائكة.

منها ما يتعلق بالمشاهد، ومنها ما يتعلق بالغائب، وما يرى بالبصر، ويدرك بالبصيرة، والظاهر والباطن، منها الخفيف، ومنها الثقيل.

منها ما يتعلق بالمال، والولد، والمرأة، والصديق، والقريب، والبعيد.

منها هذا... ومنها هذا.

ورغم هذا الانشعاب والتعدد إلا أنه يمكن إدراجها جميعاً في نوعين كبيرين: الشهوات، والشبهات. وهما معاً أساس كل فساد وشر، وأصل كل فتنة، ومدخل من مداخل الشيطان إلى النفس وسبب أمراض القلوب وعللها. بل ما في الأرض بلاء إلا بسببهما أو بسبب أحدهما. وهما معاً من أكبر ما يدخل الناس النار.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب.

باب شبهة، أورثت شكاً في دين الله.

باب شهوة، أورثت تقديم الهوى على طاعة الله ومرضاته.

باب غضب، أورث العبد العدوان على خلق الله[1].

وما الغضب في حقيقة الأمر إلا جماع كل شر، ومبعثه إما شبهة أو شهوة، وكل من الغضب والشهوة يوجب حرارة في القلب.

والغضب سكر، بل هو أشد من غيره.

قال الحسن: أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان وحرمه الله على النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب[2]. وهذه الأربع هي مبدأ كل شر إذا لم تملك.

وقد جمع الله بين النوعين في قوله سبحانه: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ ﴾ ٩/ ٦٩.

في الآية بيان لفتنة القوة العارضة من مال وولد وبطر وفجر، والاستمتاع بالخلاق، وكل ما اكتسبوه من متع وردت في الآية، وهي فتن الشهوات، ثم والخوض مع الخائضين بالباطل ـ فتنة الشبهات.

قال الشيخ ابن القيم: فأشار في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به. أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول هو البدع وما والاها.

---

(١) الفوائد/٥٨.

(٢) جامع العلوم والحكم/١٣٧.

والثاني فسق الأعمال.

الأول فساد من جهة الشبهات.

الثاني فساد من جهة الشهوات[1].

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/١٦٦.

فتن الشبهات

أعظم النوعين:

لما فيها من تعمد المخالفة لدلالات القرآن والسنة، وما تحدثه في القلب من قلق واضطراب يوجب شكاً وحيرة يحدثان وقوعاً يكب المرء على وجهه، لا يعرف معه اتزاناً ولا صعوداً.

والشبهات: كل أمر التبس بغيره لدخوله فيه واشتباهه به ومماثلته له وصعوبة الفصل بينهما.

إذ الأصل ألا يميز أحد الشيئين عن الآخر، فبينهما على هذا تقارب أشكل المعنى ولم يظهر بسببه المغزى:

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابه فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر[1]

---

(١) البيتان للصاحب ابن عباد: إسماعيل بن عباد العباسي (٣٢٦ ـ ٣٨٥هـ) كان وزيراً وكاتباً وعالماً. والبيتان في أكثر مصادر ترجمته. انظر وفيات الأعيان: ١/٢٢٨، سير أعلام النبلاء ١٦/٥١١، لسان الميزان ١/ ٤١٣، شذرات الذهب: ٣/ ١١٤.

بداية مغرية ونهاية مخزية

فتنة تحركها الرغبة ويدعو إليها الجهل، وتبعث عليها الأهواء ومحاولة وضع الذات في كفة والحق في كفة، والابتداع والتعصب والتقول على الله ورسوله بدون علم، والعناد للشرع ومضاهاة الشارع، والمماراة والجدال ولفت الأنظار والتشبه بأهل الاجتهاد.

كما تنشأ هذه الفتنة من فهم فاسد، ونقل كاذب، وجهل بمقاصد الشرع، وأحياناً من خفاء الحق وعدم الاهتداء إليه ولو لم يكن كذلك في الواقع ونفس الأمر، إلا أنه خفى على رجل بذاته فكان ما مكان.

ومرد هذا كله إلى الران الذي يعلو القلب فيضعف بصيرته، أو إلى ضعف رؤية العين بسبب ضيقها، أو الطمع والحسد والمرض وكل ما من شأنه أن يحجب رؤية أو يحول بين القلب وسلامة البصيرة، فتضعف ويقل العلم، لا سيما مع فساد القصد وسيطرة الهوى، والعجز عن اكتساب آلة الاجتهاد والتحصيل، وحب الجدل والتطلع إلى منصب الإمامة.

ولو لم يكن إلا سيطرة الأهواء المتبعة لكفى.

فالهوى يصد عن الحق، ويقود إلى البطالة، ويغري بالخلاف وحب الانتصار، ويوسع دائرة التنازع. ويفسد العقل ويشغله بالمراء.

ويحمل على ترك الجماعة والقعود عن العمل، والفتور، والعجز، والتكاسل عن أداء الواجب، وفعل الخير، وعدم مشاركة أصحابه.

هذا كله مع التشويش المصاحب للأقوال والأفعال، وكدر العبادة وعدم صفائها، وقل ما شئت من ضلال كل من ساء قصده، وفسدت طويته، وزاغ بصره وقلبه، وحكم رأيه واتبع هواه.

ويجمع كل هذا أمران:

عمى البصيرة، وفساد الإرادة.

فالنور في القلب، وكمال حياة الإنسان وقوة إرادته، أساس كل خير وصلاح وفلاح للإنسان في دنياه، وفي أخراه، وبهما معاً تكتمل حياة المرء وتتم سعادته.

فإذا قويت بصيرة المرء ظهرت له صور الأشياء على حقائقها فعلم حسن الحسن وقبح القبيح، ومن ثَمَّ يؤثر بقوته وإرادته الحسن على القبيح ويقدمه عليه.

ولأهمية النور وقوة الإرادة فقد جمع الله بينهما كما ضرب بهما المثل لوحيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ ٤٢/٥٢.

فجمع بين الروح أصل الحياة وأساس القوة - والنور الذي يحصل به الإشراق، وأخبر أن القرآن متضمن لهما معاً.

كما امتن الله على أنبيائه بالقوة والبصائر، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ ٣٨/٤٥.

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله.

والأبصار: البصائر في أمر الله.

قال ابن القيم: وعبارات السلف تدور على ذلك.

قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والمعرفة بالله.

وقال مجاهد[1] الأيدي القوة في طاعة الله، والأبصار البصر في الحق

وقال سعيد بن جبير الأيدي القوة في العمل والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم[2]

(١) مجاهد بن جبر، الإمام شيخ المفسرين والقراء (ت١٠٢ هـ) كان يقول: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه نية، ثم رزق الله النية بعد. ويقول: ما أدري أي النعمتين أعظم أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء. له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٥/٤٦٦. طبقات الشيرازي/ ٦٩، تذكرة الحفاظ ١/٨٦، سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩، تهذيب التهذيب ١٠/٤٢، طبقات الحفاظ/٣٥.

(٢) إغاثة اللفهان: ٢/١٦٧.

فتنة وحذر

ورد تفسير الفتنة في الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ٣/٧؛ بالمشتبهات والمعنى أن كل من اتبع المتشابه فهو من الذين في قلوبهم زيغ. والعلاقة بينهما على هذا واضحة فأهل الزيغ والضلال يطلبون الشبهات لرد المؤمنين إلى ما هم عليه من زيغ وكفر وهو الأمر الذي صاروا إليه، فوجب أن نحذر.

قال مجاهد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ شك.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ الشبهات، الباب الذي ضلوا منه وبه هلكوا.

وقال ابن حجر: دلت الآية على ذم المتشابه لوصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة[١].

كما دلت على أن الناس قسمان؛ زائغون متبعون المتشابه، وراسخون في العلم، وكل من القسمين مخالف للآخر فيما وصف به.

وقد ثبت تحذير النبي ﷺ، من هذا الصنف وإن كان في التحذير نوع إبهام. فعن أم المؤمنين عائشة[٢] رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ، هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ . . إلى

---

(١) فتح الباري: ٨/٢٠٩، ٢١٠.

(٢) أم المؤمنين السيدة عائشة، أفقه نساء الأمة (ت ٥٨ هـ) كانت تتمثل بقول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وتقول: رحم الله لبيداً، فكيف لو رأى زماننا هذا؟ قال عروة رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو رأت زماننا هذا؟ قال هشام: رحم الله أبي فكيف لو رأى زماننا هذا؟ قال الذهبي: سمعناه مسلسلاً بهذا القول بإسناد مقارب ـ طبقات ابن سعد ٨/٥٨ سير أعلام النبلاء ٢/١٣٥، تهذيب التهذيب ١٢/٤٣٣، شذرات الذهب ١/٩، ٦١ ـ.

قوله ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٣/٧ ـ قالت: قال رسول الله ﷺ، فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فأحذروهم»[١].

وقد ورد عنها ما يزيل الإبهام ويوضحه ـ ذلك أنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ـ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٣/٧ ـ فقال النبي ﷺ يا عائشة: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم»[٢] وفيه بيان لهم لأنه جعل علامة الزيغ الجدال في القرآن.

وأمر بدايته زيغ القلب، ينتهي بالجدال في القرآن.

إذاً كل من في قلبه زيغ ـ ميل عن الحق ـ فهو داخل فيه دخولاً أولياً كذا أهل البدع والأهواء وأصحاب الشذوذ الفكري، والشطط والتنطع في الخلاف القائم على التعصب، والجهل بمقاصد الشرع ـ فالابتداع إنما يقع ممن لا يتمكن من العلم الذي ابتدع فيه. أهل الزلل ـ وكل من كان عرضة للسقوط. أصحاب الفرق المختلفة الباطلة.

المجادلون ـ الخائضون في آيات الله بغير سلطان أتاهم.

كل هؤلاء يجمعهم وصف واحد، هو الإعراض عن الحق. ويشملهم جميعاً الوصف بالزيغ.

ويلتحق بهم من كان على شاكلتهم. ألا ترى أن سورة آل عمران معركة جدلية في نصفها الأول بين النصارى ومناظرتهم لرسول الله ﷺ، في شأن المسيح عليه السلام وعقيدتهم فيه، وتركهم الواضح البين.

وحربية في نصفها الثاني بين أهل الإيمان والكفار.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ٦/٤٢، وأبو داود في سننه، كتاب السنة ٤/١٩٨، والدارمي في سننه ـ مقدمة ١/٥٤. وأحمد في مسنده ٦/٤٨.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه مقدمة ١/١٨، وأحمد في مسنده ٦/٤٨.

قال ابن القيم: وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتن الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال[1].

فتأمل حقيقة الأمر وما تولد عنه وجر إليه من كفر وضلال ونفاق، حبائل شيطانية، عقبات، مصائد، عوائق. نسأل الله السلامة.

وخذ بمبدأ الحزم والعزم، واسلك سبيل الحق ولا تستوحش من قلة السالكين، واحذر طريق البدع ولا تغتر بكثرة الهالكين، فليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا؟

وحقق مجافاة لأهل البدع والزيغ بإهانتهم وإسقاطهم وعدم مجالستهم، أو رد السلام عليهم، وقف عند كل شبهة، ورد الأمر إلى أهله، فكل علم يسأل عنه أهله. وابتعد عن الشبهات.

ففي الواضح البين ما يغني.

قال عبد الله بن مسعود: ما تريد إلى ما يريبك وحولك أربعة آلاف لا تريبك[2]. فتوقف وتثبت وابتعد، فما شيء أهون من الورع فمتى رابك شيء فدعه.

وتمثل سيرة سلفية أولية، فقد تركوا الكثير مما لا نرى به بأساً اليوم.

ومنهم ابن سيرين قد ترك أربعين ألفاً فيما لا نرى به اليوم بأساً. وقصة ذلك أنه اشترى زيتاً بأربعين ألف درهم فوجد في زق منه فأرة فظن أنها وقعت في المعصرة، فصب الزيت كله، وكان يقول: إني

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦٥.

(٢) جامع العلوم والحكم/ ١٠٢.

ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة، فكانوا يظنون أنه عير رجلاً بفقر، أو أنه اشترى بيعاً فأشرف على ربح ثمانين ألفاً، فعرض في قلبه شيء فتركه أو كرهه، أو تصدق به فحبس على المال[1].

فتمثل سيرة هؤلاء وهم كثير، وجددها واعمل على إحيائها، وقف عند كل شبهة، فما كان حلالاً، لم يحصل لك فيه قلق أو اضطراب، بل تسكن النفس ويطمئن القلب.

وجرد القصد وأحسن التبعية للرسول الكريم، وأفرده في التلقي، والأخذ عنه والاتباع له، واترك ما سواه، ولا تقبل من غيره إلا على شرط العرض على سنته والموافقة لما جاءنا عنه.

واستعمل اليقين جهدك عند ورود الشبهات، واستجلب أنوار القلب بدوام الجد، واقهر هواك، ففي قوة قهر الهوى لذة لا تدانيها لذة، وهذا كله إنما يحصل لكل من استقامت أحواله وصفت أعماله، وامتلأت خوفاً وورعاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦١٦/٤، جامع العلوم والحكم/ ١٠٢ - ١٠٣.

التلوّن

كان السلف يكرهون التلون في الدين والخصومات والجدال.

فعن عمر رضي الله عنه، قال: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل[1]. ووقفوا من كل من لم يؤمر السنة على نفسه موقف المجافاة والعداء. وحذروا من مجرد الاستماع لهم أو الرواية عنهم، وهذا ثابت عن جميعهم.

فعن الحسن: لا تسمعوا من أهل الأهواء[2] وقال غيره: وما ينقم على أهل البدع إلا إنهم اتخذوا الدين رأياً، وليس الرأي ثقة ولا حتماً[3].

ولأنهم كما قال عمر رضي الله عنه: أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم[4].

وهم إنما عادوا السنن بزعمهم أن عقولهم يمكن أن تستقل بإدراك مصالحها دونها فابتدعوا مضاهين ببدعتهم الشرع. متصورين أن الشرع يحتمل الزيادة أو النقصان فهو في نظرهم لم يتم بعد، وقد استدركوا عليه.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٣، تأويل مختلف الحديث/ ٦٣.
(٢) الجرح والتعديل ٢/ ٣٣.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٣٣.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٥.

قال مالك: من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ، خان الرسالة، لأن الله يقول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ـ ٥/٣ ـ[1].

ولأنهم بما أحدثوه واخترعوه أحبوا من الناس أن يسلكوا طريقتهم، فمنشأ بدعتهم مصالح الناس.

لهذا لم يستمعوا لهم أو يرووا عنهم، عقوبة لهم.

فمن عقوبة الفاسق ألا تذكر محاسنه، ولذا فقد رد العلماء روايته مطلقاً دون قيد.

وهؤلاء المانعون من الرواية عن المبتدع، لهم مأخذان: تكفير أهل الأهواء، أو تفسيقهم، وفيه خلاف مشهور.

الإهانة لهم والهجران والعقوبة بترك الرواية عنهم إن لم نحكم بكفرهم أو فسقهم، إخماداً لبدعهم وإطفاء لنارها.

ولهم مأخذ ثالث هو: أن الهوى والبدعة لا يؤمن معه الكذب ولا سيما إذا كانت مما تعضد هوى الراوي[2].

ومن العلماء من يرى زيادة على ما تقدم.

القيام عليهم بالتثريب أو التنكيل، أو الطرد، أو الإبعاد، أو الإنكار بحسب حال البدعة في نفسها من كونها عظيمة المفسدة في الدين أم لا؟ وكون صاحبها مشتهراً بها أم لا؟ داعياً إليها أم لا؟ مستظهراً بالاتباع وخارجاً عن الناس أم لا؟ وكونه عاملاً بها على جهة الجهل أم لا! وكل هذه الأقسام له حكم اجتهادي يخصه إذ لم يأت في الشرع أن للبدعة حداً معيناً لا يزاد عليه ولا ينقص منه. وإنما نظر الأئمة في البدع بحسب

---

(١) الاعتصام: ٤٩/١.

(٢) شرح علل الترمذي: ٥٤/١.

النوازل وحكموا باجتهادهم ومن مجموع ما تكلموا فيه: الإرشاد والتعليم وإقامة الحجة. الهجران وترك الكلام معهم. التغريب. ويجري مجراه السجن. ذكرهم بما هم عليه، وإشاعة بدعتهم كي يحذرهم الناس ولئلا يغتروا بكلامهم. القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم. القتل إن لم يرجعوا مع الاستتابة، إن كانوا قد أظهروا بدعتهم فإن أسروها وكانت كفراً فالقتل بلا استتابة. تكفير من دل الدليل على كفره.

عدم توريثهم أو الإرث منهم، وعدم مناكحتهم. تجريحهم على الجملة فلا تقبل شهادتهم ولا الرواية عنهم، ولا يكونون ولاة ولا قضاة. ترك عيادة مرضاهم. ترك شهود جنائزهم...[1].

ولا غرابة فهذا كله بسبب جناياتهم على الدين، وفسادهم في الأرض، وخروجهم عن جادة الإسلام وما صرح به من تاب منهم وكشف عما كانوا يفعلونه من كذب ورواية باطل.

وفضلاً عن هذا وأنهم متى اشتهوا شيئاً صيروه حديثاً، فإن من العلماء من أنزلهم منزلة أهل الكتاب، ومنهم من جعل الكافر المعاند والفاسق العامد، في عدم قبول خبرهما سواء. وقد أطلق هذا القول غير واحد من السلف، وادعى البعض فيه إجماعاً. والمعتمد التفريق بين البدع وحال أصحابها، وأن الذي ترد بدعته روايته من أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة متواتراً من الشرع، وكذا من اعتقد عكسه.

قال الحافظ: والذي يظهر أن الذي يحكم عليه بالكفر من كان الكفر صريح قوله، وكذا من كان لازم قوله، وعرض عليه فالتزمه[2]. وسبق إلى تقريره غير واحد من الأئمة. فإن لم يكن الكفر ظاهراً صريحاً بل كان مما يحتمل بالتأويل كالقول بنفي رؤية الله بالأبصار في

---

(١) الاعتصام: ١/ ١٧٥ ـ ١٧٧ بتصرف.

(٢) نزهة النظر/ ٥٠.

الآخرة، فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى قبول الرواية والأخبار.

ويرى هؤلاء أن أخبار أهل الأهواء مقبولة وإن كانوا كفاراً أو فساقاً بالتأويل، واحتجوا بأن متعمد الفسق والكافر الأصلي معاندان، وبأن أهل الأهواء متأولون غير معاندين.

كما أن أهل الأهواء اعتقدوا ما اعتقدوا ديانة، وبأن الفاسق المتعمد أوقع الفسق مجانة. ولم يسلم هذا لهم وإلّا لزم قبول خبر الكافر الأصلي لأنه اعتقد الكفر ديانة؟

فتن الشهوات

خروج الأعمال عن حد الاعتدال والاستقامة، والإخلاص والإيمان والصواب.

وتقديم الهوى على الشرع بإيثاره وتحكيمه.

وسببه فساد الإرادة والعمل بخلاف العلم الصحيح.

ويترتب عليه فساد القلب ومرضه وخروجه عن حد الصحة والسلامة، إذ لا يوصف القلب بالسلامة إلا إذا سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من الغي، والضلال، والبدع، والمعاصي، والظلم، والجهل.

ومن الثابت أن خطر الشهوات على القلوب أشد من خطر السموم على الأبدان.

وما في الدنيا شر إلا وسببه الذنب والمعصية، وهي بريد الكفر وسبب هوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ ٢٢/١٨ ولها من الأثار القبيحة المذمومة ما لا يعلمه إلا الله. أوحى الله إلى داود، يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة..

معنى الشهوة. ومنهج القرآن في تناولها

الشهوة: نزوع النفس لما تريد، أو هي ميل النفس إلى ما يلائمها وتلتذ به.

أو هي كل شيء من المعاصي كبيرة أو صغيرة، ويترتب عليها مخالفة لأمر الله أو أمر نبيه ﷺ ويستوى في ذلك أن تكون المخالفة بترك الأمر أو اقتحام النهي.

- والقرآن الكريم يتناول الشهوات في معرض المعاندة والمخالفة لمنهج الله، والميل عن الحق.

* من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾﴾ ٤/ ٢٧.

فتأمل حقيقة ما يريده الله للناس، وما يريده الذين يتبعون الشهوات لأنفسهم ولغيرهم من ميل عن الحق. وحيدة عن المنهج. هذه الحيدة هي رأس كل شهوة إذ الميل - العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين، ويستعمل في الجور.

* ويعرض القرآن الشهوات في صورة انحراف الفطرة وشذوذها ونشاذها. هذا الانحراف ارتكاس في طين الرذيلة ووحل الفجور.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٧/ ٨١.

وهذا النمط وثيق الصلة بالانحراف عن منهج الله تعالى، فالمنهج

يقود الإنسان إلى أمر الله وشرعه مطلقاً. وفي البعد عنه انحراف كلي أو جزئي

وفي الآية تصوير للون من ألوان الانحراف النفسي والخلقي عما خلقه الله في الجنسين من أسباب التلاقي وحكمته ولطفه وتقديره.

* وأحياناً يتحدث القرآن عن الشهوات على أنها لون من ألوان الهدم، هدم عرا الإسلام قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ ١٩/٥٩. وإضاعة الصلاة سبقتها إضاعات، فهي آخر ما تمكنوا من إضاعته من عبادات ومعاملات، ونظام حكم.. وفي الحديث «لينقضن عرا الإسلام عروة عروة كما ينقض الحبل قوة قوة»[(١)]

«لينقضن عرا الإسلام عروة عروة، فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة»[(٢)].

* ومرة يعرضها في صورة منفرة تدعو إلى الزهادة فيها رغم ما يبدو من جمالها فهي من متع الحياة الدنيا الذاهبة الفانية.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ ٣/ ١٤.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣٢ من حديث فيروز الديلمي عن أبيه

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٢٥١ من حديث أبي أمامة الباهلي.

بين الشهوات والفتن

ورد في السنة «إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»..[1].

فالتخوف من شهوات الغي في البطون والفروج ومن مضلات الهوى.

والغي: جهل من اعتقاد فاسد. وهو كما يكون من عدم الاعتقاد يكون من الاعتقاد الفاسد.

قال الله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ ٥٣/٢.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ ٧/٢٠٢.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ١٩/٥٩. عذاباً باعتبار أن الغي سبب فيه. ومن معاني الغي: الجهل والخيبة، وفساد العيش، والانهماك في الشر[2] وقد يفسر بالاستكبار عن الحق، وهو أصل الكفر وصاحبه ملعون. قال ابن عيينة: من كانت معصيته في الشهوة فارج له، ومن كانت معصيته في الكبر فاخش عليه، فإن آدم عصى مشتهياً فغفر له، وإبليس عصى متكبراً فلعن[3].

وسواء كان الاعتقاد فاسداً، أو لم يكن ثَمَّ اعتقاد فهو جهل وظلم. وبهما ـ الجهل والظلم ـ يتولد الإغواء والضلال وقد جمع الله بينهما فقال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ٣٣/٧٢.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٤٢٠ ـ ٤٢٣.

(٢) المفردات/ ٣٦٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٦١.

وكأن أحدهما يلد صاحبه، وينشأ عنه، وبالتالي يعاقب الإنسان على كل منهما.

وعلاقة هذين الأمرين بمضلات الفتن ظاهرة. لاسيما إذا كان الجهل من النوع المركب الذي لا يدري معه صاحبه أنه قد جهل: فعنده يفتن المرء فيضل ولا يشعر، أو من حيث يظن أنه مهتد وهو ضال. فإن هذا ناتج ولا شك من البعد عن المنهج. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ٤٣/ ٣٦ - ٣٧.

ومن كان هذا حاله - لم يعتقد أنه متبع لهواه. ضال. جاهل. ظالم - بل يحسب أنه مهتد، وممن يحسن صنعاً.

وهؤلاء في زماننا كثير؟

هذا. ومن العلماء من يرى أن شهوات الغي غير مختصة بالبطون والفروج. بل يدخل معها شهوات الرياسة. ذلك أن حب الرياسة: شهوة خفية كما قال شداد بن أوس[1] رضي الله عنه: يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قيل لأبي داود

---

(١) شداد بن أوس بن ثابت، نجاري خزرجي من فضلاء الصحابة وعلمائهم. نزل بيت المقدس: وتولى إمارة حمص (ت ٥٨ هـ) كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول: اللهم إن النار أذهبت مني النوم. فيقوم يصلي حتى يصبح: وخطب يوماً فقال: إن الدنيا أجل حاضر يأكل منه البر والفاجر: وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر، ألا إن الخير كله بحذافيره في الجنة، وإن الشر كله بحذافيره في النار. ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/ ٤١١، الجرح والتعديل ٤/ ٣٢٨، الحلية ١/ ٢٦٤، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٠، تهذيب التهذيب ٤/ ٣١٥، شذرات الذهب ١/ ٩٤.

السجستاني[1] ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرياسة[2].

ولهذا عدوا الزهد في المنصب أهم من الزهد في المال. خلاصاً من الفتنة، وهو كلام قد يستغربه أو يستبعده من لم يطلع على تاريخ الماضين، ولكن الممارس لذلك يحفظ ما يصدقه.

ويقوى البلاء ويشتد إذا اجتمعت شهوات الغي ومضلات الفتن، وصار المبتلى بذلك مغضوباً عليه ضالاً.

هذا فهم أبي داود لمعنى الشهوة الخفية، وفي مسند أحمد من حديث شداد أنه بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية». قال: قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟.

قال: «نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً. ولكن يراؤن بأعمالهم، والشهوة الخفية: أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه»[3]. وعند أحمد أيضاً «أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها»[4] والأول من الحديثين أخص والثاني أعم.

---

(١) سليمان بن الأشعث السجستاني: صاحب السنن: (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) من أقواله: خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن ـ ترجمته في: تاريخ بغداد ٩/ ٥٥، طبقات الحنابلة ١/ ١٥٩، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٩١، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٠٣.

(٢) جواب أبي داود في كتاب التوبة لابن تيمية/ ٥٢ ـ وكلام شداد أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٤، وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦١، ٤٦٢ ـ بإسناد يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ١٢٤ من حديث شداد بن أوس.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ١٢٦ من حديث شداد بن أوس.

ما يعين على الخلاص

لا بد مع هذا من مضاعفة التحذير من الفتن، وحمل القلب على استقباحها ورفضها وإنكارها. والتواصي بالحق والصبر. وكمال العقل. والله سبحانه يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[1].

وكمال العقل قوته، فإن ضعف صرعته الشهوة.

احذروا مصارع العقول عند التهاب الشهوات[2].

والعقل الكامل الذي بلغ صاحبه درجة الكمال فحبس نفسه عن ذميم القول والفعل. أو هو الذي عرف صاحبه ما كان يجهل من قبل أو انزجر عما كان يفعل.

والعقل يطلق على تلك القوة المتهيئة لقبول العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة[3].

وقد غالى الإسلام وأعلى من قيمته وهو ما أكدته نصوص القرآن الكريم.

ولكي تتضح الصورة ـ صورة الخلاص من فتن الشهوات نقول: مقابل غي ـ رشد ويستعمل الرشد استعمال الهداية. قال الله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ ٢/ ٢٥٦.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦٧.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ١/ ٢٧٥.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٦٩، المفردات/ ٣٤١.

ومقابل الهداية ـ الضلال. قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ٢/٢٦.

والرشد المستعمل استعمال الهداية هو العلم بما ينفع والعمل به. وهو قرين الهداية إذاً، وإذا أفرد كل من الرشد والهداية فقد تضمن أحدهما الآخر، وإذا قرنا، فالهداية علم بالحق والرشد العمل بموجبه.

ومقابلهما الغي واتباع الهوى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ٧/١٤٦.

فقابل الرشد بالغي. وقابل الهدى بالضلال. قال الله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ ١٦/٣٧.

وفي الحديث «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى»[1].

ولا بد مع هذا كله من تصور الأضرار والأخطار المترتبة على اقتحام الشهوات، وإن الله إذا خلى بين العبد وبين الوقوع فيها فلإقامة الحجة ـ حجة العدل والعقوبة على الذنب، وإحقاق كلمة العذاب والضلال عليه ـ كما أخبر ربنا سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٠/ ٣٣.

كما أن الوقوع فيها سبب هوان العبد على الله سبحانه والأمر كما قال الحسن: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم.

وإذا هان العبد على الله وسقط من عينه فمن ذا الذي يكرمه؟. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ ٢٢/١٨.

ثم إنها تورث المرء ذلاً، ذلك أن العز كل العز في طاعة الله تعالى، وكان من دعاء السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجمعة: ٢/ ٥٩٤.

وقال الحسن: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه[1].

ثم ولا بد من الصبر عن المعاصي حتى تجتنب حذراً من العقاب المترتب عليها، أو حياء من الله أن يستعان على معاصيه بنعمه وأن يبادر بالعظائم ويبعث على الخوف من العقاب قوة الإيمان بالخير والتصديق بمضمونه.

وأما الحياء فيبعث عليه قوة المعرفة ومشاهدة معاني الأسماء والصفات. قال ابن القيم: وأحسن من هذا أن يكون الباعث عليه وازع الحب، فيترك معصيته محبة له.

ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم والنفوس الزكية كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف، ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن في تعظيمه وإجلاله ما ليس في وزاع الخوف فمن وازعه الخوف فقلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء فقلبه حاضر مع الله، والخائف مراع لجانب نفسه وحمايتها، والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان. غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به إذا أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله. فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها»[2].

---

(١) الداء والدواء/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ١٧٢.

المراتب العالية

١ - في ترك المباح ولو لم يكن شرطاً في النجاة. حذراً من أن يقودنا التوسع في المباح إلى شيء من الحرام. لا سيما إذا كان المباح وسطا بين الحلال والحرام.

فتركه صيانة وخوفاً من تكدر الصفو. وطلبا لبراءة الدين والعرض. وكل ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة منه على نفسه. ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء الظن به.

قال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقي العبد ربه، حتى يتقيه من مثقال الذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً. حجاباً بينه وبين الحرام. وقال سفيان: إنما سموا المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

وقال الحسن: مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

٢ - وفي الورع، وقد جمع النبي ﷺ، الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١].

ومعنى يعنيه: تتعلق عنايته به. ويكون من مقصوده ومطلوبه. والعناية شدة الاهتمام بالشيء. يقال: عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه. والحديث يعم ترك كل ما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد ٥٥٨/٤، وابن ماجه في سننه كتاب الفتن ٢/ ١٣١٥، ومالك في الموطأ/ ٦٥٠، وأحمد في مسنده ٢٠١/١.

والبطش، والمشي والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة شافية في الورع.

تعريف الورع:

عرفه ابن أدهم[1] بقوله: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات.

وفي الحديث: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»[2].

وعند سهل[3]: الحلال هو الذي لا يعصى الله فيه، والصافي منه الذي لا ينسى الله فيه. وسأل الحسن غلاماً فقال له: ما ملاك الدين؟ قال الورع. قال: فما آفته؟ قال الطمع. وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة، وعن بعض السلف:

---

(١) إبراهيم بن أدهم، إبراهيم بن منصور بن يزيد بن جابر، القدوة الإمام العارف سيد الزهاد، مولده في حدود المئة، (وتوفي سنة ١٦٢ هـ)، كان من أولاد الملوك، كان يقول: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس وإلا لم ينل ما يريد. وقال: الزهد فرض وهو الزهد في الحرام، وزهد سلامة وهو الزهد في الشبهات، وزهد فضل وهو الزهد في الحلال. وقال: ما صدق الله عبد أحب الشهرة. له ترجمة في: الجرح والتعديل ٢/ ٨٧، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، وفيات الأعيان ١/ ٣١، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، تهذيب التهذيب ١/ ١٠٢، شذرات الذهب ١/ ٢٥٥.

(٢) جزء حديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد ٢/ ١٤١٠ ـ قال البوصيري: هذا إسناد حسن. مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤١.

(٣) سهل بن عبد الله التستري، الزاهد (ت٢٨٣هـ) من أقواله: من أراد الدنيا والآخرة فليكتب الحديث فإن فيه منفعة الدنيا والآخرة، وعنه قال: الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصر هالك. وقال: أصولنا ستة: التمسك بالقرآن والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال. وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وآداء الحقوق. وقال: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق، ومن اشتغل بالفضول حرم الورع، ومن ظن ظن السوء حرم اليقين، ومن حرم هذه الثلاث هلك. اللباب ١/ ٢١٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠، شذرات الذهب ٢/ ١٨٢.

الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين، جلساء الله غداً أهل الورع والزهد. وقيل: من دق في الدنيا ورعه، جل في القيامة خطره. فالورع مقدمة العطاء. ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. وقال يحيى بن معاذ[1]: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال: الورع على وجهين. ورع في الظاهر وورع في الباطن. فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله. وورع الباطن: أن لا تدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء[2].

٣ ـ وفي اليقين الذي هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ومن خص الله أهله بالهدى والفلاح، والذي متى ما وصل إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط.

وقال سهل: ابتداؤه المكاشفة كما قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. ثم المعاينة والمشاهدة. ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين، فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلاً، وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان. واليقين على ثلاثة أوجه:

يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة.

يقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به.

---

(١) يحيىٰ بن معاذ الرازي، من كبار المشايخ. (ت٢٥٨هـ)، وعنه قال: لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت، لا يفلح من شممت رائحة الرياسة منه، وعنه قال: كيف يكون زاهداً من لا ورع له، تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك، ويقول: الفوت أشد من الموت، من خان الله في السر هتك ستره في العلانية. له ترجمة في: حلية الأولياء ٥١/١٠، وفيات الأعيان ٣٢٦/٦، شذرات الذهب ١٣٨/٢.

(٢) انظر مدارج السالكين منزلة الورع ٢١/٢.

ويقين الدلالة: ما هو فوقه ـ وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه ـ الأدلة الدالة على ما أخبر به ـ وهذا كعامة ـ أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن، فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين ـ يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين من جهة الخبر ومن جهة الدليل، فيرتفعون به من ذلك إلى الدرجة الثانية، وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذٍ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين. وهذا أعلى أنواع المكاشفة.

ومقتضى اليقين أن نقبل كل ما جاء عن الحق، الظاهر منه والغائب، والوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته.

ثم الاستغناء بالاستدلال عن الاستدلال. وعن الخبر بالعيان. فصاحب اليقين قد استغنى به عن طلب الدليل. فالدليل إنما يطلب ليحصل العلم بالمدلول، فإذا كان المدلول مشاهداً له ـ قد أدركه بكشفة ـ فلا حاجة به إلى الاستدلال[1].

اليقين أقوى الأسباب المعالجة، والقاضية على فتنة الشبهات. كما أن الصبر علاج لفتنة الشهوات. والمزج بينهما يثمر درجة الإمامة في الدين. قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: بالصبر اليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٣٢/ ٢٤.

---

(١) مدارج السالكين، منزلة اليقين ٢/ ٤١٣.

التوالد المستمر

للفتن بنوعيها نطاق انطلاق. فالفتن من شأنها التوالد والتتابع، والتنوع بحيث لا تقف عند حد أو عد. والمفتون كذلك لا يعرف التوقف، فضلاً عن التقهقر أو التراجع، فهو لا يحب أن يكون وحده الموسوم بالفتنة، بل يعمل على إغراء غيره وجذبه إليها فيصبح لفتنته ناشراً داعياً. وأكثر الفتن إنما نشأ عن ذلك بلون من التجاري والمسارعة والتزيين.

إلقاءات وإغواءات وعروض مستمرة لا تتوقف من الشهوات والشبهات، فإذا ما التقت الشهوات والشبهات ثار الهوى، وساد فأظلم القلب، فخالف الحق وأخفاه وإن كان ظاهراً، وتقول على الله بما لا يعلم، أو بما يعلم بطلانه، ولم يميز بين سنة وبدعة، وربما نكس على عقبيه فرأى السنة بدعة، والبدعة سنة، وتلك آفات من اتبع الشهوات والشبهات. وحاصرت الفتن قلبه فاسودّ وتجرد من كل خير ونكس فلم يعلق به خير، وفي الحديث الذي رواه حذيفة[1] وهو ممن

---

(١) حذيفة بن اليمان، صاحب السر وأحد نجباء الصحابة الكرام، وأعيان المهاجرين، (ت بالمدائن ٣٦هـ). كان يقول: إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وكان يحدث الحديث. يستفظعونه، فقيل له: يوشك أن تحدثنا: أنه يكون فينا مسخ؟ قال: نعم ليكونن فيكم مسخ: قردة وخنازير، وعن علي رضي الله عنه وقد سئل عن حذيفة فقال علم المنافقين وسأل عن المعضلات، فإن تسألوه تجدوه بها عالماً ـ طبقات ابن سعد ٦/ ١٥، ٧/ ٣١٧، الجرح التعديل ٣/ ٢٥٦، حلية الأولياء ١/ ٢٧٠، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٦١، تهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩.

ضبط عن نبينا ﷺ. أمر الفتن الكائنة في الأمة، دليل وبيان لحقيقة تأثير الفتن على القلوب: «تعرض الفتن على القلوب كما الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[1].

وأنت خبير بمعاني الحديث، والمعنى أن الفتن تحيط بالقلب كالمحصور والمحبوس، وأنها تلصق بعرض القلوب كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به، ومن دخلت الفتنة في قلبه دخولاً تاماً أثرت فيه أثراً أسود وهو دليل السخط به فقلب القلب ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة[2].

وتأمل ما في الحديث من أمور:

* طريقة عرض الفتن على القلوب وما فيه من تتابع مستمر وما فيه من تجزأة العرض بحيث يتقبلها ولا ينفر منها لأنه يراها حقيرة. فتنة بعد أخرى، تكرار.

* استقرار الفتن بعد ذلك، ودخولها دخولاً تاماً، كأنها حلت في القلب محل الشراب.

* ميل القلب، وهو معنى، التنكيس، منكوس، مكبوب، نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة.

ثم تأمل بعد ذلك. القلوب عند عرض الفتن عليها، وصفة كل قلب، ومآله. فمآل من تجاوب مع الفتن: اشتباه المعروف عليه

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ١/١٢٨، وأحمد في مسنده ٥/٣٨٦، ٤٠٥.

(٢) جامع الأصول ١٠/٢٢.

بالمنكر، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وربما استبد به هذا الاشتباه واستحكمت الفتنة فاعتقد المعروف منكراً، والسنة بدعة، والخير شراً، والحق باطلاً، والحلال حراماً. ثم تأميره هواه وتقديمه على ما جاء به الرسول ﷺ، وعندما يؤمر الهوى، يخفى الحق ويطمس الصواب، وإن كان ظاهراً واضحاً لا خفاء فيه ولا شبهة.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل فالأولى توجب فساد القصد والإرادة. والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد[1].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٢.

الفصل الرابع

فتنة الألقاب المخترعة

- الأئمة.
- فليؤمروا أحدهم.
- الثناء وتجريب اللسان.

* كل أمل ظفرت به فعقباه حزن. إذ لا بد من أحد شيئين:

إما ذهابه عنك، أو ذهابك عنه.

إلا العمل لله والدار الآخرة فعقباه فرح وسرور في العاجل والآجل.

* إياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة فتفقد نفسك واعمل بنية، واعلم أنه قد دنى من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت.



فتنة الألقاب المخترعة:

أ ـ الأئمة

هم القادة المنظور إليهم، والمقتدى بهم. فهم أئمة، والناس لهم تبع. فإما قادوهم إلى جنة، وإما إلى نار. وإما أن ينالوا من أجرهم أو من وزرهم.

وهذا أمر يقع فيه اختلاف كبير وتفاوت عظيم، كما أخبر ربنا عن صنوف من العمل والعمال، والألقاب. قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ٣٩/ ١٧، ١٨. هذا صنف. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ ٧١/ ٥، ٦. ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ٧٤/ ٤٩. وهذا صنف آخر، فما بين استماع واتباع. وفرار وإعراض. كذا من الناس أئمة هداية، وأئمة ضلال. أئمة خير وبركة، وأئمة شر ونقمة. وكل تابع في الدنيا مع متبوعه في الآخرة، وسالك حيث سلك موعوداً بما وعد به متبوعه من خير أو شر. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ٢١/ ٧٣. هؤلاء أئمة خير فمن أحب الكون معهم فليسلك سبيلهم. وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٨/ ٤١، ٤٢. وهؤلاء أئمة كفر سعيهم في غاية الخسة، ومنتهى النحاسة والرذالة فإمام وإمام، ما بين سعي الأول والثاني، ما بين الهدى والضلال، والحسنة والسيئة،

والطاعة والمعصية. قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ ١٧/ ٨٤. سجيته التي قيدته.

ولا بد لكل إنسان من وصف خبيث أو طيب. ومع اختلاف العمل والوصف يختلف الجزاء المترتب كذلك. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٣٠/ ١٤ ـ ١٦.

اختلف العمل والوصف، فاختلف الجزاء المترتب عليه. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ ٩٢/ ٤. جزاء سعيكم لمختلف. فما بين ساع لإسعاد نفسه وإصلاح حاله. وما بين ساع لإشقاء نفسه وإعطاب حاله. ما بين ساع إلى النعيم، وما بين ساع إلى الجحيم.

وصفوة القول:

١ - إن الناس مختلفون منقسمون في أحوالهم وأعمالهم وصفاتهم ومنازلهم. قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ ١٦/ ١٢٠، ١٢١. قائداً في الخير. وقال الله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ ٢١/ ٩٤.

لاحظ ما ترتب على الإيمان والعمل الصالح، ولما ضرب ربنا المثل لعالم السوء جاء بما يناسبه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)﴾ ٧/ ١٧٥. فلأنه من أهل الرياسة انسلخ، وخالف الحق، وقال على الله غير الصدق، إذ لا تتم لهم أغراضهم إلا بهذا، وباتباع الشبهات، وكلما كان الإمام محباً للرياسة متبعاً لشهواته، دفع كل ما يعترض سبيله.

وقد أبان ابن القيم عما تضمنته الآية من ذم.

أ - أنه ضل بعد علم، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلا.

ب - أنه فارق الإيمان مفارقة لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها. فهو فارقها مفارقة الجلد يسلخ عن اللحم. ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب في انسلاخه منها باتباعه هواه.

جـ - إن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: «فأتبعه الشيطان» ولم يقل تبعه، فإن معنى أتبعه، أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

وقد كان محروساً محفوظاً بآيات الله من الشيطان الذي لا ينال منه شيئاً إلا على غرة، فلما انسلخ ظفر به الشيطان.

د ـ إنه غوى بعد رشد، والغي الضلال في العلم والقصد والعمل. كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد. فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر. إذاً معنى الغاوين. العاملين بخلاف علمهم، والذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

هـ ـ إن الله سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يرفع به، فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه. إذاً الرفعة ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله. وفيه إشارة إلى أن الذي يرفع متى شاء، هو الله، وأن من خفضه الله موضوع لا يرفع أحد به رأسا.

و ـ إن الله سبحانه أخبر عن خسة همة الغاوي، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى. هذا الاختيار منه لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض. وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام.

ثم تأمل ما في الآية من تشبيه لعالم السوء وكل من اتبع هواه ورضي بدنياه، وآثر المخاليق على الخالق. وهل من حيوان يشبه الكلب في خسته وهمته التي لا تتعدى بطنه، وحرصه، ومهانته وهوانه. وليس مجرد كلب، إنما كلب يلهث، فهو شديد اللهف على الدنيا، «الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع».

قال مجاهد: ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضاً لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أولم يوعظ. كالكلب يلهث طرداً وتركا.

وقال أبو محمد بن قتيبة[1]: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب. فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش. فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال. كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث[2]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ ٧/ ١٩٣.

٢ ـ الحرص على أن تكون على الحق والهدى، ولو كان الناس بعد ذلك على الضلالة والردي. باختلاف رتبهم وألقابهم. ولو كنت وحدك، فالتحصن واجب، والتأبى على خطط الكيد والمكر مطلوب. وإن كنت وحدك فاستشعر ما في الإسلام من عزة إيمانية، وقدرة حقيقية، كم أعلنت عن تذويبها لمفردات الغربة وعوامل القلق، والشعور بالوحدة. بل كم أعلنت عن نفسها تمثلها في فرد، لك فيه أسوة، يظهر لك فيها عون الله وتأييده للأفراد والقلائل. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾ ٦/ ١١٦ .﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ١٢/ ١٠٣.

---

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، العلامة الكبير، صاحب الفنون (ت٢٧٦هـ) له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٤٢، تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٣٣، ميزان الاعتدال ٢/ ٥٠٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٧، لسان الميزان ٣/ ٣٥٧، شذرات الذهب ٢/ ١٦٢.

(٢) انظر التفسير القيم/ ٢٨٠، الفوائد/ ١٠١.

هذا في مقابل القلة الممدوحة، حيث يقول الله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ١٣/٣٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ٢٤/٣٨.

ولما استغرب عمر رضي الله عنه، ما دعا به رجل قائلاً: اللهم اجعلني في الأقلين، راجعه، فقرأ الآيتين، فأعجب به، وردد معه. فتأمل هذا جيداً أو اعمل على أن تنتفع به. مع أهمية العدد إلا أن الثبات على الحق لا يرتبط بقلة أو بكثرة. ولهذا قرر العلماء أنه حيث ورد الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلا. والمخالف له كثيراً. فلا تغتر بكثرة، ولا تيأس من قلة. فالناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة، وجاز القنطرة.

خذ من الألف واحدا واطرح الكل من بعده

وفي الحديث: «إنما الناس كالإبل، المائة لا تكاد تجد فيها راحلة» «تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة»[1].

فعلى الرواية الثانية. بدون ألف ولام، وبغير تكاد. فالمعنى لا تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب. لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون وطيئاً سهل الانقياد، وكذا لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة، بأن يعاود رفيقه ويلين جانبه. والرواية بإثبات (لا تكاد) أولى لما فيها من زيادة المعنى ومطابقة الواقع[2].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق: باب رفع الأمانة ٨/ ١٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة: باب فضل فارس ٤/ ١٩٧٣، وابن ماجه في سننه كتاب الفتن، باب من ترجى له السلامة في الفتن ٢/ ١٣٢١، وأحمد في مسنده ٢/ ٧، ٤٤.

(٢) فتح الباري ١١/ ٣٣٥.

ومعنى الحديث أن المرضيّ المنتخب من الناس في عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل.

قال الأزهري: الذي عندي فيه أن الله ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها وضرب لهم فيها الأمثال ليعتبروا ويحذروا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ١٠/ ٢٤. وما أشبهها من الآي، وكان النبي ﷺ يحذرهم مما حذرهم الله ويزهدهم فيها، فرغب أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد في النادر والقليل فقال «تجدون الناس بعدي كإبل مائة ليس فيها راحلة» أي أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحلة في الإبل[1].

وقيل في المعنى ما يؤيد هذا ويؤكده. إن المُرضي الأحوال الكامل الأوصاف قليل.

وقال القرطبي[2]: الذي يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة.

وقال ابن بطال: معنى الحديث أن الناس كثير والمُرضي منهم قليل، ففي كل مائة إبل لا تجد بعيراً يصلح. والعرب تقول إبل بمعنى مائة. يقولون لفلان إبل أي مائة بعير وإبلان مائتان.

قال الراغب: الإبل اسم مائة من البعير، فقوله كالإبل المائة المراد به عشرة آلاف (مائة في مائة) ولم يرتض ابن حجر هذا[3].

فدع عنك أمر العامة وارفع للحق راية، ولو كنت وحدك. وجدد

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٥.

(٢) القرطبي: أحمد بن عمر الأنصاري، الفقيه، أحد أعيان المذهب المالكي، وصاحب المفهم شرح مسلم. (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٣.

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٣٥.

سير الأوائل، وسننا سنها لك من قبلك، ممن كانوا أفراداً واستحقوا لقب أمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ ١٦/ ١٢٠ وهو فرد، فتمثل سيرته واستوعب الدرس وتأمل كلامه يوم قال: «يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك»[١]. كرر هذه الكلمات ورددها وتأمل المغزى. وكن وريث خليل الرحمٰن، واطلب ونادي بنداء عباد الرحمٰن ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ٢٥/ ٧٤. قادة في الخير، ودعاة هدى يؤتم بنا، أئمة نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا. أو المعنى: اجعلنا أئمة هدى ليهتدي بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة. وقيل: ليس المراد أن نؤم الناس، وإنما أرادوا اجعلنا أئمة لهم في الحلال والحرام يقتدي بنا فيه[٢].

وقد حقق الله الجماعة في أفراد فكانوا هم «الجماعة والسواد الأعظم» ذلك أن ابن مسعود قرأ (إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً) فقال له فروة بن نوفل: إن إبراهيم، فأعادها ثم قال: إن الأمة معلم الناس الخير، والقانت: المطيع، وإن معاذاً رضي الله عنه، كان كذلك، ولما قيل له يا أبا عبد الرحمن نسيتها، قال: لا، ولكنا كنا نشبهه بإبراهيم[٣] كما وصفوا محمد بن أسلم الطوسي[٤] بأنه هو السواد الأعظم الوارد في الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ«إن أمتي لاتجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم»[٥].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأنبياء ٤/ ١٧، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٠٤.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٢٥١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٥١.

(٤) محمد بن أسلم بن سالم، الإمام الحافظ الرباني. مولده في حدود (١٨٠ - ٢٤٢ هـ) كان من المتتبعين للآثار. وركن من أركان الإسلام. له ترجمة في: الجرح والتعديل ٧/ ٢٠١، حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٥، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٢، طبقات الحفاظ/ ٢٣٣، شذرات الذهب ٢/ ١٠٠.

(٥) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن ٢/ ١٣٠٣، قال البوصيري، ضعيف لضعف أبي خلف الأعمى والحديث روى من عدة طرق يمكن أن يتقوى بها. مصباح الزجاجة ٢/ ٢٨٩

ذلك أن من سئل من أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث. قال: محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه ومن تبعه، ثم قال إسحاق بن راهويه: لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة أشد تمسكاً بأثر النبي ﷺ، من محمد بن أسلم.

قال ابن القيم: وصدق فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنة داع إليها فهو الحجة وهو الإجماع وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[(١)].

ومن تتبع سيرة ابن أسلم وجده كما وصف ركن من أركان الدين. صاحب بصر واتباع للأثر، وزهد في الدنيا، وفصاحة بالقرآن والنحو.

فمفتاح كونك جماعة أن تكون على الحق قائماً وبالحق عاملاً وللحق حارسا. حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً.

ومما قاله ابن مسعود إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك. وفي طريق أخرى: إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل.

قال نعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ.

وقال الحسن: السنة والذي لا إله إلا هو، بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله؛ فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا[1].

ب ـ فليؤمروا أحدهم

وقال الله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ ٤/٥٩. أشار البخاري في صحيحه إلى ترجيح القول الصائر إلى أن الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافاً لمن قال نزلت في العلماء[2].

ولما كان ما يعرف به التكليف «القرآن والسنة» كان المعنى: أطيعوا الله فيما نص عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما يبين لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة. أو المعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. قال ابن حجر: ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أمية، لما قال له: أليس الله قد أمركم أن تطيعونا في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ ٤/٥٩، فقال له: أليس قد نزعت عنكم يعني الطاعة إذا خالفتم الحق. بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ٤/٥٩.

إذاً إعادة الفعل نظراً لاستقلال الرسول ﷺ، بالطاعة، ولم يعده مع أولي الأمر إشارة إلى أن فيهم من لا تجب طاعته إذا لم يعملوا بالحق. أو أمروا بمعصية وهذا كله عن باب اتفاق الكلمة، لما في الافتراق من الفساد، وليكون الأمر جميعاً، ولا يتفرق بهم الرأي. إذ لا بد من ولاية أمر الناس، ولا بد للناس ممن يتولى أمرهم متى بلغوا ثلاثة.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام ٩/٧٧.

(٢) فتح الباري ١٣/١١١.

فعن أبي سعيد[1] أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[2]. والإمارة حمل، وحمل ثقيل. ففيها إغراءات نفس ووساوس شيطان، فيها بطر وترف ورخاوة وتبعة. والذين يعرفون حجم التبعة لن يبقى لديهم من معنى الالتزام بالأمر الصادر إلا ثقله الثقيل. والأمر لا ينعقد بدون إمارة.

حتمية فرضتها حيثيات كثيرة: إن الدين الإسلامي لا بد له من جماعة، ولا بد للجماعة من إمام يقوم على شؤونها، يتولى أمرها ويحاسب عمالها، ويرجع إليه عند الاختلاف. ولهذا أمر بها النبي ﷺ، لمن كانوا ثلاثة فأكثر. أقل الجمع. وفي بعض طرق الحديث «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم». قال نافع[3] فقلنا لأبي سلمة[4]: «فأنت أميرنا».

قال ابن تيمية: يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم

---

(١) سعد بن مالك بن سنان الخدري، الإمام مفتي المدينة (ت٧٤هـ) من أقواله: عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإن رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في أهل السماء، وذكرك في أهل الأرض، وعليك بالصمت إلا في حق، فإنك تغلب الشيطان. ترجمته في: طبقات الشيرازي/٥١، سير أعلام النبلاء ٣/١٦٨، تذكرة الحفاظ ١/٤١، تهذيب التهذيب ٣/٤٧٩، شذرات الذهب ١/٨١.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣٦، والبغوى في شرح السنة ١/٧ والهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٥٥.

(٣) نافع مولى ابن عمر، الإمام الثبت المفتي، كان ثقة كثير الحديث (ت١١٧هـ) الجرح والتعديل ٨/٤٥١، تذكرة الحفاظ ١/٩٩، سير أعلام النبلاء ٥/٩٥، تهذيب التهذيب ١٠/٤١٢.

(٤) أبو سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف، كان ثقة فقيهاً (ت٩٤هـ). له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٥/١٥٥، طبقات الشيرازي/٦١، سير أعلام النبلاء ٤/٢٨٧، تذكرة الحفاظ ١/٥٩، تهذيب التهذيب ١٢/١١٥، تاريخ الثقات للعجلي/٤٩٩.

مصلحتهم إلا بالاجتماع على رأس. حتى قال النبي ﷺ «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم..».

فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع. [1]

وهذا الأمر محل اتفاق بين المسلمين. اتفقوا على أن الإمامة فرض، وأنه لا بد من إمام[2].

قال إمام الحرمين[3]: نصب الإمام عند الإمكان واجب. ورد على من قال بالجواز وعدم الوجوب بأنه مسبوق بإجماع من أشرقت عليه الشمس شارقة وغاربة واتفاق مذاهب العلماء قاطبة[4].

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية/١٣٨.

(٢) مراتب الإجماع لابن حزم/١٢٤.

(٣) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ) كان يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام. وقال عند موته: اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور. له ترجمة في: تبيين كذب المفتري/٢٧٨، معجم البلدان ٢/١٩٣، وفيات الأعيان ٣/١٦٧، سير أعلام النبلاء ١٨/٤٦٨، طبقات السبكي ٣/ ٢٦١، مقدمة الغياثي، والبرهان.

(٤) الغياثي/ ٢٢، ٢٣.

ما توقف مطلب أنت طالبه بربك

الدعوة إلى الزهد في الإمارة، بل وفي المناصب القيادية، أهم من الزهد في المال، والنفوس الواعية تتورع عن كل ما يحذر منه الإسلام. فكيف بمن سعى إليها وطلبها؟ وقد عدوا من لم يزهد في الإمارة ميؤساً من صلاحه وإصلاحه، وإنه من طلبها وحرص عليها، وكلت إليه وصرفت إليه وخلي بينه وبين نفسه فلا عون له ولا توفيق من الله سبحانه. وقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان، أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلى بينك وبينها، والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك[١].

فما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. ذلك أن في الطلب نوع تزكية للنفس ورفعا للسعر، والله أعلم بالقيمة؟ كما فيه نوع تعجل ومع التعجل حرمان، فمن تعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. والحرص على الإمارة والجاه والشرف مفسدة للدين ومضيعة للحكمة، إذ لا تسكن الحكمة قلباً فيه ثلاث خصال: هم الرزق، حسد الخلق، حب الجاه!

والعلماء على أن كل من طلب الإمارة فأعطيها تركت إعانته عليها من أجل حرصه. فإن لم يكن له من الله عون على عمله لا يكون فيه كفاية لذلك العمل. فلا ينبغي أن يجاب سؤاله، ومن المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من المشقة. فمن لم يكن له من الله

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٠٠.

إعانة تورط فيما دخل فيه وخسر دنياه وعقباه[1].

ثم إن الذي يناله في دنياه من السرور والفرحة واللذة، دون ما يناله من الحسرة والألم. إذ لا بد من أحد أمرين: إما العزل، أو ذهاب الإمارة عنه إلى غيره. فإما أن تذهب عنه وتتركه، وإما أن يذهب عنها ويتركها. هذا مع ما يناله من الندامة والمؤاخذة في الآخرة.

تفنى اللذاذة ممن نال شهوتها   من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء لا انفكاك لها   لا خير في لذة من بعدها نار[2]

وتأمل: كل أمل ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك، أو بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيئين.. لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل، في دعاء إلى حق، وفي حماية حريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصرة مظلوم.. وباذل نفسه في عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى. لا مروءة لمن لا دين له، العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة[3].

مع هذا فالزهد في الرياسة أقل ما يكون. لهذا قال الثوري: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نُوزع الرياسة حامى عليها وعادى[4]. إياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد نفسك واعمل بنية. واعلم أنه قد دنى من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت[5].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٢٤، شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ٤٤٨.
(٢) البيتان منسوبان للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، مناقب أحمد لابن الجوزي/ ٢٠٥.
(٣) الأخلاق والسير لابن حزم/ ١٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٢.
(٥) حلية الأولياء ٦/ ٣٧٦. من رسالة للثوري إلى عباد بن عباد.

من طلب الرياسة قبل مجيئها فرت منه

لكن ما العمل الآن إذا كانت الأمور بيد من لا يتقنها من الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الأمانة، وفي الناس من يُعلم فضله وكفايته! ومن كمل فيه الاجتهاد وشروط الإمامة!

مع البعد عن التشفي والغرور والأبهة، والعمل للذات والدوران في خدمة النفس.

من كان كذلك فهل يجوز له أن يسبه الحكام على مكانه ويدل على مكانته! أم يأخذ بسلاح التأني على الأخص في أيام الفتن، والتفريغ والتخريب، ويكون حذراً فإن أقل ما توصف به أيامنا هذه أنها أيام ريبة!

أغيلمة!!

يقال للصبي حين يولد إلى حين يبلغ الحلم. والتصغير لإرادة الصبيان.

وقد يطلق على الرجل المستحكم القوة غلام تشبيهاً له بالغلام في قوته[1]. وربما لضعف العقل وقلة التدبير، والبعد عن الدين.

وقد يراد بعض أولاد الأمراء، ومن وقع منهم الفساد أو بسببهم، فنسب إليهم. وأياً ما كان فقد أخبر النبي ﷺ، أن هلاك الأمة على يد غلمة من قريش[2].

ومن ثَمَّ تعوذ الصحابي الجليل راوية الإسلام من إمارة الصبيان. ولما قالوا له وما إمارة الصبيان! قال: إن أطعتموهم هلكتم ـ أي في دينكم ـ وإن عصيتموهم أهلكوكم ـ في دنياكم ـ بإزهاق النفس.

قال ابن حجر: والمراد أنهم يهلكون الناس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال الناس ويكثر الخبط بتوالي الفتن[3].

وهو عين ما تخوف منه النبي ﷺ، على أمته يوم قال: «إنما أخاف عليكم الأئمة المضلين»[4] فهل للدين بقاء مع هذا السند من الضلال؟ لا شك أنها أوضاع شاذة ومقلوبة.

---

(١) راجع ترجمة الإمام الزاهد عتبة بن إبان البصري، الملقب بعتبة الغلام، لنشاطه في خدمة إخوانه ومداومة العبادة، الحلية ٦/٢٢٦، سير أعلام النبلاء ٧/٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ٩/٦٠.

(٣) فتح الباري ١٣/١٠.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ٤/٩٧، وابن ماجه في سننه ٢/١٣٠٤، والدارمي في سننه ٢/٣١١.

مصاعب وآفات

لا صمت أمام المصاعب، بل لا بد من مواجهتها، وهذه بداية الطريق للعلاج.

إن المصاعب إنما تتغير بمواجهتها بقوة، ورحابة صدر. ويعين على ذلك أن كراهية الشيء تمهد الطريق لإزالته والقضاء عليه، أو علاجه وتهذيبه على مقتضى الشرع.

* الحرص... ندامة، غرامة، عذاب يوم القيامة. ففيه تعجل وعدم ثقة أو اطمئنان لما عند الله، أو رفض للتوزيع، وزعم أن ما وصل إلى الغير خطأ كان هو الأجدر به. أو معاداة للقدر، والقدر حق، وإذا كان القدر حقاً فالحرص باطل.

وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت راصداً. فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

الحرص داء - وهو أحد أصول الخطايا ويشكل مع الكبر والحسد، ثالوث الهلاك. فالحرص هو الذي أخرج الوالدين من الجنة. والكبر هو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره إليه، فبدل الله حاله أسوأ حال. والحسد هو الذي جرأ أحد ولدي آدم على قتل أخيه، ولذلك فمن وقى هذه الثلاثة فقد وقى الشر كله[١].

والحرص من عوامل فساد الدين، لا سيما الحرص على الشرف والدنيا والمال.

---

(١) الفوائد/٥٨.

والحرص على الشرف أشد هلاكاً للمرء من الحرص على المال، فإن طلب الشرف في الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس، والعلو في الأرض، أضر على المرء من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة، والشرف

أورد ابن حجر عن المهلب[1] قال.

الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك.

ولهذا وغيره فقد أخبر النبي ﷺ، بوقوع الحرص على الإمارة «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[2].

وهذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولاية خاصة لمن كان فيه ضعف، ومن دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل.

ولما سأله الرجلان من الأشعريين الإمارة قال «إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه»[3]

فأخبر ﷺ، عن الشيء قبل وقوعه، فوقع كما أخبر!

وكان الحرص، ويتبع ذلك الندامة لمن لم يعمل فيها بما يجب،

---

(١) المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأندلسي، مصنف شرح صحيح البخاري وأحد الأئمة الفصحاء (ت ٤٣٥ هـ) - له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧٩، شذرات الذهب ٣/ ٢٥٥.

(٢) فتح الباري ١٣/ ١٢٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام: باب ما يكره من الحرص على الإمارة ٩/ ٧٩ من حديث أبي هريرة، والثاني من حديث أبي موسى الأشعري. والبيهقي في سننه ١٠/ ٩٥، والبغوي في شرح السنة ١٠/ ٥٧.

ولم يعدل ويؤد الذي عليه فيها، أو أخذها بغير حق.

فوازن بين المغارم والمغانم، وبين ما ينال في الدنيا وما يترتب عليه في الآخرة، واعلم أنه لا خير في لذة من بعدها نار. وأنه لا ينبغي لعامل أن يفرح بلذة يعقبها حسرات، وأنه ما من أمل إلا ويعقبه ندم. وما من منصب إلا بعده عزل أو موت، أو خمول ومؤاخذة في الدنيا والآخرة، وهذا هو وجه الندم عزل، قتل، موت، تبعات فوات ما حرص عليه ثم المجازاة بالخزي يوم القيامة.

قال ابن عبد البر[1]: الحرص على الشرف على قسمين: أحدهما، طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال. وهذا أخطر، وهو في الغالب يمنع من خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ٢٨/ ٨٣ ـ وقل من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولاية فيوفق، بل يوكل إلى نفسه كما قال النبي ﷺ، لعبد الرحمن بن سمرة[2] رضي الله عنه: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها»[3].

---

(١) يوسف بن عبد الله بن محمد، الإمام الحافظ الأندلسي، صاحب التصانيف الفائقة، (٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ) وفيات الأعيان ٧/ ٦٦، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨، سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣، طبقات الحفاظ/ ٤٣٢ ـ شذرات الذهب ٣/ ٣١٤.

(٢) عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب، أسلم يوم الفتح، وشهد تبوك وفتوح العراق، وكان أحد الأشراف (ت ٥١ هـ) ـ له ترجمة في: الجرح والتعديل ٥/ ٢٣٨، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧١، الإصابة ٢/ ٤٠٠، تهذيب التهذيب ٦/ ١٩٠، شذرات الذهب ١/ ٥٣.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٩/ ٧٩، ومسلم في صحيحه ٣/ ١٤٥٦، وأبو داود في سننه ٣/ ٢٢٩، والنسائي في سننه ٧/ ١٠، والترمذي في سننه ٤/ ١٠٧، . وقال: حسن صحيح، والدارمي في سننه ٢/ ١٨٦، وأحمد في مسنده ٥/ ٦٢، والبيهقي في سننه ١٠/ ٣١.

قال بعض السلف: ما حرص أحد على ولاية فعدل فيها، من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها.

هذا ـ والحرص على الشرف يستلزم حرصاً عظيماً قبل وقوعه في السعي وأسبابه.

وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد[1].

جـ ـ الثناء. وتجريب اللسان

* قصد العلو، علو المنزلة والتسامي والتعالي، فيرى لنفسه ما ليس لغيره، فيرفع سعره، ويغالي في ثمنه، ويطلب لنفسه ثمناً أعلى من قيمته. ويحب من الناس أن يتواضعوا له. وأن يكرموه بعمله، وأن يروا له مكانة في نفوسهم، وأن يظهروا حاجتهم إليه، وافتقارهم له، وتوجههم بالطلب والسؤال وإنزال الحوائج عنده.

وربما شح بما في يده رغبة في إرغامهم، والضغط عليهم وإنزال المزيد من الحوائج بساحته ـ وكلها مداخلات وأمور أخطر من مجرد الظلم. يكفي ما فيها من مماثلة ومزاحمة ومناددة، وأن يخلع الإنسان على نفسه صفات ليست له.

ويرى ابن عبد البر أن من هذا الباب، أن يحب صاحب الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله، ويثني عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر وأحب المدح عليه، وقصد به في الباطن شراً، وقصد تمويه ذلك وترويجه

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٧١.

على الخلق[١]

وهي أمور أخطر من مجرد الظلم يكفي أن يكون من ورائها العجب والكبر والفتور وإظهار خلاف ما هو مضمر، والقول بغير ما هو محقق، ولا سبيل إلى الإطلاع عليه، وقد يفرح من مدح وأثنى عليه وهو ظالم، وفي ذلك معصية: فمن دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح[٢]. ففي مدحه فتنة له، إذ قد يورثه ذلك فتوراً، ورضاً عن نفسه، وهيهات لمن كان هذا حاله اكتمال أو نجاة، أو تشمير أو عمل.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٧٣.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٠.

الاغتباط بالذم

قد عز في الناس وجوده. مع أن من كمال العقل، وتمام الحظ، أن يكون اغتباطك بذم الناس إياك، أكثر من فرحك بمدحهم لك ـ كما هو صنيع سلف الأمة ـ اتهام النفس، وإظهار الوحشة عند المدح. فهو من علامات الإخلاص وبركة التوحيد.

استواء المدح والذم عندك من العامة. ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال. واقتضاء الثواب على العمل في الآخرة.

فمتى استوى عندك مدح المادح وذم الذام، فقد توفر لديك أمارة إخلاص. ومتى رأيت عملك فهو منزوع الإخلاص وعليه لم يرفع فوق رأسك، وإذا كان كذلك فأين القبول! قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ٣٥/ ١٠ ـ ثم وانتظار الثواب على العمل في الآخرة. فلا تطلب لنفسك أجراً على عملك في الدنيا.

وإنما كان استواء المدح والذم علامة إخلاص. لأن المدح إن كان بحق فربما أفسد، وأدخل الإنسان دائرة العجب. وإن كان بباطل فسرك، فقد سررت بكذب، وهذا نقص شديد، ومن سمات النفاق. إذ هو سرور بما ليس فيك، وتشبع بما لم تعط.

وأما ذم الناس فلا يخلو من فائدة. فإنه إن كان بحق فربما كان سبباً في تجنبه. وهو حظ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون. وإن كان بباطل فصبر، فقد اكتسب فضلاً زائداً على الحلم، وكان غانماً لأنه سيأخذ من حسنات من ذمه بباطل، وهذا حظ عظيم أيضاً.

فضلاً عن طرح السيئات، وإلقائها على من ذمه بباطل، على سبيل المقاصة.

وتأمل عيوب حب الذكر والثناء. ومنها:

أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها، فكان شركاً، لأنه عمل لغير الله تعالى، وهو يطمس الفضائل، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير، ولكن ليذكر به.

لذا قالوا: أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك. وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على فضلك، ولقد انتصر لك من نفسك بذلك وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة. لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً، لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت، أكثر ما يكون من لم يظن، فالحزم هو التأهب لما يظن، فسبحان من رتب ذلك ليرى الإنسان عجزه وافتقاره إلى خالقه عز وجل[1].

وبكل حال فأنت أعلم بنفسك وأخبر بها من غيرك. فلا تدع الغير يجرب فيك طلاقته وبلاغته لحاجة في نفسه أنت أعلم بنفسك وأدرى بما بين جنبيك من مفتون قال بظن أو بجهل، فلا تترك ظن ما عنده ليقين ما عندك ولا يغلبن جهل غيرك علمك بك. فتلك فتنة وغرور يأباه كل من كان أوفر عقلاً، وأتم علماً، ويقيناً كيف هو أعظم اتهاماً لنفسه وأقل إعجاباً بها ورضاً عنها.

إلا أنها سلعة باتت غير مطلوبة، وأمراً عز في الناس وجوده، فقل أن تجد من يبصرك بعيوبك، فالناس ما بين مداهن يخفي عنك عيوبك، أو حسود شامت يزيد على قدر الواجب، ويرى ما ليس

---

(١) الأخلاق والسير/٣٨.

بعيب عيباً، أو صاحب غرض وهوى نفس يدور في فلك هواه - فالانشعال بهذا حمق

وأقل منه من يقبل النصيحة فضلاً عن أن يطلبها أو يبحث عنها عند الخبراء

ولقد تأمل مالك بن دينار[1] أحوال الناس وأعطاك خلاصة تجربته، يوم قال: منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم، ولم أحزن لذمهم. قالوا: كيف ذلك يا أبا يحيى! قال: إني لا أرى إلا مادحاً مفرطاً وذاماً مفرطا[2].

والبخاري حيث قال الحامد والذام عندي واحدٌ أو قال سواء[3]

وإذا الأمر عندهما سواء لبلوغهما درجة الإخلاص، فلدى غيرهما شهوة من نوع خاص «البحث عن العيب» فإذا لم يجد من يبصره بعيبه هجره واعتزله، ولهذا كان داود الطائي[4] معتزلاً الناس فقيل له لم لا تخالط الناس! فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوني؟

---

(١) مالك بن دينار، أحد رواة الحديث وأصحاب الورع، وكان لا يأكل إلا من كسبه (ت ١٣٠ هـ) كان يقول وددت أن رزقي في حصاة أمتصها لا ألتمس غيرها حتى أموت، خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها - قيل وما هو؟ قال معرفة الله تعالى له ترجمة في: طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤٣، الجرح والتعديل ٨/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢، ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٦، تهذيب التهذيب ١٠/ ١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢ - العزلة للخطابي/ ١٧٠.

(٣) تارخ بغداد ٢/ ٣٠.

(٤) داود بن نصير، أبو سليمان الطائي، الكوفي الزاهد - أحد الأولياء الفقهاء ممن برع في العلم ولزم الصمت وآثر العزلة (ت ١٦٥ هـ) وعنه قال: كفى باليقين زهداً، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً انظر طبقات ابن سعد ٦/ ٣٦٧، حلية الأولياء ٧/ ٣٣٥، تاريخ بغداد ٨/ ٣٤٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٩، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٣، شذرات الذهب ١/ ٢٥٦.

فوصل الأمر حد القطيعة، أو حد الإعراض عن المادح، ذلك أنه لما دخل على عمر بن عبد العزيز رجل فقال: يا أمير المؤمنين! إن من قبلك كانت الخلافة لهم زيناً، وأنت زين الخلافة، فأعرض عنه. أو حد الغضب وإظهار الوحشة.

قال ابن القيم: ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: ما لي شيء ولا مني شيء ولا فيّ شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكْدىٰ وابن المكدىٰ. وهكذا كان أبي وجدّي.

وكان إذا أثنى عليه أحد في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً[1]..

فقد كانت سمة عامة، وسياسة متبعة. نهى الناس عن مدحهم على أعمالهم وما يصدر منهم من إحسان. ويردون العمل إلى من أعانهم عليه ووفقهم إليه.

فأضافوا ذلك كله إلى الله سبحانه، فانشغلوا به، وأرشدوا الناس إلى الانشغال به.

فاستفادوا تعليم الحق. ورحمة الخلق. وهذا أمل المحبين. فغاية مقصدهم إن يحببوه إلى خلقه، فيحبوه ويفردوه بالعبودية، من بابَ رد الفضل لصاحبه. فكيف بمن يزاحموه!

وقد كان النبي ﷺ، ينكر على من لا يتأدب معه في الخطاب بهذا الأدب، كما قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد»[2]، وقال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء فلان»[3] وقال لمن

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٦٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٩٥. والدارمي في سننه ٢/ ٢٩٥، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٩٥، وأحمد في مسنده ٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨، والبيهقي في سننه ٣/ ٢١٦.

قال له: «ما شاء الله وشئت. أجعلتني لله نداً! بل ما شاء الله وحده»[١]

والقاعدة في المدح، أن من مدح رجلاً فقد تضمن عيبه. كما أنهم عدوا الثناء الحسن من جملة الأجر فرفضوه حتى لا ينقص أجرهم في الآخرة ويقولون الثناء معدود من الجزاء وأنا لا أحب نقص ثواب أخي بالثناء عليه بين الناس. وبهذا كان أمراء العدل لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم، ومنهم من كان يرفض الثناء ويهرب. ويظهر الوحشة، ويهجر. ومنهم وهم كثير من رفض الإمارة ومجالس القضاء فإن قبل فلدينه ولدعوته، واستعانة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مع الصبر على ما يلحقهم من أذى في الدعوة إلى الله. وربما سعدوا بالمشقة وتلذذوا بما يصيبهم من الأذى في رضى الله تعالى.

كما قال القائل:

أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمني اللُّوَّم.[٢]

كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لوالده في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: أيا أبت لوددت أني غَلَتْ بي وبك القدور في الله عز وجل[٣]...

فانظر كيف انقلبت الأمور. وآل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الناس عندنا من يبصرنا بعيوبنا.

وإلى إجادة الثناء في العلانية والتآخي في الظاهر، والعداء والذم والتباغض في الباطن. حتى قال أبو عبيدة[٤] كنا نتحدث أن أمر هذه

---

(١) أحمد في مسنده ١/٢١٤، والبيهقي في سننه ٣/٢١٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٧٤.

(٣) المرجع السابق ٢/ ١٧٤.

(٤) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ـ أحد السابقين الأولين، أمين الأمة، كان موصوفاً بحسن الخلق، وبالحلم الزائد، والتواضع. (ت ١٨ هـ) وعنه قال:=

الأمة سيرجع إلى أن يكون إخوان العلانية أعداء السر.

وقد جاء عن بعض أهل العلم من السلف: إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالأرحام لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم[1].

فتأمل هذا وانتفع به، واحذر أن تعظم أحداً إلا تبعاً لتعظيم الشارع له، كما لا تقبل من أحد تعظيماً إلا على هذا الشرط، ولو كان فيك ما دعاه إلى تعظيمك، حتى لا تتشبع بما ليس فيك فتكون كلابس ثوبي زور، وأفضح ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به.

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان
وجرى في العلوم جري سُكَيْت خلفته الجياد يوم الرهان[2]

= أيها الناس إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى، إلا وددت أن في مسلاخه، له ترجمة في: حلية الأولياء ١/ ١٠٠، سير أعلام النبلاء ١/ ٥، تهذيب التهذيب ٥/ ٧٣، شذرات الذهب ١/ ٢٩.

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٤٤.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٤٥.



الفصل الخامس

الكمال.. والكمال الوهمي

- طغيان العلم.
- طلب الدنيا بعمل الآخرة.
- التلذذ بجاه الإفادة.
- من غوائل العلم.
- قطاع الطريق.
- معالم على الطريق.
- أنوار الحق.

*** احذر التزيُّن بالعلم كما تحذر العجب بالعمل.**

*** رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عند من هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.**

*** النفس معجونة بماء الكبر والحرص والحسد فمن أراد الله هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة.**



الكمال... والكمال الوهمي

عجبت لمن لم يطلب العلم، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة[1]!

فالمكارم في طلب العلم.

وللعلم والعلماء في الإسلام مكانة عظيمة. عالية القدر، رفيعة الشأن.

والعلم بوجه عام من أعظم ما اهتم به الإسلام، إذ هو الوسيلة الجوهرية إلى معرفة الله وخشيته.

ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف أشرف من وراثة هذه الرتبة.

والعلم حياة القلوب، ونور الأبصار، وعافية الأبدان، ويبلغ العبد به منازل الأبرار. به يطاع الله وبه يعرف. قرين درجة النبوة، ومن خصائص الإسلام، وكمالات الإنسان. به تفاوت الناس وتفاضلوا. ذلك أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، كما أن موته وظلمته مادة كل شر فيه.

وحياة القلب لا تحصل إلا بإدراك الحق وإرادته وإيثاره على غيره، والعلم مفتاح ذلك كله. أما الجهل فموت:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور

والعلماء ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، هم أولياء الأمور،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٣٩٨ - إحياء علوم الدين ١/٩.

ومصادر التوجيه، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، معالم الهدى والرشاد، ورايات الخير والسداد، لهم حال وللناس حال، الناس منهم في راحة، وهم من نفوسهم في تعب. هم سراج العباد، ومنازل البلاد، وقوام الأمة، لا ينافسون في عز، ولا يقنطون من ذل، علامات أو لافتات على الطريق.

هم ورثة الكتاب، بهم قام وبه قاموا، ومن كان هذا شأنه، وجب أن يعرف بليله إذ الناس ينامون، وبنهاره إذ الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

وكيف لا يكونوا كذلك، ومن ورائهم أمانة الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء؟

وأمانة العباد في المعاش والمعاد في أعناقهم؟

هذا ما يجب أن يكون عليه العلماء قياماً بحق العلم، فإذا أهمل العالم حق العلم كانت الفتنة، وأي فتنة؟

طغيان العلم

(١) طلب الدنيا بعمل الآخرة

من الهدى النبوي «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولا تحيزوا به المجالس، فمن فعل ذلك فهو في النار»[١]..

طلب العلو على الناس بأمر ديني أفحش خطراً، وأشد فتكاً وفساداً، من طلب العلو بأمر دنيوي.

ذلك أن الأصل في العلم أن يطلب به ما عند الله، وبهذا فضل، وألا تساوي مع غيره، ممن يطلب به حظاً دنيوياً، «جاه - منزلة عند أهلها...» فإذا لم يكن العلم سبباً موصلاً إلى ما عند الله تعالى، من جنات في الدنيا حرم ولا بد صاحبه من جنات الآخرة.

ويأتي هذا من إهمال آداب التعلم، من حيث النية، وللنية دخل كبير في قبول العلم وتصحيحه، ورب عمل صغير تعظمه النية. ورب عمل كبير تحقره النية، وبفقدها فإن أعمال الطاعات والقربات الصادرة تتحول إلى موبقات، شأن كل من عظم أمراً حقره الله تعالى.

ومن قصور العقل وحماقة المرء، طلب العلو في الدنيا وإداركها وصرف الهمة إليها بالعلم.

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٩٣ من حديث جابر - قال البوصيري: رجال إسناده ثقات على شرط مسلم، مصباح الزجاجة ١/٨٢، وأخرجه ابن حبان في صحيحه - انظر الإحسان ١/١٤٧. والحاكم في المستدرك ١/٨٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/١٨٧.

قال الثوري[1]: إنما فضل العلم لأنه يتقي به الله، فلذلك فضل على غيره من العلوم وإلا كان كسائر الأشياء[2].

فإذا سخر العلم في تحصيل الدنيا، وطلب به العرض الفاني، فقد قال ابن عبد البر: فهذا نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال ـ فهذا نوع من الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة.

وفي هذا الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[3].

يعني ريحها.

فهو قد جعل التوصل إلى المال بالعلم من الأسباب المحرمة، وسبب ذلك، والله أعلم:

أن في الدنيا جنة معجلة، وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه، وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها ـ فهو كمن معه جواهر نفيسة لها

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق، أحد الأعلام (٩٧ ـ ١٦١هـ) له ترجمة: في طبقات ابن سعد ٦/ ٣٧١، تاريخ بغداد ٩/١٥١، تهذيب التهذيب ٤/١١١.

(٢) الموافقات: ١/ ٦٥.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣٢٣، وابن ماجه في سننه ١/٩٣، وأحمد في مسنده ٢/٣٣٨، وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان ١/١٤٨، جميعاً من حديث أبي هريرة، قال العراقي: إسناده جيد، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ـ بهامش الإحياء للغزالي ١/٦١.

قيمة، فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه[1]. . .

إذاً مهمة العالم العمل بمقتضى العلم. وبما كلفه الله به. . . ولا ينتظر على ذلك أجراً من الناس، فإن أجره مذخور مدّخر عند الله تعالى.

لأن وظيفة العالم ليست من نوع وظائف الدنيويين وأصحاب المعاشات. إنما هي أسمى وأعلى، وأشق على النفس.

وإذا العلم قرين درجة النبوة، فليكن العالم على قدرها والأنبياء جميعاً يؤكدون هذا المبدأ ـ قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ٦/ ٩٠.

وعندما أعرض المكيون عن الإيمان، واتباع نبي الله محمد ﷺ، جاء القرآن يسأل عن سبب هذا الإعراض: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾!﴾ ٥٢/ ٤٠.

وطالما العلماء ورثة الأنبياء لزم اتباع النهج ـ فحق على أتباعهم أن يكونوا على طريقتهم وأن يسلكوا سبيلهم، ويدخل في هذا التنزه عن كل منفعة دنيوية سببها العلم.

ولعل التأكيد على عدم أخذ الأجر يرجع إلى أن كل عمل مأجور قد يعتريه النقص والخلل، وصاحبه لا يعطي إلا بمقدار ما يأخذ، ويسير حسب مقدار الأجر، والعلم أكرم من أن يرتبط بأمر متقلب، ومن هنا كان الارتباط بالإخلاص.

ثم والعلم يتأثر بمن يدفع أكثر، ومن ثَمّ وجب قطع الأطماع على النفس، والناس تستدل على صدق العالم في علمه بمقدار ترفعه

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٧٥.

عما في أيديهم. واحترافه حرفة يستغنى بها عن الآخرين.

لذا عدوا المحتاج إلى الناس، كلا مهتضماً، وذليلاً مستثقلاً.

وقالوا: لا تزال كريماً على الناس ما لم تتعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك[1]..

فوصيتهم إليك وأنت على الطريق:

ألا تبخس العلم حقه، ولا تطلب له ثمناً إلا الجنة، ولا تبع الياقوت بالحصى، أو الجواهر بالبعر، ولا تدع العلم يهلكك، فإن العلم لا يهمل أهله فخطر العلم عظيم. كيف؟

العلماء ثلاثة: إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها، وإما مسعد نفسه وغيره، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً، وإما مهلك نفسه مسعد غيره، وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره، وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه..

فانظر من أي الأقسام أنت؟ ومن الذي اشتغلت بالإعداد له؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل[2]..

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٠.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٤٨.

(٢) التلذذ بجاه الإفادة

حذر أئمة السلف من خطورة التزين بالعلم، وجعلوا التزين بالعلم قرين الإعجاب بالعمل.

وقالوا: احذر التزين بالعلم، كما تحذرالعجب بالعمل[١].

واعتبروا أن العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص فيه، وقد عدو من الأفات المفتنة طلب العلو بالمنزلة والتسامي بالحرص على الشرف والمكانة بأمر ديني، أعظم خطراً، من طلبها بأمر دنيوي ـ إذ طلب الدنيا بالدين من المخاطر المفسدة ولا بد.

ويدخل في هذا الانتصار للنفس ـ وهي نقطة أخرى تنطلق منها جملة أمور ملتوية.

فالنفس إذا ألح عليها معنى الفوقية والانتصار لم تعد تفكر فيما عداه، غير عابئة بصواب أو خطأ، ولا مفرقة بين نية وأمنية. ويظهر الأثر السيء من استعمال العلم في التوصل إلى أمر دنيوي وفي غير ما هو له، والأصل أن يتوصل به إلى تقوى الله ومرضاته.

فهو مرة استعمل في التوصل إلى أمر دنيوي، وهنا استعمله في التوصل إلى التسامي ورفع السعر، ومحبة التسلط على الناس، والتعاظم عليهم، وأن ينقادوا له ويخضعوا لسلطانه، فأحب صرف وجوه الناس إليه.

---

(١) رسالة المسترشدين/ ١٢٣.

ولا تحسبن أن ترك الأولى موصل إلى الله والدار الآخرة، ما لم يكمل ذلك بترك الجاه، فإنه أضر على العالم من حب المال والدنيا.

وقد علل الغزالي[1] ذلك بقوله:

وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا، ولذلك قال الثوري: فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد[2].

ولقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، وذلك في مثل قوله سبحانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ٣/١٨٧.

وسئل ابن المبارك، من الناس؟

قال: العلماء.

قيل: فمن الملوك؟

قال: الزهاد؟

قيل: فمن السفلة؟

قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين[3].

فإن قيل: لولا حب الجاه والرياسة وطلب العلو والمنزلة، لأندرست العلوم وتوقف العطاء، فحب الجاه حافز وسبب لإحياء العلوم!

---

(١) الغزالي ـ حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥ هـ). الإمام الحجة أعجوبة الزمان صاحب التصانيف والزكاء المفرط ـ وفيات الأعيان ٤/٢١٦، اللباب ٢/٣٧٩، سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢، شذرات الذهب ٤/١٠.

(٢) إحياء علوم الدين ١/٦٦، والقول ينسب لغير واحد من الأئمة.

(٣) إحياء علوم الدين ١/٤٨، سير أعلام النبلاء ٨/٣٩٩.

وهذا يدل على أن المتصف بهذا غير ناج، وإن كان مؤيداً للدين تأييد الفاجر له، مع أنه بوصفه هذا أنه قد يورد نفسه موارد الهلكة، وينجوا غيره إن أخذ الغير بما دعا إليه العالم من خير.

فمثل ذلك مثل الشمع يحترق في نفسه ويستضيىء به غيره، فصلاح غيره في هلاكه.

لذا فمن حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها في أول صدمة، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه. فلا تغتر وصحح النية. فإن التفقه لغير الله وطلب العلم لغير العمل، وطلب الدنيا بعمل الآخرة. خداع وفتنة.

وفي معنى التوصل بالعلم إلى التسامي، محبة أن يسير الناس خلفه إذا سار، كأنما هي حالات استنفار، وصنيع السلف على الضد من ذلك.

فعمر رضي الله عنه، يضرب أبي بن كعب[1] لما قام وقام خلفه جماعة يمشون. قال سليمان بن حنظلة: أتينا أبي بن كعب لنحدث إليه، فلما قام قمنا، ونحن نمشي خلفه فرهقنا عمر فتبعه فضربه عمر بالدرة، قال فاتقاها بذراعيه، فقال يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ قال أو ما ترى فتنة للمتبوع مذلة للتابع[2].

وقد أخذ بقول عمر جماعة من الصحابة والتابعين، كابن مسعود، وسعيد بن جبير رضي الله عنهما، قال ابن مسعود لمن ساروا خلفه: لو تعلمون من نفسي ما أعلمه منها لحثوتم على رأسي التراب.

---

(١) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد، سيد القراء، شهد العقبة وبدراً وجمع القرآن، وكان رأساً في العلم. حلية الأولياء ١/ ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٩، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦، تهذيب التهذيب ١/ ١٨٧.

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٣٢.

ولما كان التزين بالعلم كالإعجاب بالنفس وكلاهما مهلك لصاحبه - قال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين، القنوط والعجب.

وإنما جعل الهلاك فيهما وجمع بينهما، لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير. والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده، فلا يسعى، فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن هنا جمع بينهما[1].

وفي معناه أيضاً، كتمان العلم حتى لا يكون لغيره فيه نصيب، أو جعل علمه لأهل الشرف والسعة واليسار، حكراً عليهم، فلا يرى لغيرهم فيه حاجة، وقد يستفزه الزهو والعجب فلا يقبل مراجعة أحد له، أو الرجوع عن خطأ وقع فيه، أو يأنف من عدم متابعة الناس له، ومشيهم خلفه، وفي الحديث «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[2]. وهذا شأن كل من رأى لنفسه قيمة يستعلي بها على غيره، وكل من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وتعزز العالم بعلمه ضرب من استشعاره بقيمته، واستعظام نفسه، وهو عين الهلاك لما فيه من الكبر.

قال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

وقال غيره: النفس معجونة بماء الكبر والحرص والحسد، فمن

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٦٩.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١١٧، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٤٧.

أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة[1].

والتواضع: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته، ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه[2].

وعن يحيى بن معاذ قال: لا تسكن الحكمة قلباً فيه ثلاث خصال: هم الرزق، وحسد الخلق، وحب الجاه.

وكان من السلف من يقول: يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

فتواضع لمن جاءك متعلماً؛ وتأمل هذه الحكم وحققها، وانظر قدر المبالغة في الحساسية حين يقول أيوب[3] ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عز وجل[4].

ودع عنك التعزز بالعلم فهو من ثمار الإعجاب بالنفس، الذي هو قرين الكبر. وبالغ في التواضع، فمنفعتك كعالم أعظم من منفعة المتعلم، وثوابك على التعليم أعظم من ثواب المتعلم، واعلم أن الذي أكرمك بالعلم قد عرف قدرك، وأنه كذلك ما لم تر لنفسه قيمة، فمتى رأيت لنفسك قيمة، فلا قيمة لك عنده.

وتأمل صنيع حكيم الأمة فقد كان لا يحدث بحديث إلا إذا

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٤٣.

(٣) أيوب بن أبي تميمة السختياني ـ الإمام سيد الحفاظ (٦٨ ـ ١٣١هـ) من أقواله: ما صدق عبد قط فأحب الشهرة، وقيل له: مالك لا تنظر في هذا؟ يعني الرأي: فقال: قيل للحمار ألا تجتر؟ فقال: أكره مضغ الباطل ـ طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤٦، الكاشف ١/ ٩٢، تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠، سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥، تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٧، شذرات الذهب ١/ ١٨١.

(٤) أخلاق العلماء / ٧ ـ جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٤٢.

تبسم، مبالغة في التلطف والإيناس وتذويب وحشة المتعلم. حتى خافت أم الدرداء عليه[1] وقالت: إني أخاف أن يحمقك الناس. قال: «كان رسول الله ﷺ لا يحدث بحديث إلا إذا تبسم»[2].

إلا أن أكثر الخلق عن هذا غافلون، عاشقون للعبوس والتضجر؟.

ولما ضجر أبو العباس أحمد بن يحيى[3] قال له شيخ من الظاهرية: لو علمت مالك من الأجر في إفادة الناس العلم لصبرت على أذاهم. فقال: لولا ذاك ما تعذبت[4].

والعالم والمتعلم شريكان في الأجر، كما أن المتعلم وصية رسول الله ﷺ[5]. فحافظ عليها واعمل على صيانتها.

---

(١) أم الدرداء: هجيمة وقيل جهينة الأوصابية الدمشقية، ثقة فقيهة (ت٨١هـ) تقريب التهذيب ٢/ ٦٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/١٩٩، وفيه بقية، مدلس، وقد عنعن، وحبيب بن عمر، ضعيف ـ وهو في سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥١.

(٣) عالم اللغة، أحمد بن يحيى بن زيد سيار، المعروف بثعلب إمام في النحو واللغة (٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ) قال الذهبي: كان لا يتفاصح في خطابه ويزري على نفسه ولا يعد نفسه. وفيات الأعيان ١/١٠٢، تذكرة الحفاظ ٢/٦٦٦، سير أعلام النبلاء ١٤/٥، تاريخ بغداد ٥/٢٠٤.

(٤) تاريخ بغداد ٥/ ٢١٠.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣٠.

دروس

١ ـ خطورة الاستعلاء على الناس بأمر ديني، مناقض للدين، وفتنة، لما في ذلك من صد عن الدين، وإضلال للمسلمين، ووضع للعلم في غير موضعه، واقتضاء الثواب عليه من غير محله. وقد شبهوا من يقع في هذا بمن مسح أسفل نعله بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادماً، والخادم مخدوماً. وهذا هو الانتكاس على أم الرأس.

٢ ـ التسامي ورفع السعر والتعالي، وطلب العلو والمنزلة، ومحبة إخضاع الناس، شهوة وفتنه، لا تقل خطراً عن شهوات وفتن الدنيا بأسرها، من مال وولد. . . فكلها أمور تتولد عن الكبر والإعجاب بالنفس، ومن كان كذلك فهو فتنة لكل مفتون، ولا مجال له بين المخلصين، ولا حق له في منصب قيادى أو عمل ريادي.

أورد ابن حجر عند ترجمة أبي عبيد المذحجي[(١)] أحد الثقات المأمونين، وأحد شيوخ الإمام مالك بن أنس، وطبقته ـ وممن قال فيه أحدهم: لم أر أحداً قط أعمل بالعلم من أبي عبيد، مع هذا فإنه لما ولى عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، سأل أين أبو عبيد؟ فدنا منه فقال: هذه الطريق إلى فلسطين وأنت من أهلها فالحق بها.

فقيل له يا أمير المؤمنين لو رأيت أبا عبيد وتشميره للخير؟ فقال: ذاك أحق إلا نفتنه، كانت فيه أبهة للعامة.

---

(١) أبو عبيد المذحجي، صاحب سليمان بن عبد الملك، وشيخ مالك والأوزاعي. تهذيب التهذيب ١٢/١٥٨.

نوع غرور وعجب واعتزاز بالنفس. فانظر حساسية أمير المؤمنين ووعيه وشفقته على أحد رعاياه إذ لم يتركه فريسة للفتنة. وأي فتنة تلك؟ فتنة ابتلاء العامة بعمل الخاصة. فتنة الإعجاب بالنفس والرضى عنها، فتنة الصولة. فتنة تمكن الشيطان وظفره بابن آدم. وأي فتنة أعظم من أن يتمكن منه الشيطان. وهي تتوالد وتتتابع، تغري القلب فيتورط فينزلق ويدلف إلى الهاوية.

وقد كان لدى الأمير مندوحة إن هو تركه، إلا أنه لم يعن شيطانه عليه.

إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال قال لا أطلب غيرها! إعجابه بنفسه، استكثاره لعمله، نسيانه لذنوبه.

فالزهو والعجب على هذا أصل من أصول البلاء والفتنة. ثم إنه يمحق بركة العبادة.

«كم من سراج أطفأته الريح، وكم من عبادة قد أفسدها العجب».

فحرر القصد وأخلص النية، وامتحن قلبك دائماً وعالج نفسك بإخراجها من ظلمات العجب، فإن النفس معجونة بمائه، ميالة إليه، تستحلي رؤية الناس لها وربما مالت إلى حب فرحها بذلك فخسرت الدنيا والآخرة، ويا خسارة تعب ليس وراءه أرب، ويا خسارة تعب في تحصيل علم بلا عمل يقوده إخلاص وهضم نفس.

لذلك لا تعجب إذا أسقط العلماء الصحبة عن كل من تسرب العجب إلى نفسه، ورفعوا عنه صفة العلم، وقالوا: ولئن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عنها، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عنها وعدوا من الأمور التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع. والبلاء الذي لا يرحم عليه صاحبه العجب.

وقالوا: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه[1].

٣ ـ دعوة الناس إلى الخير وحملهم عليه.

وهي مرتبة ثانية ـ فلا أجل من العمل بالعلم، فإذا لم تعمل فادع غيرك لأن يعمل، رغّب الناس في العمل بمقتضى علمك، والتواصي بحقه بين الأفراد والجماعات. وذلك من سبل الإبقاء عليه لينشر ظلاله ويؤتى ثماره. فإذا حرم العالم أجر العمل، فلا يحرم أجر الدلالة عليه، «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[2].

والدعوة إلى الخير من ألوان العمل بالعلم، إذ لولا العمل ما عرف ولا اهتدى أحد إلى أن الدعوة باب من أبواب العلم، وهذه واحدة من بركات العلم. نفعه على كل حال، فانتفع به في الثانية إن فاتتك الأولى، فإن جمعت بينهما فالخير في اجتماعهما.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٤٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة ٣/ ١٥٠٦، وأبو داود في سننه كتاب الأدب ٤/ ٣٣٣. والترمذي في سننه كتاب العلم ٥/ ٤١، وأحمد في مسنده ٤/ ١٢٠، ٥/ ٢٧٤، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٦، كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري.

من غوائل العلم

١ ـ التفقه لغير العمل

لا شيء أعظم برهاناً على صدق آية قضية من القضايا أجل من العمل بمقتضاها، وتحقيقها، وتطبيقها.

فالعمل دعوة بلغة الحال. وهي أعظم تأثيراً. ولا شيء أدعى إلى الإيمان بأمر من الأمور أفضل من العمل به، وإلا فكيف نقنع غيرنا بشيء لا تستجيب نفوسنا إليه؟

والجانب الجدير بالتأمل هنا قضية العجز عن العمل، وهو أمر يدل على انعدام الربط بين الفكرة المركوزة في العلم، وبين ما يترتب عليها من سلوكيات. فكثيراً ما تجد بتراً بين الفكرة وما تدعو إليه. فإما فكرة لا تطبق، وإما تطبيق غريب لا يستند إلى فكرة، مما أدى إلى الجمود والمظهرية وعدم فاعلية العلم.

إن سلوك الإنسان وتصرفاته خاضع وتابع لما يحمله، بغض النظر عن الصواب والخطأ، فنتائج الأعمال تابعة ولا بد لهذه الأفكار، وتصرفات المرء إفراز لما بداخله.

فإذا حدث خلل في التصور، تبعه ولا بد خلل في السلوك، ونجاح المرء في عمل ما مرهون بقناعته أولاً بصوابية الفكر من ناحية، وبالنتائج المترتبة عليه من ناحية أخرى، إذاً هي قضية الإيمان والاعتقاد الحق أولاً، متى رسخت في الداخل أعلنت عن وجودها في الخارج. والمؤسف حقاً أن كثيراً من الأعمال تعيقها حواجز وأسوار وهمية توقف حركتها وتقدمها.

فهل يمكن أن يكون واضحاً حقيقة الفصل بين المنهج والتطبيق؟ العلم الشرعي بتفاصيل الإسلام منهج، قاعدة، قانون. العلماء صورة، مثال هذا المنهج، أو هكذا يجب أن يكونوا معبرين عنه فعلاً وسلوكاً.

ذلك أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول. ومن ثمّ قالوا: اصحب من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله.

وما هذا إلا لأن أزمّة الناس معقودة بنواصي العلماء، من هنا وجب أن تظهر بهجة العلم ونور العلم عليهم، فالعالم يحسب على علمه. كما أن علمه يحسب عليه.

فألا تأدب العالم بأدب العلم، فعرف الحق ورحم الخلق، وانشغل بدلالتهم على الله سبحانه، وكلما ازداد علماً ازداد اشفاقاً وعملاً. فالشفقة وليدة العلم، ومن ثمّ كان أرحم الأمة بالأمة بعد نبيها ﷺ، أبو بكر رضي الله عنه[1] لأنه الأكثر علماً.

قال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[2] وكان رضي الله عنه، أعلم الصحابة باتفاقهم، فجمع الله له سعة العلم والرحمة.

ولا زال الإسلام والعلم يهتفان بك، إن كنت تحب القرب من الله، فاشتغل بدعوة عباده رحمة بنفسك. فأي رحمة في علم إذا لم يرحم عالم بعلمه نفسه؟

ومعرفة الحق والشفقة على الخلق نهج الأنبياء والصالحين وسلف الأمة حين آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد لعلمهم أن ذلك آثر إلى حبيبهم، فاشتغل بما اشتغلوا به في حياتك يكفك بعد مماتك. وتأمل هذه الوصية.. إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عباده، ولا

---

(١) صديق الأمة عبد الله بن أبي قحافة، أفضل الأمة، وأول من احتاط في قبول الأخبار (ت ١٣ هـ) تذكرة الحفاظ ١/٢ ـ شذرات الذهب ١/٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٢٨١ من حديث أنس رضي الله عنه.

يكن همك أن تحدث به»[1]

ما زال العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. ارتحال روح وبركة وجوهر

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غير فيها شيء قيل قد غيرت السنة، قيل: متى ذاك يا أبا عبد الرحمن! قال: إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير العمل[2]..

التفقه لغير العمل إذاً من غوائل العلم، فللعلم غوائل، ومن غوائله أن يترك العمل به، وهو من أبواب الفتن وعوامل هدم الإسلام، لذا كان الأئمة يستعيذون بالله من عالم فاجر، ويأمرون بذلك، فابن المبارك يوصي قائلاً: تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[3]

فالعالم الفاجر يغري الناس بعلمه ويضرهم بفجوره، والعابد الجاهل كذلك، قصم ظهري رجلان، عالم متهتك، وجاهل متنسك.

وعن زياد بن حدير[4] قال قال لي عمر هل تعرف ما يهدم الإسلام. قال: قلت لا؟ قال يهدم الإسلام، زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين[5].

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين،

---

(١) حلية الأولياء ٣/٣ من كلام أبي قلابة لأيوب السختياني رضي الله عنهما، وانظر جامع بيان العلم وفضله ١/١٨٨، ٢/١٠.

(٢) انظر سنن الدارمي ١/٦٤ والعزلة للخطابي /٢١١، جامع بيان العلم وفضله ١/١٨٨.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/١٩٢، وهو منسوب لابن عيينة أيضاً كما في إغاثة اللهفان ١/٢٢٩.

(٤) زياد بن حدير الأسدي، ثقة له ذكر في الصحيح، تهذيب التهذيب ٣/٣٦١.

(٥) سنن الدارمي ١/٧١.

عالم فاجر، أغرى الناس بعلمه، وفتنهم بفجوره. فالعالم إذا زل زل بزلته عالم كثير، كما أثر عن المسيح عليه السلام وقد سئل من أشد الناس فتنة؟ قال: «زلة العالم إذا زل العالم زل بزلته عالم كثير»[١].

والعالم إذا ترخص وقع العامة في المباح، وما ذاك إلا لأن قدره عند الله عظيم، والناس يقلدونه.

وإذا ترخص فوقع في المباح، وقع الناس في الحرام. فهو سفينة إذا نجا، نجا بنجاته خلق كثير. وهو إمام منظور.

وصف الليث بن سعد[٢] بأنه فقيه البدن، وقد حكى عن نفسه أنه كان بالمدينة فأراد أن يترخص في أمر ينافي العزيمة فقال له يحيى بن سعيد[٣]: لا تفعل فإنك إمام منظور إليك[٤] ومرد هذا كله إلى أن أعنة الخلق معقودة بنواصي العلماء، فالحسن عند الناس ما يستحسنه العلماء، والقبيح عندهم ما يتركونه، لا ما يقولون للناس إنه قبيح.

والعالم المفتون مسلوب الكرامة والفضيلة، لا نصيب له في فضيلة أهل العلم، لأنها إنما تلحق العامل بعلمه المتنفع به، ومن لم يكن كذلك فالأمر كما قال أيوب السختياني: لا خبيث أخبث من

---

(١) الزهد لابن المبارك / ٥٢٠.

(٢) الليث بن سعد، عالم الديار المصرية (١٢٤ ـ ١٧٥هـ) كان يقول: بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط، وقال: أبو داود قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت علي زكاة قط: طبقات ابن سعد ٧/٥١٧، تاريخ بغداد ١٣/٣، وفيات الأعيان ٤/١٣٧، سير أعلام النبلاء ٨/١٣٦، ميزان الاعتدال ٣/٤٢٣، تذكرة الحفاظ ١/٢٢٤، تهذيب التهذيب ٨/٤٥٩.

(٣) يحيى بن سعد الأنصاري أحد أعلام الحديث (ت ١٤٣ هـ) تاريخ بغداد ١٤/١٠١، تهذيب التهذيب ١١/٢٢١ ـ سير أعلام النبلاء ٥/٤٦٨.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/١٥٤، تهذيب التهذيب ٨/ ٤٦٣.

قارىء فاجر[1].

فاعرف كيف تسلب الفضيلة من كل من علم ولم يعمل؟ وتأمل ما قاله ابن عيينة، إذا كان نهاري نهار سفيه وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت[2]؟

ولذلك فمن لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب، ومن وعظ أخاً بفعله كان هادياً، ومن لم ينعشك عبيره على بعد فلا تتكلف لشمه لأنه لا طيب فيه[3].

ومع سلب الفضيلة، فهو فاسد الفقه، شائه الصورة. فالفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق بالمال وحظ الدنيا هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه[4].

أورد الدارمي[5] بسنده إلى عمران المنقري[6] قال: قلت للحسن يوماً في شيء قاله: يا أبا سعيد ليس هكذا يقول الفقهاء، قال ويحك ورأيت أنت فقيها قط!

إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه المداوم على عبادة ربه.

---

(١) حلية الأولياء ٣/١١، سير أعلام النبلاء ٦/١٧.

(٢) أخلاق العلماء /٧٢.

(٣) المنطلق للراشد /٢٥٨.

(٤) وحي القلم ٢/٢٠١.

(٥) الدارمي: الإمام الحافظ صاحب السنن عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، أحد الأعلام (ت ٢٥٥ هـ) الجرح والتعديل ٥/٩٩ ـ تاريخ بغداد ١٠/٢٩ ـ طبقات الحنابلة ١/١٨٨.

(٦) عمران المنقري ـ عمران بن ميسرة أبو الحسن البصري (ت ٢١٣ هـ) تهذيب التهذيب ٨/١٤٢.

وعن علي رضي الله عنه قال: الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله[1].

أرأيت، ولا يرخص لهم في معاصي الله؟

والنجاة غدا لمن كان هذا شأنه، علم وعمل بما علم - والويل لمن علم ولم يعمل بما علم، أو علم وعمل بخلاف ما علم.

قال أبو الدرداء: إن أخوف ما أخاف على نفسي أن يقال لي يا أبا الدرداء علمت، فكيف عملت بما علمت؟

ويل لمن لا يعلم ولا يعمل مرة، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات[2].

وكان بعض الحكماء يقول: لولا العقل لم يكن علم، ولولا العلم لم يكن عمل، ولأن أدع الحق جهلاً به، خير من أن أدعه زهداً فيه.

ولما تفشى القول وانتشر نظراً لسهولته وخفته ومرونة آلته، وأتقن الناس فيه وأجادوا، تخوف عمر رضي الله عنه، من تقهقر العمل أمام طلاقة اللسان. فقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً! قال: عليم اللسان، منافق القلب.

وعن الحسن: لا تكن ممن جمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، ويجري في الدنيا مجرى السفهاء.

وعن ابن مسعود قال: إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٨٩.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٦٣.

فعله قوله، فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه[1].

فأصب حظك ولا تكن ممن يوبخ نفسه فما أخصب الألسن وأجدب القلوب، وما أعذب القول وأملح العمل. أصب حظك وأتبع القول العمل، ولا تكن ممن يلعنه القول فلرب سكوت أفضل من قول، فكم من مستغفر ممقوت وساكت مرحوم، يقول هذا استغفر الله وقلبه فاجر، وهذا ساكت وقلبه ذاكر.

ورحم الله ابن السماك[2] إذ يقول: كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله، وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله، وكم من داع إلى الله فارٍ من الله، وكم من تالٍ لكتاب الله منسلخ عن آيات الله.

وعن إبراهيم بن أدهم، لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن، ولحنّا في أعمالنا فلم نعرب[3].

ومتى دخل الإعراب خرج الخشوع.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٦٠٤.

(٢) ابن السماك الواعظ القدوة الزاهد، أبو العباس محمد بن صبيح (ت ١٨٣ هـ) وهو القائل: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع ضر - حلية الأولياء ٨/ ٢٠٣، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠١، وميزان الاعتدال ٣/ ٥٨٤، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٨.

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٦٣.

العلم يصحح النية ويقود إلى الله

مع العجز عن تصحيح النية فإن تحصيل العلم أفضل من تركه، والاستمساك بالشكل والحفاظ عليه إلى أن نرزق الحقيقة أولى من إهماله، فإنه يرجى مع ذلك أن يصحح العلم النية. فكما أن النية تصحح العلم. فإن العلم يصحح النية، وهذا في حق من كان قريباً من الله.

قال سفيان: منذ أربعين سنة ما كان طلب الحديث أفضل منه اليوم، قالوا لسفيان: إنهم يطلبونه بغير نية قال: طلبهم إياه نية. إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله، طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله بعد فيه النية، كنا نطلب العلم للدنيا، فجرنا إلى الآخرة.

لقد طلب أقوام العلم وما أرادوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده.

هذه نقول ثابتة عن الأئمة: الثوري، وابن عيينة، والحسن، وغيرهم[١].

وأخيراً فكما قالوا: اعتبر الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسناً فرويدا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم ونعمة عين فآخه وأحببه وواده، وإن خالف قولاً وعملاً فماذا يشبه عليك منه! إياك وإياه لا يخدعنك[٢].

---

(١) سنن الدارمي ١٠٢/١، جامع بيان العلم وفضله ٢٢/٢.

(٢) الموافقات للشاطبي ٦٥/١.

صفات من علمه حجة عليه

أن يطلب من العلم ما أسرع إليه هواه، فيكون مراده كثرة المعارف، وأنه من طلاب العلم فيشيع ذلك ويظهر، وكل علم شرف به صاحبه عند المخلوقين حث إليه وسارع نحوه، وكل علم وجب عليه فيما بينه وبين الله ثقل عليه وهان عنده ورفض الوصول إليه وتركه. ينفق علمه رياءً ومناظرة، ومراده في مناظرته أن يعرف بالبلاغة، فهو دائماً يسره ما يسر الشيطان.

همته في العلم منافع دنيوية، يرجو ثواب علم ما لم يعلم، ويحب أن يحمد بما لم يفعل، ولا يخاف سوء العاقبة والحساب عند تخلف العمل.

ينطق بالحكمة ليظن أنه من أهلها، ولا يخاف عظم الحجة عليه لتركه استعمالها.

يتشبث بنصر الخطأ لئلا تسقط مرتبته عند المخلوقين، يتواضع بعلمه للملوك وأبناء الدنيا لينال حظه منهم بتأويل يقيمه، ويتكبر على من لا دنيا له من المستورين والفقراء.

يعد نفسه من العلماء، وأعماله أعمال سفهاء، قد فتنه حب الدنيا والثناء والشرف والمنزلة[١].

وهذا كلام نفيس من تأمله غاية التأمل انتفع به غاية النفع، وعلم

---

(١) أخلاق العلماء/٩٧، ١٠٠.

أن كل من كان قصده من العلم التلذذ بجاه الإفادة، والتنعم بالدنيا، وطلب المنزلة عند أهلها، يعلم ولا يعمل. فقيه اللسان، يتحرك بجوارحه، معطل لقلبه، يتباهى بعلمه ويماري به، يحب صرف وجوه الناس إليه، يمن بعلمه على المتعلمين، ولا يرى لهم فضلاً أن مكنوه من تعليمهم وهذبوا نفوسهم تقرباً إلى الله تعالى. ولولا المتعلم ما نال العالم أجراً.

من كان كذلك فهو محدود الحظ والثواب، مسلوب الفضيلة والحكمة. فلا تكن مخزناً للعلم أو مقتصراً به على أهل الشرف، أو متخذه ذكراً في الناس، أو ممن استفزه الزهو والعجب... فتندم.

٢ ـ التلطخ بشيء من أمر السلطان.

ليس للملوك صديق.

كما أن حرص المرء على الشرف والدنيا مفسد لدينه، فإن مما يدخل في ذلك دخولاً أولياً، الدنو من الأمراء والسلاطين والدخول عليهم، فإنه باب عظيم من أبواب الفتن للناس عامة، وللعلماء خاصة.

يدلك على هذا قول النبي ﷺ: «من أتى السلاطين أفتتن»[(١)].

«وما ازداد أحد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعداً»[(٢)].

هكذا بإطلاق ودون تقييد، فتأمل هذا وانتبه إليه جيداً، واعلم أنه بمقدار قربك من السلطان يكون بعدك عن الله، وأي كسب أو غنى، أو عز أو جاه في البعد عن الله؟.

والمشاهدات والتجارب دالة على ذلك، فكيف يعد نفسه من زمرة العلماء من آثر شهوته على محبة الله؟ بل كيف يعد عاقلاً؟

فتحرز وفر بدينك.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٣/١١١ والترمذي في سننه ٤/٥٢٣ وقال: حسن صحيح غريب، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٧١، ٣٥٧. والنسائي في سننه ٧/ ١٩٥، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٧٢، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٣٧١ من حديث أبي هريرة، وأبو داود في سننه ٣/ ١١١.

فإذا ما زيَّن العالم لنفسه الأمر بالحفاظ على العلم والدين أن يثلما، فلا يجد حرجاً من ارتياد باب السلطان، فبم يرد عليه؟

وعند التأمل في السنة النبوية نقف على الرد. ودقة تشبيه النبي ﷺ، وبيان ما يعود به من فعل ذلك.

قال ﷺ: «إن ناساً من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن، ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك! كما لا يجتنى من القتاد[1] إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا»[2].

خطايا هنا، وفتنة، وبعد من الله؟!

وتأمل ما قاله أبو حازم[3] وقد أرسل إليه أحد الأمراء، وعنده الزهري والإفريقي[4] وغيرهما. فقال: تكلم يا أبا حازم. فقال أبو حازم: إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء.

وقال رضي الله عنه: لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد، ولا يعوّر ما بينه وبين الله إلا عور فيما بينه وبين العباد.

---

(١) القتاد: نبات صلب له شوك كالأبر ـ المعجم الوسيط ٢/ ٧١٤.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ١/ ٩٣ من حديث ابن عباس، قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف، وقال المنذري: جميع رواته ثقات، مصباح الزجاجة ١/ ٨٣.

(٣) أبو حازم: سلمة بن دينار (ت١٤٠ هـ)، من أقواله: نعمة الله فيما زوى عنك من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاك منها، لأني رأيته أعطاها قوماً فهلكوا، حلية الأولياء ٣/ ٢٢٩، سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٣، تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٣.

(٤) الأفريقي: عبد الرحمن بن زياد، شيخ الإسلام، الإمام القدوة (ت ١٥٦ هـ) الجرح والتعديل ٥/ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٦/ ٤١١، ميزان الاعتدال ٢/ ١٥١، تهذيب التهذيب ٦/ ١٧٣.

لمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت ما بينه شنئتك[1] الوجوه كلها[2].

وقد تزين للإنسان نفسه ويبرر المخالطة بالقيام بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وله في بعض من تقدم أسوة، فقد خالط نفر من السلف الأمراء وداخلوهم لهذا الأمر.

والحق فإن جملة كبيرة من العلماء قد منعوا من ذلك ونهوا عنه. ومنهم يونس بن عبيد[3] إذ قال: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلون أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء[4].

فانظر وجه الجميع بين سلطان، وامرأة، وصاحب هوى.

وعن ابن المبارك قال: ليس الآمر والناهي عندنا من دخل عليهم. فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر والناهي من اعتزلهم[5].

وعدوا من يغشى مجالسهم من اللصوص، وفي ذلك قالوا: إذ رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص.

وما ذاك إلا لكون مجالسهم مظان للخطر. وخاصية العالم الخوف والخشية من الله، وخاصية الخشية البعد عن مظان الخطر.

---

(١) شنئتك: أبغضك، انظر مادة شنأ، ترتيب القاموس المحيط ٢/٧٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٠.
(٣) يونس بن عبيد بن دينار الإمام القدوة الحجة (ت ١٤٠ هـ) كان يقول: كل من لم يخش أن يكون في النار، فهو مغرور قد أمن مكر الله به - طبقات ابن سعد ٧/ ٢٦٠، حلية الأولياء ٣/ ١٥، سير أعلام النبلاء ٦/٢٨٨، تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٥، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٢، شذرات الذهب ١/ ٢٠٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣، حلية الأولياء ٣/ ٢٠.
(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٧٩.

ثم تكون النهاية كما قال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك.

وهي نتيجة حتمية فرضتها تداعيات سابقة، منها ما عبر به حذيفة بن اليمان لما قال: إياكم ومواقف الفتن، قيل وما هي؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب يقول فيه ما ليس فيه.

وعدها ابن عمر نفاقاً يوم قالوا له: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم؟ قال: كنا نعدها نفاقا[١]...

وعند ابن مسعود من امتهان الدين، فقد قال: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلون بالنسوان، ولا يخاصمن أصحاب الأهواء[٢].

وعن الأوزاعي[٣] قال: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً.

وفي ذلك من الفتن ما لا يخفى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام: باب ما يكره من ثناء السلطان ٩/ ٨٩.

(٢) سنن الدارمي ١/ ٩٠.

(٣) الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو، عالم أهل الشام، ولد في حياة الصحابة سنة (٨٨ ـ ١٥٧ هـ) وكان كبير الشأن. من أقواله: من أكثر ذكر الموت، كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله، قل عمله ـ وقال: من أطال قيام الليل هون الله عليه وقوف يوم القيامة ـ وقال لابنه: يا بني لو كنا نقبل من الناس كل ما يعرضون علينا، لأوشك أن نهون عليهم. طبقات ابن سعد ٧/ ٤٨٨، حلية الأولياء ٦/ ١٣٥، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٧، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ١٠٧، ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٠، تهذيب التهذيب ٦/ ٢٣٨.

التصديق بالكذب.

الإعانة على الظلم، والسكوت عن المنكر.

تحسين القبيح.

النفاق وكفى بها فتنة.

التكلف في استمالة قلوبهم.

وبالجملة فمخالطتهم مفتاح لكل شر.

قال الحسن: كان فيمن قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله ﷺ، قال عبد الله بن المبارك: عني به سعد بن أبي وقاص[1] رضي الله عنه، قال: وكان لا يغشى السلاطين وينفر عنهم، فقال بنوه: يأتي هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام؟ فلو أتيتهم؟ فقال: يا بني آتى جيفة قد أحاط بها قوم، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها، قالوا يا أبانا أذن نهلك هزالاً، قال: يا بني لأن أموت مهزولاً أحب إلي من أن أموت منافقاً سميناً، قال الحسن: خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان[2].

فالداخل عليهم لا يسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلهم

---

(١) سعد بن أبي وقاص ـ مالك بن أهيب ـ الأمير أحد العشرة، ومن السابقين الأولين، (ت ٥٦ هـ) حلية الأولياء ١/ ٩٢، تاريخ بغداد ١/ ١٤٤، سير أعلام النبلاء ١/ ٩٢، تهذيب التهذيب ٣/ ٤٨٣، شذرات الذهب ١/ ٦١.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٦٩.

ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض»[1].

فانظر نتائج المداخلة وما يترتب عليها وعلى المخالطة. ولا شك أن وقعها شديد خطير يوم القيامة. فوجب التباعد عن مظان الخطر.

ولربما كان في المخالطة كسب دنيوي من جاه ومنزلة وذكر وشرف، وتحقيق أغراض دنيوية، لا سيما إذا بادلوه لطفاً بلطف وأكرموه.

والثابت المقطوع به ما عبر عنه أبو ذر[2] لسلمة، لا تغشى أبواب السلاطين، فإنك لا تصيب من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

فهي مقاصة ظالمة مجحفة. فتأمل هذا وتداركه.

قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ ٦٨/ ٩.

مساومة وتنازلات، والعمل على الالتقاء منتصف الطريق والبحث عن أنصاف الحلول. والمخالط لا يخلو من مساومة وتنازل.

وقد قيل من تواضع لغني ـ مجرد غني ليس بظالم ـ لأجل غناه لا لمعنى آخر، نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع لظالم!

من علم فساداً في موضع، وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك على يديه وهو يشاهده ويسكت بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته. فلا عذر لأحد بارتياد مواطن الفساد

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٥٢٥ وقال: هذا حديث صحيح غريب، والنسائي في سننه ٧/ ١٦٠، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٢٤، ٣٢١، ٣٩٩ ـ وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ١/ ٢٥٢، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٤٩، البيهقي في سننه ٨/ ١٦٥.

(٢) أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة ـ من نجباء الصحابة وأحد السابقين الأولين. (ت ٣٢ هـ) ـ حلية الأولياء ١/ ١٥٦، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦. تهذيب التهذيب ١٢/ ٩٠.

طالما أمكنه الابتعاد فكيف بمن حضر ودعا وتلطف وأثنى وعزز وصدق واستبشر للقاء.

قال فرقد السبخي[١] إن ملوك بني إسرائيل كانوا يقتلون قراءهم على الدين، وإن ملوككم إنما يقتلونكم على الدنيا فدعوهم والدنيا[٢].

وهو شبيه بقول أبي ذر لسلمة، وبقول ابن مسعود: إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل والذي نفسي بيده، ولا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله.

وعن الحسن: لا تجيئن أميراً وإن دعاك لتقرأ عنده سورة من القرآن، فإنك لا تخرج من عنده إلا شراً مما دخلت[٣].

في هذه النقول وغيرها كثير، دلالات من تأملها غاية التأمل انتفع بها غاية النفع. وعلم دلائلها وما ترمي إليه.

كما فيها بيان أثر المخالطة وما فيها من فتن وأخطار. وأن السلامة تركها، لا سيما للظلمة منهم.

ذلك أن المخالط لهم معرض لأن يعصي الله إما بتعاطي مثل أعمالهم، أو بسكوته عن ظلمهم، أو بتزيين المنكر لهم بالقول وبالفعل.

قال أبو سليمان[٤]: ليت شعري من الذي يدخل إليهم فلا

---

(١) فرقد السبخي البصري، حدث عن أنس وجماعة (ت ١٣١ هـ) ـ حلية الأولياء ٣/ ٤٤، شذرات الذهب ١/ ١٨١.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٤٦.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٤٦.

(٤) أبو سليمان: حمد بن سليمان الخطابي (٣١٩ ـ ٣٨٨ هـ) الإمام العلامة، الحافظ اللغوي البارع، له شعر هو سحر. وحكم في غاية الفصاحة، وتصانيف مفيدة، معجم البلدان ١/ ٤١٥، اللباب ١/ ١٥١، وفيات الأعيان ٢/ ٢١٤، تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠١٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣، طبقات الحفاظ/ ٤٠٣، شذرات الذهب ٣/ ١٢٧.

يصدقهم بكذبهم؟ ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم؟ ومن الذي ينصح؟ ومن الذي ينتصح منهم؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تقل مخالطتهم وغشيان أبوابهم، وتسأل الله الغنى عنهم، والتوفيق لهم[(١)].

هذا وغيره كما هو مفسد للعلماء مفسد ولا بد للأمراء، وفيه هلاك الصنفين معاً بإحداث الفتنة في النفس، والإعجاب والاغترار، والاعتزاز بالرأي، نظراً لكثرة ما يسمعون من ثناء عليهم وتصديق بكذبهم، والمسارعة في تلبية رغباتهم بالحق والباطل.

قال يحيى بن أكثم[(٢)]: والله لقد ولى الحجاج[(٣)] وما عربي أحسن أدباً منه. فطالت ولايته، فكان لا يسمع إلا ما يحب، فمات وإنه لأحمق سيء الأدب[(٤)].

فانظر كيفية هذا التحول البشع، وكيف تغير هذا التغير الكبير! فهل تجد سبباً سوى طول الولاية، واعتياد أذنيه على أن تسمعا فقط الذي تحب، وهل كان يقبل غير هذا!

وانظر أثر المخالطة والمداراة والمصانعة. وهذا كله لا يقف عند حد الأمير إنما يتعداه إلى من جالسه وداهنه وحسب عليه.

ولقد اعتبرت السنة النبوية هذا نوع تحقير للنفس، قال ﷺ: «لا

---

(١) العزلة/٢٢٨.

(٢) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن ـ الفقيه العلامة (ت٢٤٢ هـ) تاريخ بغداد ١٤/ ١٩١، طبقات الحنابلة ١/ ٤١٠، وفيات الأعيان ٦/ ١٤٧، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥، ميزان الاعتدال ٤/ ٣٦١، تهذيب التهذيب ١١/ ١٧٩، شذرات الذهب ٢/ ٩١.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ) كان له في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها ـ وفيات الأعيان ٢/ ٢٩.

(٤) العزلة / ٢٣٤.

يحقرن أحدكم نفسه» قالوا يا رسول الله: كيف يحقر أحدناً نفسه؟ قال: «يرى أمر الله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول فإياي أحق أن تخشى»[1]!

وأفضل الجهاد كما هو ثابت في السنة «كلمة عدل عند سلطان جائر»[2].

وإنما كان هذا النمط من شجاعة الأدب زائداً على جهاد العدو، لأن من قاتل عدوه كان على أمل من الظفر به، ولا يتيقن العجز عنه، لانه لا يعلم يقيناً أنه مغلوب، وهذا يعلم أن يد سلطانه أقوى من يده، فصارت المثوبة فيه على قدر المؤونة[3].

فإن تمسك أحد واحتج بما ثبت عن بعض السلف من مخالطتهم للأمراء. أجيب بأن ما ثبت استثناء، والاستثناء لا يقلد، ولا يقتدى فيه بصاحبه، إذ لا أسوة في الشر، ولأنه انحراف عن القاعدة، ولا أسوة في انحراف. أو هي زيغة حكيم. فلنحذر الزيغة، ولا تصدنا عنه فنرد كل ما جاءنا به.

أو هفوة عالم هو فيها معذور.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء: لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لا يعرف وجهه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه. كتاب الفتن ٢/١٣٢٨، قال البوصيري: إسناده صحيح. رجاله ثقات، مصباح الزجاجة ٢/٢٩٨ ـ والبيهقي في السنن الكبرى ٩٠/١٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم ٤/١٢٤، والترمذي في سننه، كتاب الفتن ٤/٤٧١ وقال: حسن غريب، وابن ماجه في السنن ٢/١٣٢٩، والنسائي في سننه ٧/١٤٤.

(٣) العزلة /٢٢٨.

وهذا ثابت.

ورب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن تكون منه زلة، أفيجوز لأحد أن يحتج بها؟[1].

وهو أمر مجمع عليه بين العلماء.

ومن ألحت عليه نفسه وحملته على المخالطة اقتداء وتأسياً بنادرة من سلف، وجب عليه أن يعرف صنيعهم أولاً قبل أن يسلك مسلكهم، وحتى لا يقتدى بهم في أمر دون أمر.

والعلماء على جواز الدخول على الأمراء بشرطين:

الأول: أن يكون من جهتهم أمر إلزام، لا أمر إكرام، ويعلم أنه إن امتنع أوذى أو فسد أمر الرعية، فالدخول والحالة هذه مأذون به، مراعاة للمصلحة.

الثاني: أن يعمل على دفع الظلم عن نفسه، أو غيره بشرط ألا يكذب، أو يثنى على ظالم.

بغير هذا فلا يجوز دخول أهل العلم عليهم، صونا للعلم وحفاظاً على الدين أن يثلم أو يكلم.

فسلامة العلم والدين في اعتزالهم، واعتزال المتصلين بهم.

وعدم التأسف على ما يفوت من زينة الدنيا والتنعم بها.

وتمثل بما قاله حكيم الأمة: أهل الدنيا يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون، ونلبس، ولهم فضول أموال ينظرون إليها، وننظر إليها معهم، وعليهم حسابها ونحن منها براء.

---

(١) انظر أعلام الموقعين ٣/ ٢٨٤.

أو بما قاله حاتم الأصم، لقمان الأمة[1]: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، فأما أمس فلا يجدون لذته، وإني وإياهم في غد لعلى وجل، وإنما هو اليوم، وما عسى أن يكون في اليوم؟.

(1) حاتم الأصم، أوحد من عرف بالزهد والتقلل والورع والتقشف. (ت ٢٣٧ هـ) من أقواله: لي أربع نسوة وتسع من الأولاد، فما طمع الشيطان أن يوسوس إلى في شيء من أرزاقهم. وقال: رأس الزهد الثقة بالله، ووسطه الصبر، وآخره الإخلاص ـ ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٦، حلية الأولياء ٨/ ٧٣، تاريخ بغداد ٨/ ٢٤١، شذرات الذهب ٢/ ٨٧.

فعاهد الله ألا يكلم الليث

تعجب وأنت تطالع كتب التراجم وما أكثرها، كم من فقيه، وإمام وعالم لغة وأديب، ومحدث، ومفسر، ممن لا يحصون كثرة، قد أريدوا على المنصب، فاحتالوا لأمر الخروج، وأظهروا الوحشة، وهربوا وربما آثروا السجن فراراً بالدين وأخذاً بمبدأ السلامة.

ومن قبل منهم عوتب، واعتبر البعض القبول حداً فاصلاً بين عهدين.

عهد السلامة، وعهد التلطخ.

بعد أن أفسد العالم نفسه بصحبة الأمراء والدنو منهم..

- من هؤلاء الذين عوتبوا الإمام الكبير محمد بن مسلم بن شهاب الزهري. وقد كان ممن يتردد على بني أمية، عاتبه أقرانه، وإن كان ابن شهاب في أمانته ودينه لا يجارى ولا مطعن فيه.

مع هذا فلما ذكر في مجلس مكحول[1] قال: أي رجل هو؟ لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك[2].

والزهري في أعلى مراتب التعديل، وفضله معروف، ومخالطته لبني أمية لم تكن إلا مخالطة العالم الذي لا يتردد عن المجابهة

---

(١) مكحول الدمشقي - عالم أهل الشام - (ت ١١٦ هـ) طبقات ابن سعد ٧/٤٥٣، طبقات الشيرازي/٧٥، وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٠، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٧، سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٥، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٩.

والمواجهة، وتقديم النصح حين يحتم الأمر تقديمه دون خوف، ومن مثل الزهري؟ وأين مثله وهو الثبت الحجة؟.

قال الذهبي[1] بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهري، لكونه كان مداخلاً للخلفاء. ولئن فعل فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهري رحمه الله[2]؟

ومع أن الخلفاء والأمراء كانوا وقافين عند حد النص من الكتاب والسنة متى ذكروا به تذكروا وثابوا إلى قواعدهم الربانية.

مع هذا فقد كتب أخ له يقول:

عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه محمد ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ٣/ ١٨٧ واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل البغي بدونك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، أتخذوك قطباً تدور عليك، رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلما يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويفسدون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك.

وفي هذا الخطاب ما فيه من إثارة الشفقة على العالم الكبير، ابن شهاب، ولم لا وقد حصل بالمداخلة:

---

(١) محمد بن أحمد الذهبي، مؤرخ الإسلام، وصاحب الإبداع والبصر الناقد والعقل الراجح ـ (ت٧٤٨ هـ) مقدمة سير أعلام النبلاء، الرسالة المستطرفة/ ٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٣٣٩.

مؤانسة وحشة الظالم، القرب ممن لم يؤد حقاً، أو يترك باطلاً.
إدخال الشك على العلماء.
إفساد قلوب الجهال.

وممن عوتب أيضاً ابن عيينة: قال عنه أحمد: دخل سفيان بن عيينة - يعني على أمير اليمن - ولم يكن سفيان تلطخ بعد بشيء من أمر السلطان، فجعل يعظه[1].

- ومنهم ابن العربي المالكي - نقل الذهبي أنه ولي القضاء فمحن، وجرى في أعراض الإمارة فلحن، وأصبح تتحرك بآثاره الألسنة، ويأتي بما أجراه عليه القدر النوم والسنة، وما أراد إلا خيراً، نصب السلطان عليه شباكه، وسكن الأوبار حراكه: فأبداه للناس صورة تذم، وسورة تتلى لكونه تعلق بأذيال الملك، ولم يجر مجرى العلماء في مجاهرة السلاطين وحزبهم، بل داهن، ثم انتقل معظماً مكرماً حتى حوّل إلى العداوة فقضى نحبه[2].

ولئن ترخص هؤلاء وتلطخوا، وتعلقوا بأذيال السلطان، فإن غيرهم قد تأبى على خطط الكيد والمكر، والمراجع لتراجم العلماء يرى عجباً. ومنهم الثوري، والليث بن سعد...

وتأمل. سئل الثوري عن ظالم في برية قد أشرف على الهلاك، هل يسقى شربة ماء؟ فقال لا دعه حتى يموت، فإن ذلك إعانة له، وإن قال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه، ثم يعرض عنه، وامتنع رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه، وقال: حتى أعلم ما تكتب بها[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٩.
(2) نفسه ٢٠/ ٢٠١.
(3) انظر الكثير من الأخبار والمواقف في طبقات ابن سعد ٦/ ٣٧١، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٦، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩، إحياء علوم الدين ٢/ ١٤٤.

وهدد الليث بن سعد بضرب العنق إن لم يقبل.

وقال له المنصور[1] تلي لي مصر قال فاستعفيت، قال: أما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده مصر، قلت: عثمان بن الحكم الجذامي[2] رجل له صلاح، وله عشيرة، قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله لا يكلم الليث[3].

٣ ـ المراء ساعة جهل العالم

ويتمم هذه النقائص ما يظهر بين العلماء من تحريش، واختلاف وبأس فيما بينهم، وجمود وجحود، ونقص في العلم الذي هو أشد خطراً من الجهل.

فصاحب العلم الناقص لا يدري بجهله خطورة الخلاف والتحزب والتعصب، والتفرق حول الشيء الواحد، والتعدد الذي ظاهره نصرة الحق، وباطنه اتباع الأهواء، وكل ما كان سبباً في إباحة الدماء والأموال والأعراض، وعرض الشر في معرض الخير وتلبيسه، وتمييز أمر ذلك على العامة صعب، وفيه غموض، وأكثر الخلق عنه جاهلون، قد أعرضوا عن أدلة الشرع ومصادره، فلم يأخذوها مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، بل قدموا آراءهم، ومن استبد به الرأي نازع وجادل، وقاده التنازع إلى البطالة وتطوير أسباب ومسائل الخلاف، والصد عن الحق، ثم تكون النتيجة أن يصل به الهوى إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية.

ومع النزاع والجدال تطل رؤوس الزعامة، وتتعدد مصادر القيادة، وجهات التوجيه.

---

(١) أبو جعفر المنصور (ت ١٥٨ هـ) شذرات الذهب ١/٢٤٤.
(٢) عثمان بن الحكم الجذامي (ت ١٦٣ هـ) أول من أدخل مسائل مالك إلى مصر ـ تقريب التهذيب ٢/٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/١٥٦.

وتأمل: فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الشح المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله، انتفى السبب الرئيسي للنزاع بينهم، مهما اختلفت وجهات النظر، فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، وإنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب هوى يصر عليه، مهما تبين له وجه الحق في غيرها، وإنما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء(١).

هذا شأن كل صاحب هوى قد غلبه هواه.

وأهل الأهواء هم أهل البدع والتفرق المخالفين للكتاب والسنة، حيث قبلوا ما أحبوه وردوا ما أبغضوه بغير هدى من الله..(٢).

وهذا من علامات السقوط، والتخلف عن الغير من ناحية، وعدم أخذ الأدلة الشرعية مأخذ الجد من ناحية.

كما أنه من علامات القيد والأسر والحبس. والذم. فالهوى أسر وقيد.

فوجبت مناقضته ومخالفته والبعد عنه والعمل بضد ما يأمر به، لأنه يقصر اهتمامات الإنسان ويجعل دورانه حول نفسه فقط، قبولاً ورداً، حباً وبغضاً.

ومن المنطقي أن يدفع ذلك صاحبه إلى توسيع دائرة الخلاف والمجادلة غير المنتجة. لأن كل واحد يناقش وهو مصفد بقيود العادات وإن كان لا يشعر، ويعتقد أنه أرفع قدراً أو أعلى قيمة من غيره ربما بحكم ما لديه من مواهب، أو بحكم فصاحة اللسان.

---

(١) في ظلال القرآن ١٠/١٥٢٨.

(٢) نقض المنطق/ ٥٤ ط السنة المحمدية.

ينظر إلى غيره بعين السخط والكراهية والتحقير، وهذا كما هو عين الظلم والبغي والاعتداء، هو كذلك سبب ظاهر في رد الحق ومدافعته، عناداً أو تحدياً.

والحامل على هذا كله إلحاح النفس بضرورة الانتصار وزعامة الباطل وحب الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ٤٥/٢٣.

أفرأيته؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجب؟ وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى، فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلٰهاً يطاع، وهذا يقتضي إضلال الله له والإملاء له في عماه.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾؟

والهدى هدىٰ الله، وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة، فذلك من شأن الله الذي لا يشاركه فيه أحد حتى رسله المختارون.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن تذكر صحا وتنبه، وتخلص من ربقة الهوى، وعاد إلى

النهج الثابت الواضح الذي لا يضل سالكوه[1].

وهذه نهاية حتمية لكل من اتخذ إلٰهه هواه.

وما في هذا ظلم فالجزاء من جنس العمل، وما هو من الإنسان عائد عليه ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ١٠/ ٢٣.

وكل هذه الآثار نتيجة تآكل الدين، ومظهر من مظاهره. وفي الحديث «دب إليكم داء الأمم، الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين»[2].

وإذا كان هذا حال علماء الأمة فماذا يكون حال غيرهم!.

ولا شك أن غيرهم سيكون أشد تضارباً واختلافاً ولا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافاً. ولما سمع عمر رضي الله عنه، أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما يختلفان، صعد المنبر وقال: رجلان من أصحاب النبي ﷺ، اختلفا فعن أي فتياكم يصدر المسلمون، لا أسمع اثنين اختلفا بعد هذا إلا صنعت وصنعت...[3].

* ولو أن العلماء إذا ما وصلوا إلى هذا المستوى، قد التزموا أدب الإسلام في مسائل الخلاف والاختلاف. فالتقطوا أطيب الكلام وأحسنه، كما أخبر ربنا في قوله ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ٢/ ٨٣، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ٢٢/ ٢٤.

---

(١) في ظلال القرآن ٢٥/ ٣٢٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٦٦٤، وأحمد في مسنده ١/ ١٦٤، من حديث الزبير، وعبد الرزاق في مصنفه من حديث يعيش بن الوليد ١٠/ ٣٨٥، والبغوي في شرح السنة ١٢/ ٢٥٩ ـ من حديث يعيش رفعه وفيه انقطاع، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٠ وعزاه إلى البزار وجود إسناده ـ انظر كشف الأستار ٢/ ٤١٩ ـ.

(٣) أعلام الموقعين ١/ ٢٥٩.

أو كما قال عمر رضي الله عنه: ولولا أني أجالس أقواماً يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط أحدكم طيب الثمر لأحببت أن أكون لحقت بربي..[١].

ولو أنهم عندما اختلفوا قد قبلوا الحق ممن جاء به مع الرضا والتسليم والمناصحة والرغبة في إظهار الحق: كما هو صنيع الشافعي[٢] يوم قال: ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يجري الله الحق على يديه دون حرص مني على مغالبته. ما ناظرت أحداً على الغلبة إلا على الحق عندي. ما ناظرت أحد إلا على النصيحة[٣]. لكان ذلك أجدى وأولى.

ذلك أن الواجب أن يجب المخالف صواب مناظره ويكره خطأه.

قال مالك: وكان القاسم[٤] قليل الحديث، قليل الفتيا، وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء، فيقول هو لك، فإن كان حقاً فهو لك فخذه ولا تحمدني فيه، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك[٥].

---

(١) الزهد لابن المبارك/٤١٦.

(٢) الشافعي: محمد بن إدريس (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) كان يقول: ما كابرني أحد ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته، وقال: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة واحدة فأدخلت يدي فتقيأتها، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة ـ الجرح والتعديل ٧/ ٢٠١، حلية الأولياء ٩/ ٦٣، طبقات الشيرازي/ ٧١، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥.

(٣) مناقب الشافعي للرازي/ ٩١، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩.

(٤) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، الإمام القدوة (ت ١٠٨ هـ) من قوله: لأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم، وفيات الأعيان ٤/ ٥٩، تذكرة الحفاظ ١/ ٩٦، سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٣، شذرات الذهب ١/ ١٣٥.

(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٧.

بهذا نكون ضمن الدائرة، نصيب صفاء القلب ونقاء السريرة، فلا تزيدنا الاختلافات إلا وداً وحباً، وتأمل: سئل علي رضي الله عنه عن أهل الجمل أمشركون هم! قال: من الشرك فروا، قيل: منافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً: قيل فما هم! قال: إخواننا بغوا علينا»[١].

مع شدة المخالفة والمعاندة لم ينف عنهم صفة الأخوة.

وقال يونس الصدفي[٢]: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟[٣].

وتأمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء! أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأنقله وأزنه بميزان العدل وأجعله حاكماً فيه، وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله فيه[٤].

وما قاله الإمام أحمد وكان يذكر من أمر مخالفيه، ويثني عليهم ويلتمس الأعذار لهم.

ذكر إسحٰق بن راهويه، ومدحه وأثنى عليه وقال: إن كان يخالف في أشياء فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٧٣.

(٢) يونس بن عبد الأعلى الصدفي ـ المصري (ت ٢٦٤ هـ) كان ثقة فقيهاً فاضلاً، تفقه على الشافعي ـ اللباب ٢/ ٢٢٦، تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٤٥.

وكثيراً ما كان يعرض عليه أقوال مخالفيه فلا يوافقهم ولا ينكر عليهم أقوالهم.

وقد استحسن ما حكى له عن حاتم الأصم، وقد قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح ومناظرك أحد ألا قطعته فبأي شيء تغلب خصمك!

فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأصون لساني أن أقول له ما يسوؤه..

فلما بلغ أحمد هذا الكلام قال: ما أعقله من رجل[1].

* أوليتهم ابتعدوا عن التشفي وأساليب التعيير والانتقام والتوبيخ، وغلبوا نفسية التسامح والتصافح والتغافر، كما هو الهدى النبوي، فقد نهى النبي ﷺ، عن تثريب[2] الأمة الزانية مع أمره بجلدها. ففي السنة «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليحدها الحد ولا يثرب عليها»[3].

فتجلد حداً ولا تعير بالذنب ولا توبخ به.

* أو تركوا المراء والجدال: فإنه يقسي القلب، ويورث الفرقة ويهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

والمراء عند العلماء: ساعة جهل العالم وبها يبتغي الشيطان زلته، وهو يغير القلب ويبعث على الضغينة.

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير/ ١٠ ـ وفيات الأعيان ٢/ ٢٦.

(٢) التثريب: اللوم والأخذ على الذنب ـ معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٧٥.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٠٩، ومسلم في صحيحه ٣/ ١٣٢٨ والبغوي في شرح السنة ١٠/ ٢٩٧، جميعاً من حديث أبي هريرة.

وكان وهب يقول: دع المراء والجدال، فإنك لا تعجز أحد رجلين.

رجل هو أعلم منك، فكيف تماري من هو أعلم منك!

ورجل أنت أعلم منه، فكيف تماري وتجادل من أنت أعلم منه، ولا يطيعك، فاقطع ذلك عنه[1].

فهل نقنع جميعاً بذكر الحجج والبراهين لا الشتم والتهويل؟ فإن الرد بمجرد الشتم لا يعجز عنه أحد: فلو أراد سفيه أن يرد على الرجل بمثل رده لم يعجز عن ذلك.

* أو أصلحوا السريرة، وأرادوا الله بالعلم والعمل، وحرصوا على توفيق الله في طلب الحق، ولم يجعلوا الدين غرضاً للخصومات، وستروا سمعة العلم وصانوا الإسلام، وعلموا أن مراكز القدوة حساسة دقيقة، فأعطوا المجهود من أنفسهم، وأصلحوا أعمالهم بصلاح قلوبهم، ولم يعملوا على تنظيم الناس من حولهم، ويتركوا الفوضى في داخلهم، فإن شأن العلماء الأتقياء إذا عرفوا الحق سارعوا إليه، وإذا اكتشفوا في نفوسهم باطلاً تنكروا له، فما بينهم وبين الحق عداوة، ولا بين الباطل من صلة.

---

(١) صون المنطق/ ١٢١ ـ نقلاً عن الشريعة للآجري.

إذاً أرجع وأنا صاغر

حكى ابن مهدي[1] قال. كنا في جنازة فسألته ـ عبيد الله بن الحسن العنبري[2] عن مسألة فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله أتقول فيه كذا وكذا! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: إذا أرجع وأنا صاغر: لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل..[3]

مع أن العنبري من سادات أهل البصرة فقهاً وعلماً، وكان ثقة فاضلاً، وهو مع هذا من شيوخ ابن مهدي وابن مهدي تلميذه.

فاعرف قدر الخضوع للحق، والتنكر للباطل متى اكتشفته في نفسك.

٤ ـ الرياسة النذلة.

للعالم الحق في منع المتعلم من التصدي لكل ما لا يتقنه، فما يفسده المتعجل أكثر مما يصلحه، وفي الاستعجال حرمان، بل هو مقرون به، من تعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

---

(١) عبد الرحمن بن مهدي ـ الإمام الناقد (١٣٥ ـ ١٩٨ هـ) من أقواله: لولا أني أكره أن يعصي الله، لتمنيت أن لا يبقى أحد في المصر إلا اغتابني، أي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها؟ مقدمة الجرح والتعديل ١/ ٢٥١، حلية الأولياء ٩/ ٣١، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٢، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩، الكاشف ٢/ ١٨٧، تهذيب التهذيب ٦/ ٢٧٩، شذرات الذهب ١/ ٣٥٥.

(٢) عبيد الله بن الحسن، قاضي البصرة (ت ١٦٨ هـ) تهذيب التهذيب ٧/ ٧.

(٣) رسالة المسترشدين/ ٦٢ تحقيق الشيخ «أبو غدة» الاعتصام للشاطبي ١/ ١٤٨، تهذيب التهذيب ٧/ ٧.

وفي التأني السلامة، والحياة لا تهب تجاربها لمتعجل، فاصبر حتى يكتمل وعيك وفهمك، وتحصرم قبل أن تصير ذبيباً. وتفقه قبل أن تسوّد[1] واصبر حتى تكتمل تجاربك الحياتية. وادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لا يدفن لا يتم نتاجه.

كل هذا، لأمر واحد فقط نهايته إليك. هو: ألا يفوتك نفع وخير، فمتى تصدر الفتى فاته خير كثير.

لخص ذلك الشافعي حين قال: إذا تصدر الحدث فاته علم كثير[2].

هذا في زمانه مطلع القرن الثالث الهجري وهو في زماننا أوجب. فإنه زمان ريبة وفتن وقلق.

ولا فتنة أضر على العلم وأهله من فتنة التصدي قبل النضج، والتصدر قبل اكتمال الأخذ.

يكفي أن يكون من الفتن.

الفتوى بغير علم، والترجيم، وتكلف ما فوق الطاقة.

وفي الحديث «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[3].

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٨، سنن الدارمي ١/٧٨ موقوفاً على سيدنا عمر رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري ١/١٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم ١/٣٦، وكتاب الاعتصام باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ٩/١٢٣، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم ٤/٢٠٥٨، والترمذي في سننه، كتاب العلم ٥/٣١، وابن ماجه في سننه، مقدمة ١/٧٧، والدارمي في سننه ١/٧٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/١٤٩.

أرأيت كيف يتسرب الضلال والإضلال؟

فآفة العلم ذهاب أهله، وانتحال الجهال وترؤسهم على الناس باسم العلم.

رؤساء. جمع رئيس.

قال في الفتح: وفي هذا الحديث الحث على حفظ العلم والتحذير من ترئيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرياسة الحقيقية، وذم من يقدم عليها بغير علم[١].

وإنما كان التحذير من ترئيس الجهلة أمراً وارداً لأن من لم يخدم العلم في صغره لا يخدمه في كبره.

فليخدم العلم في صغره أولاً.

قال الثوري: من ترأس في حداثته كان أدنى عقوبته أن يفوته حظ كبير من العلم.

وعن أبي حنيفة[٢] رحمه الله قال: من طلب الرياسة بالعلم قبل أوانه لم يزل في ذل ما بقي[٣].

وسئل المبرد[٤] لم صار أبو العباس أحفظ منك للغريب والشعر؟

---

(١) فتح الباري ١/ ١٩٥.

(٢) الإمام الكبير النعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) حدث أبو يوسف قال: كنت أمشي مع أبي حنيفة. إذ سمعت، رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبوحنيفة: والله لا يتحدث عني بما لم أفعل. فكان يحيي الليل صلاة وتضرعاً ودعاء. الجرح والتعديل ٨/ ٤٤٩، وفيات الأعيان ٥/ ٤١٥، تاريخ بغدادا ١٣/ ٣٢٢، سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٠، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٩.

(٣) العزالة/ ٢١٠.

(٤) محمد بن يزيد إمام النحو، صاحب الكامل وغيره (ت ٢٨٦ هـ) ـ تاريخ بغداد ١٣/ ٣٨٠، وفيات الأعيان ١/ ١٠٢، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٦، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥.

فقال: لأني ترأست وأنا حدث، وترأس وهو شيخ[1].

لذا لا تعجب إذ قالوا: الرياسة في الدين بلا دراية، رياسة نذلة.

من قعد قبل أوانه زل.

وصبرك على أذى من تعرف خير لك من استحداث من لا تعرف، وقيمة كل امرىء ما كان يحسنه.

وأحوج الناس إلى العلم العلماء، لأن الخطأ منهم قبيح، ومن كان عنده علم لا يترك التعلم.

وسئل المسيح إلى متى يحسن التعلم؟ قال: ما حسنت الحياة.

وقيل لابن المبارك إلى متى تطلب العلم؟ قال حتى الممات إن شاء الله، لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد[2].

ولو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ١٨/٦٦.

---

(١) العزلة/ ٢١٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٩٦.

قطاع الطريق

أ ـ الأصاغر والأراذل.

ومع أهمية التأني: وخطورة ترؤس الجهال. والاستعجال بالأمر قبل أوانه وتصدر الأحداث.

فإن من غوائل العلم أن يكون سراً، كما قال عمر بن عبد العزيز: فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[1].

فأمر بإفشائه وأبان عن سر هلاكه.

على أن العلماء حذروا من أمرين:

حجب العلم عن أهله.

وبذله لغير أهله.

لما يترتب على ذلك من مخاطر. منها:

التجهيل، والتأثيم، والتكذيب، والمقت...

قال عيسى عليه السلام: «لا تمنع الحكمة أهلها فتأثم، ولا تضعها عند غير أهلها فتجهل، ولكن طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع»[2].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٦، فتح الباري ١/ ١٩٤.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٠٩.

وجعلوا لكل شيء آفة، وآفة العلم وضعه عند غير أهله، فيكون عرضه للضياع، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون.

ومن ثَمَّ عدوا العلم أشرف من المال. وإذا حكم ربنا في المال بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ٤/ ٥.

تنبيهاً على صيانته وحفظه من التلف والآفات، فصيانة العلم وحفظه ممن يفسده أولى، وهذا ثمنه.

فمن ثمن العلم أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه.

وعدوا واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير الدر واللؤلؤ والجواهر. قال الأعمش[1]: لا تنثروا اللؤلؤ تحت أظلاف الخنازير.

ولما رأىٰ شعبة[2] يحدث قوماً قال له: ويحك يا شعبة تعلق اللؤلؤ أعناق الخنازير؟.

قال ربيعة: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه[3].

ومراده الحثّ علىٰ نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك، فيؤدي إلىٰ رفع العلم.

---

(١) الأعمش: سليمان بن مهران ـ أحد الأعلام (٦٠ ـ ١٤٨) هـ قيل إن الأعمش كان له ولد مغفل فقال له: اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل، فقال يا أبة طول كم؟ قال: عشرة أذرع قال: في عرض كم؟ في عرض مصيبتي فيك، طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٢، حلية الأولياء ٥/ ٤٦، تاريخ بغداد ٩/ ٣، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٠، سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢٤، تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢٢.

(٢) شعبة بن الحجاج بن الورد. أبو بسطام، أمير المؤمنين (٨٢ ـ ١٦٠ هـ) ـ كان يقول: خذوا من أهل الشرف فإنهم لا يكذبون طبقات ابن سعد ٧/ ٢٨٠، حلية الأولياء ٧/ ١٤٤، تاريخ بغداد ٩/ ٢٥٥، وفيات الأعيان ٢/ ٤٩٧، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢، تذكرة الحفاظ ١/ ١٩٣.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٠.

أو مراده أن يشهر العالم نفسه ويتصدى للأخذ عنه، لئلا يضيع علمه.

أو مراده تعظيم العلم وتوقيره، فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضاً للدنيا.

قال الحافظ: وهذا معنىٰ حسن[1].

ومن تعظيم العلم وتوقيره ألاّ يضع العلم عند من لا يصونه، من الأصاغر والأراذل.

ذلك أنه لما قيل لرسول الله ﷺ: متىٰ ندع الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر! قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت الفاحشة في كباركم، والملك في صغاركم، والعلم في رذالتكم»[2].

ومعنىٰ كون العلم في الرذالة أن يكون في أهل الرداءة والخبث والفسق، فالأرذل في كل شيء: الرديء منه.

وبه ترجم ابن عبد البر في جامعه باب: حال العلم إذا كان عند الفساق والأرذال.

وأورد الحديث بطرق مختلفة، وفي بعضها ما يدلّ علىٰ أن ذلك من علامات الساعة، وهجمة الشر علىٰ الناس، وانتقاص صلاحهم وهلاكهم.

وتأمل ما قاله عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: ألا إنّ الناس لن يزالوا بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم.

لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا.

---

(١) فتح الباري ١/ ١٧٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ١٨٧، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٣١ قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مصباح الزجاجة ٢/ ٣٠٠.

ومن ثمَّ قيل: عالم الشباب محقور، وجاهله معذور[١]

وقد اختلفت الأقوال في تحديد المراد بالأصاغر والأكابر، وبيان ما يرمي إليه قول عمر وابن مسعود.

وإن كان المرء بما يتقنه، وأنه قد ساد بالعلم قديماً الصغير والكبير، ورفع الله به درجات من أحب إلا أنه يمكن أن يكون للرأي مجالٌ في بيان المراد بالأصاغر والأكابر.

إذ يمكن أن يكون المراد بالأصاغر من يقدم رأيه وهواه، وليس لرأيه مستند شرعي، وهم أصحاب البدع، قال عمر بن عبد العزيز أكابر الناس هم أهل السنة وأصاغرهم هم أهل البدعة[٢].

أو أن يؤخذ العلم عمن كان بعد الأصحاب، وتقديم ذلك علىٰ رأيهم، أو أنّ الصغير الذي يستفتىٰ ولا علم عنده، والكبير العالم في أي سن كان، فالجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً،

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغيراً إذا التفت إليه المحافل

وهذا أمر معتبر لدىٰ المحدثين في قواعدهم، التفريق بين التابعي الكبير والصغير، بجملة المرويات واللقاءات لا بالسن وحده.

والاعتبار بالعلم المأخوذ عن الصحابة، وبما له سند شرعي من كتاب أو سنة أو إجماع، وإلا فهو علم يقضي أول ما يقضي علىٰ صاحبه، ولا يكون حامله إماماً ولا أميناً ولا مرضيا.

كان شعبة يقول: خذوا من أهل الشرف، فإنهم لا يكذبون. وأحق الناس بالعلم كذلك هم أهل الشرف، والدين، فإن العلم إذا كان عند غيرهم وجد الشيطان إلىٰ احتقارهم السبيل، وزهد الناس في

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/١٥٧ ـ ١٦٠.

(٢) الميزان الكبرىٰ ١/٥٨.

علمهم، وأوقع في نفوسهم أثرة الرضا بالجهل أنفة من الاختلاف إلىٰ من لا حسب له ولا دين.

وتأمل ما قاله مكحول: تفقه الرعاع فساد الدين، وتفقه السفلة فساد الدنيا[1]...

ويلحق بهذا كل ما يعين عليه ـ من إعارة الكتب مثلاً.

فقد سلكوا في إعارتها طريق البخل والضن عمن ليس لها بأهل، واعتبروا ذلك باباً من قضاء الحق والمعرفة بالفضل، وللعلماء قديماً في إعارة الكتاب ممارسات، منها:

امتحان المستعير، فإن كان أهلاً أعير وإلا منع.

ومنهم من إذا وعد بالإعارة رد المستعير، فإن عاد ولم يضجر أعاره وإن لم يعد كفىٰ أمره.

وأعلنوا ـ لا تعر كتاب علم من ليس من أهله. من حق العلم إعزازه.

لا تعر كتاباً إلا بعد يقين أنّ المستعير ذو علم ودين.

ولما رأىٰ بعض الحكماء رجلاً يبتذل كتاباً قال له: بينت عن نقصك، وبرهنت عن جهلك، ما أهان أحد كتاب علم إلا لجهله بما فيه وسوء معرفته بما يحويه.

ومنهم من إذا سئل كتاباً ـ قال للسائل: أرني كتبك! فإن وجدها مصونة مكنونة أعاره، وإن رآها متغيرة منعه[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/١٥٧ ـ ١٦١.

(٢) تقييد العلم/١٤٦ ـ ١٥٠.

ب ـ فساد الساعات الأولىٰ.

ذهب العلماء، فما بقي إلا المتعلمون، وما المجتهدون فيكم إلا كلاعب فيمن قبلكم.

هذا شأن المجتهدين فينا.

فكيف بالعلماء فينا!.

الاقتداء بالمنهج:

نبينا محمد ﷺ هو رجل الوجود الإنساني كله.

هو رجل الزمان والمكان.

رجل الحياتين الدنيوية والأخروية.

شمل الجميع، وقام به، ووجد الكل عنده ما يبحثون عنه، وقدم تعاليمه للصغير والكبير، والبدوي والحضري في سهولة ويسر، بعيداً عن التعمق والتكلف والمعاناة.

ونصوص القرآن والسنّة في التأصيل لذلك كثيرة.

فمن السنّة وصيته الدائمة ﷺ، للأمراء والجنود، حتىٰ باتت نهجاً عاماً ـ بالتيسير ورفع الحرج.

من ذلك قوله: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[1].

وهذا النهج ـ القائم علىٰ التبشير والتيسير، والبعد عن الترويع والتعقيد، جعل الأمر أكثر قبولاً، وقرباً من الناس، لأنه المتفق وفطرة الإنسان، وآية ذلك أنّ الله لم يكلف الناس فوق ما يطيقون.

قال الله تعالىٰ: **﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ٢/ ١٨٥.**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في أماكن من صحيحه منها في كتاب الأحكام ٩/ ٨٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد. باب تأمير الأمراء ٣/ ١٣٥٨، وأبو داود في سننه ٤/ ٣٦٠. جميعاً من حديث أبي بردة عن أبي موسىٰ، واللفظ لمسلم.

ومن ثمَّ كانت الرخص والعزائم، واللين والشدة، ولم يكن قولاً واحداً وإلا لشقّ علىٰ الناس الأخذ به.

ثم الناس ليسوا سواء، وما داموا كذلك فمن غير الممكن أن يكون المطلوب واحداً والمعطىٰ لهم كذلك.

ولهذا كان النبي ﷺ، يجيب عن السؤال الواحد بأكثر من إجابة، فالكبير بخلاف الصغير، والمسافر غير المقيم... قال الله تعالىٰ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ ٢٢/٧٨. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بكل ما يدخل تحتها...

فالإجابة والعمل بعدها بحسب مقدرة الناس، لا قدرته ﷺ.

ولم يجهل الناس هذا، ويقاوموه أو يعاكسوا قانون الفطرة في أنفسهم.

بهذه البساطة والسهولة والوضوح، أقام النبيّ ﷺ، عوج الحياة، ورد كل فرد في المجتمع إلىٰ مكانه، وأصبحت البشرية طاقة زهر لا شوك فيها، وحل الرسول الكريم، وتعاليمه محل الروح والقلب في المجتمع.

وإن المرء ليعجب. كيف حول الرسول ﷺ، خامات الجاهلية إلىٰ معادن إنسانية نفيسة؟

لقد صاغهم صياغة جديدة، وصبهم في قالب الإسلام صباً، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام، لا في الميول والأهواء، أو النزعات والرغائب. ولو دقق متأمل لما رأىٰ في سلوكهم أو طباعهم مأخذاً ينافي الإسلام، حتىٰ قيل: لو كان الإسلام رجلاً ما زاد علىٰ أن يكون كأحدهم.

والآن ما أحوج الأمّة إلىٰ من يعيد صلتها بدينها إلىٰ من يرد عليها أمر دينها؟ إلىٰ من يجدد عهداً ماضياً ويوثقه بالحاضر والمستقبل.

فما السبيل...؟

إنه في العودة الكلية إلىٰ الأمر الأول.

وإذا العلماء يقررون أنه لا صلاح لآخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أولها. فإنهم يقررون إمكانية الصلاح. وأنها قائمة وقابلة للتحقيق، وهذا يتطلب أموراً:

الأول: الأخذ من حيث أخذوا، وبنفس طريقة أخذهم. معنى هذا الاكتفاء بالمصدر، وتوحيد جهة التلقي.

الثاني: أن يكون الأداء كذلك، مقصوداً به عملية الاقتداء بهم. فنؤدى بطريقتهم.

الأمر الأول إذاً يتعلق بالتحمل، والثاني بالأداء، ويتضح هذا بأمر آخر هو:

أن نصيغ دعاة ومربين علىٰ مقتضىٰ ما كان عليه الأولون. يتعاملون مع العقول حسب مقدرتها، لا يحملون الناس فوق ما يطيقون، يخاطبون الناس علىٰ قدر عقولهم. وهذا من العوامل الهامة عند إرادة الأداء والتوريث.

وأصل ذلك من القرآن قوله سبحانه ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ٣/٧٩. والمعنىٰ: كونوا حلماء فقهاء.

فمع الحلم، فقه. فانظر هذا الاقتران، وابحث عن كيفية الوصول إلىٰ هذه الدرجة.

وهو أمر يتطلب أن يتخير المربي من الأخلاق أفضلها، ومن الأداب أجملها، ويتجنب طرائق الجهال وخلائق العوام، والأرذال.

وأن يحسن سيرته وسريرته، جاعلاً أقواله وأفعاله موافقة للشرع، فدليل الفعل أرشد.

أقول هذا تمشياً مع إطلاقات المعنىٰ الاصطلاحي لمدلول «فقيه» قديماً، إذ كان يطلق علىٰ جماعات من أهل العلم والمعرفة بالسلوك والأخلاق، أو الزهد وعلوم الآخرة.

ولهم في ذلك أقوال:

الفقيه: الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم علىٰ عبادة ربه..

وأفقه الناس أتقاهم لربه.

وعن علي رضي الله عنه قال: الفقيه حق الفقيه: لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها[1].

هذا هو الفقيه حق الفقيه.

الجامع مع زهده في الدنيا، بصراً في الدين.

الحامل للناس علىٰ أجنحة الرجاء والخوف.

بلا إفراط ولا تفريط.

فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

فالقانط لا يعمل. والآمن لا يعمل ـ فكلاهما غير عابىء بما يصلحه ولا بما يفسده.

لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذابه.

---

(١) سنن الدرامي ١/٨٩ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/٤٤.

ولا يرخص لهم في معاصيه.

وهو كلام خبير أصاب به كبد الحقيقة.

ومن حققه فهو الرباني حقاً.

وقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار مسائل العلم قبل كبارها[1].

قال ابن حجر: المراد بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها.

وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، ومقدماته قبل مقاصده[2].

فانظر هذا التدرج في الأداء.

وانظر معه الفساد الناشىء عن التعجل وتحميل الناس فوق ما يطيقون والخلط في الابتداء.

وتأمل الآثار المحزنة والفتن المترتبة علىٰ هذا الخلط.

قال علي: حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟[3].

وقال ابن مسعود: ما أنت محدثاً الناس حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[4].

أرأيت ما ترتب علىٰ الخلط وعدم نقاء الابتداء؟.

لهذا ـ ترجم البخاري في كتاب العلم من صحيحه ـ بما يدل علىٰ عبقريته وربانيته وروعة فقهه ـ لبابين هما:

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٧.
(٢) فتح الباري ١/ ١٦٠.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٤٤ ـ جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٣٤.
(٤) مقدمة صحيح مسلم ١/ ١١، فتح الباري ١/ ١٣٥، جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٣٤.

باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه.

باب: من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا[(١)].

ويستفاد منهما: ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، وترك إنكار المنكر، خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولاً ما لم يكن محرماً.

تعليم وإخبار الناس بما يفهمون ويعرفون، وترك ما يشتبه عليهم فهمه، وإن المتشابه لا ينبغي أن يذكر للعامة.

لهذا كله ـ فقد كره طائفة من السلف تحديث الناس بأحاديث الصفات، وبالغريب، وكل ما يكون ظاهره مقوياً لبدعة، وهذا الظاهر غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشىٰ عليه الأخذ بظاهره مطلوب.

فليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال قد جاء أوانه. وقالوا في ذلك: لا يجيئك الخبر الشاذ إلا من الرجل الشاذ.

الاقتصار إذاً بالمتعلم علىٰ قدر فهمه مطلوب رحمة به، فلا يلقىٰ إليه ما لا يبلغه عقله، وإلا نفر، وقد يختلط عليه الأمر ويشكل.

ومن ثَمَّ قالوا: كَلْ لكل عقل بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان فهمه، حتىٰ تسلم منه، وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار. ولما سئل أحد العلماء عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ، يقول «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري ١/٤٣، ٤٤.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٩٥، ٩٦ من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد، قال البوصيري في حديث أبي سعيد: هذا إسناد ضعيف، فيه محمد بن داب كذبه أبو زرعة وغيره، ونسب إلىٰ الوضع ـ مصباح الزجاجة ١/٨٦.

فقال: اترك اللجام واذهب، فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني، فقد قال الله ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ٤/٥. تنبيهاً علىٰ أنّ حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولىٰ، وليس الظلم في إعطاء غير مستحق، بأقلّ من الظلم في منع المستحق[١].

أمر آخر في غاية الأهمية؛ رفض السنة النبوية للأفكار والثقافات الوافدة، وحرص النبي ﷺ على تحديد هوية الأمة الثقافية، وعدم خلطها بثقافات الأمم.

قصد النبي ﷺ، بذلك: الاقتصار على المصدر الواحد، والنبع الواحد.

قال ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[٢].

قال الحافظ في الفتح: إن عمر أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[٣].

هذا النهي عن سؤالهم فيما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٥٧.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣/٣٣٨، وأبو يعلى في مسنده ٤/١٠٢، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٣، ١٧٤. باب: ليس لأحد قول مع رسول الله ﷺ، وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار، وقال: فيه مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما، وذكره كذلك في علامات النبوة ٨/ ٢٦٣، باب: وجوب اتباعه على من أدركه، وقال رواه أحمد، وقد عنون البخاري به في كتاب الاعتصام ٩/ ١٦٣، وقال الحافظ: هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبة، والبزار من حديث جابر، ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفاً. فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٣٣٤.

قال ابن عباس: كيف تسألونهم عن شيء وكتاب الله بين أظهركم؟ كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، بين أظهركم أحدث الكتب عهداً بربه؟. غضاً لم يشب، ألم يخبركم الله في كتابه أنهم قد غيروا كتاب الله وبدّلوه؟ وكتبوا الكتاب بأيديهم، فقالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلًا، ألا ينهاكم العلم الذي جاءكم عن مساءلتهم؟. والله ما رأينا رجلًا منهم قط يسألكم عما أنزل الله إليكم[1].

جـ ـ خطورة التحديث عن كل أحد، أو بكل ما سمع.

كثير من هذه الأحاديث ضلالة.

«كفىٰ بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[2].

وما ذاك إلا لأنه لا يسلم، كما لم يسلم للمبتدئ أخذه بما دق من مسائل العلم وكلياته.

قال مالك: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع.

فانظر ضياع الدرجة منه إن هو حدث بكل ما سمع.

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: لا يكون الرجل إماماً يقتدىٰ به حتىٰ يمسك عن بعض ما سمع.

ولا يكون إماماً في الحديث إن حدث بكل ما يسمع أو حدث عن كل أحد[3].

وقد سلك الأئمة في ذلك طرقاً منها:

محاولة الهرب من الفتيا، والاعتذار عنها، إلىٰ حد الكراهة أو الإحالة والتمني أن غيره قد كفاه.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٤٢، ٤٣.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ١٠، من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح مسلم/ مقدمة ١/ ١١، جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٤٧.

فليس هذا الأمر لمن ود أن الناس قد احتاجوا إليه، وإنما لمن ود أن غيره قد كفاه.

الندم علىٰ ما حدث به من أحاديث.

وكانت سمة عامة أن يقول من سئل عن مسألة: لا أدري، سل العلماء، وسل الله التوفيق.

ومنهم من يقول: لا أحسن، ومنهم من لزم الاستغفار بدل الرد، ومنهم من جمع رؤوس الناس واستشارهم... ومنهم من لزم الصمت، وعدم الرد، فأسرع الناس رداً، أكثرهم جهلاً.

ومرد ذلك كله إلىٰ حساسية النفوس المؤمنة، وشدة التوقي.

وإلىٰ أنّ الذي يحدث الناس يجعل نفسه بين الله والناس، موقع عن الله.

فإذا دخل بحديثه بين الله وعباده، فلينظر بم يدخل، وليطلب لنفسه مخرجاً. قبل الدخول فالدخول أمره سهل، والخروج شديد.

ولم يكن بعد النبي ﷺ أحد أهيب لما لا يعلم من صحابته، لا سيما الصديق، وعمر رضي الله عنهم جميعاً. فإذا نزلت بالصدِّيق قضية، فلم يجد في كتاب الله فيها أصلاً ولا في السنة أثراً، اجتهد رأيه، ثم قال: هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله.

والمروي عنه أيضاً ـ أنّه إن أعياه أن يجد في الكتاب أو السنة، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم علىٰ أمر قضي به[١].

ثم قام من بعده عمر.

فكان إذا وردت عليه مسألة جمع لها أهل بدر.

---

(١) سنن الدارمي ١/٥٨.

ثم كان عامة الصحابة ـ فوصف الأمر ابن أبي ليلىٰ[1] يوم قال: أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار، وما منهم من أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث، ولا يسأل عن فتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا[2].

هذا في الجمع ـ فإذا ما جئت إليهم أفراداً سمعت ابن مسعود يقول: الذي يفتي الناس في كل ما يستفتىٰ لمجنون..

وهذا مجاهد بن جبر يقول: صحبت ابن عمر إلى المدينة فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ، إلا حديثاً[3].

وعن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتىٰ قبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ٢/٢١٧ و ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ ٢/٢٢٢، قال ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم[4].

ثم توارث ذلك من جاء بعدهم وتواصوا به.

فوصىٰ ربيعة بن عبد الرحمن بها ابن شهاب يوم قال له: أنت تحدث عن النبي ﷺ، فتحفظ في حديثك[5].

---

(١) عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ (ت ٨٣ هـ) ـ الإمام الحافظ الفقيه ـ طبقات ابن سعد ٦/١٠٩، الحلية ٤/٣٥٠، تاريخ بغداد ١٠/١٩٩، وفيات الأعيان ٣/١٢٦، سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٢، تذكرة الحفاظ ١/٥٥ ـ تهذيب التهذيب ٦/٢٦٠، شذرات الذهب ١/٩٣.

(٢) سنن الدارمي ١/٥٣ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/١٦٣، سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/٢١٤.

(٤) سنن الدارمي ١/٥١.

(٥) الفقيه والمتفقه ٢/٨٠.

فلما وصل الأمر إلىٰ من بعدهم، مالك وابن عيينة وابن مهدي وغيرهم ـ لزموه حتىٰ قال مالك: كثير من هذه الأحاديث ضلالة لقد خرجت مني أحاديث لوددت أني ضربت بكل منها سوطين وأني لم أحدث به.

ولما قال له الشافعي: إنّ عند ابن عيينة عن الزهري أشياء ليست عندك؟ فقال: وأنا كل ما سمعت أحدث به أنا إذ أريد أن أضلهم[1].

وقال محمد بن يوسف الفريابي[2]: كنت أمشي مع ابن عيينة، فقال لي: يا محمد ما يزهدني فيك إلاّ طلب الحديث، قلت: فأنت يا أبا محمد أي شيء كنت تعمل إلا طلب الحديث؟ فقال: كنت إذ ذاك صبياً لا أعقل...

قال الحافظ الذهبي: إذا كان مثل هذا الإمام يقول هذه المقالة في زمن التابعين، أو بعدهم بيسير، وطلب الحديث مضبوط بالاتفاق، والأخذ عن الأثبات الأئمة، فكيف لو رأىٰ سفيان، رحمه الله طلبة الحديث في وقتنا، وما هم عليه من الهنات والتخبيط، والأخذ عن جهلة بني آدم...

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرىٰ نساء الحي غير نسائها[3]

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: إذا لقي الرجل الرجل فوقه في العلم، فهو يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله دارسه وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه، تواضع له، وعلمه، ولا يكون إماماً في العلم من حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً من حدث عن كل أحد، ولا

---

(١) ترتيب المدارك ١/١٤٩.

(٢) محمد بن يوسف الفريابي.. أحد شيوخ البخاري، وكان ثقة رحل الناس إليه. اللباب ٢/٤٤٧. تقريب التهذيب ٢/ ٥٤٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦٣.

من يحدث بالشاذ والحفظ، للإتقان[1]...

وليس هذا بآخر الممكن فالثابت عن مجموعهم يفوق الحصر. وكلها دلائل على أن التعجل بالشيء قبل أوانه إيذانٌ بزواله.

وأن الورع والخوف والخشية من الله مفتاح لكل خير. وأنّ السلامة في التأني وأن الأئمة ما استحقوا الإمامة إلا بالشفقة على الخلق، وأن علو الدرجة، وفضل الرتبة قد جاءهم يبحث عنهم.

وبهذا استحقوا رتبة الإمامة، فأتتهم ساعية، تبحث عنهم، بعد أن استجمعوا الأسباب، وعلموا ما يصح مما لا يصح، ما يحتج به مما لا يحتج به. فيحدثوا الناس على أمر صحيح.

وفي هذا كله دلالة على أنّ القوم كانوا عمليين.

وأن همهم وهمتهم كما لخص ذلك ابن مسعود: ليس العلم كثرة الرواية، إنما العلم الخشية.

أو كما قال الحسن: تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا، فإن السفهاء همتهم الرواية، والعلماء همتهم الرعاية[2]...

ولأنهم كانوا للعلم رعاة لا وعاة، فقد اشتد خوفهم من أن يرووا شيئاً يفوتهم العمل به، أو ينهضوا بتبعاته، قال أحمد: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به حتى مرّ بي أن النبيّ ﷺ، احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً[3]...

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٠٣، حلية الأولياء ٩/ ٤.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٦، سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٩٦.

(٣) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، في الاستئذان، باب ما جاء في الحجامة وأجرة الحجام/ ٦٩١. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع: باب ذكر الحجام ٣/ ٨٢.

=

وفي المحنة التي ابتلي بها اختبأ ثلاثة أيام ثم خرج وأشفق عليه أصحابه، فقال إن الرسول ﷺ، مكث في الغار ثلاثة أيام[١].

بل كانوا يستعينون على حفظ الحديث بالعمل به، كان وكيع بن الجراح[٢] يقول: إذا أردت أن تحفظ حديثاً فاعمل به.

وقال إبراهيم بن إسماعيل[٣]: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.

والعمل من جملة الآداب التي يتحلى بها طالب العلم، حتى قال السيوطي: ينبغي أن يستعمل ما يسمعه من أحاديث العبادات، والآداب، وفضائل الأعمال فذلك زكاة الحديث وسبب حفظه.

ونقل عن عمرو بن قيس الملائي[٤] قال: إذا بلغك شيء من

= وباب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم ٣/١٠٣.
وفي الإجاره: باب ضريبة العبد، وتعاهد ضرائب الإمام ٣/١٢٢.
وباب من كلم موالي العبد أن يخففوا من خراجه ٣/١٢٢.
وفي الطب: باب الحجامة من الداء ٧/١٦١.
وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساقاة: باب حل أجرة الحجامة ٣/ ١٢٠٤.
وأخرجه الدارمي في سننه ٢/ ٢٧٢، والترمذي في سننه ٣/٥٧٦.
وأبو داود في سننه ٣/٢٦٦، كلهم من حديث أنس ولم يرد فيه أنه أعطاه ديناراً، وإنما أمر له بصاع من طعام - من شعير - بصاعين من تمر. وعند أحمد في مسنده ٣/ ١٠٠، ١٧٤، ١٨٢.

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي/١٧٩، الميزان الكبرى ١/ ٦٢، وفيه غير ما ذكر مما يدل على شدة ملازمة الإمام أحمد للأثر. تدريب الراوي ٢/ ١٤٤.
(٢) وكيع بن الجراح بن مليح (١٢٩ - ١٧٥هـ) ترجمته في: الجرح والتعديل ١/ ٢١٩، الحلية ٨/٣٦٨، تاريخ بغداد ١٣/٤٦٦، تذكرة الحفاظ ١/٣٠٦، الكاشف ٣/٢٣٧، ميزان الاعتدال ٤/٣٣٥، تهذيب التهذيب ١١/ ١٢٣.
(٣) إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، ضعيف، من السابعة، تقريب التهذيب ١/ ٣٢.
(٤) عمرو بن قيس الملائي، ثقة متقن، من السادسة، تقريب التهذيب ٢/ ٧٧.

الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله[1].

كان هذا حفظ السلف من العلم ـ العمل به.

وأما الأمة حين يكون حظها من العلم الرواية، ونقل الأخبار، فأمة مضطربة، لا ثقة لها في المنهج، هي إلىٰ الضلال أقرب.

وأمة حظها من العلم العمل لهي جديرة بالإمامة والسيادة علىٰ العالمين.

وفرق كبير بين الأمرين.

والله سبحانه لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه.

نفعنا الله بالعلم، ولا جعل حظنا منه الاستماع والتعجب.

ذكر الإمام أحمد عن عبد الله بن وهب[2] أنه صحيح الحديث. يفصل السماع من العرض، والحديث من الحديث. ما أصح حديثه؟..

قيل لأحمد: إنه كان يسيء الأخذ. فقال: قد كان ولكن إذا نظرت في حديثه وما روىٰ عن مشايخه وجدته صحيحاً...

هذا رأي أحمد وهو من هو! في ابن وهب. عالم مصر وأحد رايات المذهب المالكي. وقال عنه ابن القاسم: ما دون العلم أحد تدوينه[3]. وهذا رأي ابن القاسم فيه.

---

(١) تدريب الراوي ٢/ ١٤٤.

(٢) عبد الله بن وهب المصري ـ القرشي، أحد الأعلام (١٢٥ ـ ١٩٧ هـ) طبقات ابن سعد ٧/ ٥١٨، سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٣ ـ الكاشف ٢/ ١٢٦، ميزان الاعتدال ٢/ ٤٢١، تهذيب التهذيب ٦/ ٧١، طبقات الحفاظ/ ١٢٦، شذرات الذهب ١/ ٣٤٧.

(٣) انظر أقوالاً أخرىٰ عن ابن وهب في سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٥، تهذيب التهذيب ٦/ ٧٢.

وقال غيره: كنا نسمي ابن وهب ديوان العلم.

فماذا قال عن نفسه؟ خاصة بعد أن بلغت مروياته كما قال أحمد بن صالح[1]: حدث ابن وهب بمائة ألف حديث وما رأيت أحداً أكثر حديثاً منه.

هذا العدد، ورغم توثيق العلماء له، فإن الرجل يذكر من أمره حيرة وقلقاً، وتلبساً، مما جعله يلجأ إلىٰ الأئمة لغربلة ما سمع وتوضيح ما غمض، وبيان ما خفي.

قال ابن وهب: لقيت ثلاثمائة عالم وستين عالماً، ولولا مالك والليث لضللت في العلم؟

فما سبب ذلك؟ خاصة بعد أن بلغ الرجل في المرويات وعدد الشيوخ ما بلغ؟ وعلىٰ أي معنىٰ يمكن فهم الضلال؟ وما المخرج؟.

لا شك أنّ السبب عائد إلىٰ نواحي الاختلاف في روايات الأحاديث من جهة.

ومن جهة فقد كشف ابن وهب نفسه عن السبب إذ قال: كنت أظن أنّ كل ما جاء عن النبي ﷺ، يفعل به[2]. ومرة سئل كيف ذلك! قال: أكثرت من الحديث فحيرني، فكنت أعرض ذلك علىٰ مالك والليث فيقولا لي: خذ هذا ودع هذا[3].

ولذلك فإن الضلالة محققة لكل من لم يعلم مقاصدها، والفتنة واردة لكل من لم يفهم أبعادها وتأويلها ويضعها في غير موضعها. وللخروج من هذا:

---

(١) أحمد بن صالح المصري، إمام فقيه ثقة (١٧٥ ـ ٢٤٨ هـ) له ترجمة في تاريخ بغداد ٤/١٩٥، ميزان الاعتدال ١/١٠٢.

(٢) الجرح والتعديل ١/٢٢، تاريخ بغداد ٣/٧، سير أعلام النبلاء ٨/١٣٦.

(٣) ترتيب المدارك ١/٤٢٧.

أن يكون للطالب شيخ بصير، ومرشد حكيم تكون مهمته بعد الحفظ والإتقان والرواية، تمييز ما يعمل به مما لا يعمل به. كما صنع ابن وهب حيث أكثر من الحديث، فحيره، فعرض محفوظاته علىٰ مالك والليث.

ولأهمية الشيخ فقد قال أحمد للميموني[١]: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام[٢].

وأورد الخطيب[٣] بسنده إلىٰ أبي نعيم[٤] قال: كنت أمر علىٰ زفر بن الهزيل[٥] من كبار أصحاب الإمام أبي حنيفة، وهو محتب[٦] بثوب فيقول: يا أحول تعال حتىٰ أغربل لك أحاديثك، فأريه ما قد سمعت، فيقول: هذا يؤخذ به، وهذا لا يؤخذ به، هذا ناسخ وهذا منسوخ[٧].

من تأمل هذا غاية التأمل انتفع به غاية النفع، وأدرك أهمية الرد إلىٰ العلماء، خاصة إذا ما عرفنا قدر الأئمة ـ ابن وهب والميموني،

---

(١) الميموني: عبد الملك بن عبد الحميد، (ت ٢٧٤ هـ) حافظ فقيه، صحب الإمام أحمد، وأخذ عنه، ووثقه النسائي. تهذيب التهذيب ٦/ ٤٠٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٢٩٦.

(٣) الخطيب البغدادي ـ أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ) الإمام الناقد صاحب التصانيف المفيدة. تبيين كذب المفتري/٢٦٨، اللباب ١/ ٤٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٩٢، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٧٠، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٥.

(٤) أبو نعيم الفضل بن دكين، عمرو بن حماد. ثقة ثبت (ت ٢١٨ هـ) تقريب التهذيب ٢/ ١١٠.

(٥) زفر بن الهزيل، موصوف بالحفظ والإتقان (ت ١٥٨ هـ) ممن جمع بين العلم والعمل كان يدري الحديث ويتقنه، كان يقول: من قعد قبل وقته زل، طبقات الشيرازي/ ٤٠، وفيات الأعيان ٢/ ٣١٧، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨، لسان الميزان ٢/ ٤٧٦، شذرات الذهب ١/ ٢٤٣.

(٦) احتبىٰ الرجل إذا جمع ظهره وساقه بثوب، ومعجم مقاييس اللغة ٢/ ١٣٢.

(٧) الفقيه والمتفقه ٢/ ٨٣، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠.

وأبي نعيم ـ وهم ممن جمع بين الحفظ والفقه ـ لكن لم يغنِ هذا عن الشيخ، حتىٰ وصل الأمر بأحمد أن يحذر الميموني ـ إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام.

والميموني كما وصف فقيه البدن، وكان أحمد يكرمه ويفعل معه ما لا يفعله مع غيره، وكان يقول: صحبت أحمد علىٰ الملازمة..

ومع أهمية الاختلاف إلىٰ الشيخ، ينبغي أن يدرب المرء نفسه علىٰ الفهم، فيكون جامعاً بين الحفظ والفهم.

وفيما تقدّم دليل علىٰ حاجة الحفاظ إلىٰ الفقه، وأن الرواية لا غنىٰ لها عن الدراية، وأن الفهم أجل من الحفظ، وأن تفسير الحديث خير من سماعه. وأن الرياسة في العلم بلا دراية رياسة نذلة. وصّىٰ بها مالك ابني أخته لما قال: أراكما تحبان هذا الشأن وتتطلبانه؟ ـ يعني رواية الحديث.

قالا: نعم.

قال: إن أحببتما أن تنتفعا، وينفع الله بكما، فأقلاً منه وتفقها[1].

فمن جمع بين الأمرين فأخذ بهما معاً، ضم إلىٰ خبرته الحديثية، معرفة فقهية ـ وعلم ما يقبل وما يرد، وما يصلح للعمل مما يقبل مما لا يصلح، فإن العلم هو الفهم والبصر، وليس الإكثار والحفظ فقط.

كذلك لا غنىٰ للفقيه عن الحديث، إذ هو مادته وأساسه الذي يبنىٰ عليه بنيانه الفقهي، وزاده الذي يعتمد عليه، ورايته التي ينطلق من خلالها.

وتأمل ما عبر به أحدهم: لو كنت قاضياً لحبست كلا الرجلين، من يطلب الحديث، ولا يطلب الفقه، ومن يطلب الفقه ولا يطلب الحديث.

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/ ٨٠، ترتيب المدارك ١/ ١٤٩.

وقالوا: انظروا إلىٰ الأئمة المجتهدين، كيف طلبوا الحديث مع الفقه، ولم يكتفوا بأحدهما[1].

هما معاً يكملان إذا كملا، وينقصان إذا نقصا.

بناء وأساس. أمران متلازمان، لا يسد أحدهما مسد الآخر، ولا يقوم مقامه، ولا قيمة له بدونه. كل محدث ليس له حظ من الفقه فهو علىٰ شفىٰ هلكه، فالحديث مضلة إلا للفقهاء من العلماء.

ومن الأمور الهامة في هذا الصدد، التحذير من الاعتماد علىٰ الكتب، والأخذ منها بدون وعي أو تمحيص، والاكتفاء بها، وإفتاء الناس بما فيها.

وأن ينادي الإنسان علىٰ نفسه بالعلم بمقدار ما لديه من كتب يزن نفسه، ويرفع سعره، بعدد كتبه.

فالكتب تحمل أقوالاً عدة ربما في المسألة الواحدة والاختيار منها صعب وفي التميز بينها مشقة، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول منها فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من عالج الناس كلهم بما في كتب الطب دون نظر إلى حالهم وطبيعة عللهم.

قال سحنون[2] إني لأحفظ مسائل، منها ما فيه ثمانية أقوال، من ثمانية أئمة من العلماء ـ فيكف ينبغي أن أعجل بالجواب حتى أتخير فلم ألام علىٰ حبس الجواب[3].

---

(١) الميزان الكبرىٰ ١/ ٥٧.

(٢) عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب، (ت ٢٤٠ هـ) راية المذهب المالكي ومسنده ـ وسحنون اسم طائر لقب به لحدة ذهنه ـ طبقات الشيرازي/ ١٥٦.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٥٦.

وأورد الخطيب أنه قيل ليحيىٰ بن معين[1] أيفتىٰ الرجل من مائة ألف حديث؟ قال لا، قلت ومن مائتي ألف؟ قال لا، قلت ثلاثمائة ألف، قال لا، قلت خمسمائة ألف! قال: أرجو.

قال الخطيب: وليس يكفيه إذا نصب نفسه للفتيا أن يجمع في الكتب ما ذكره يحيىٰ دون معرفته به ونظره فيه وإتقانه له، فإن العلم هو الفهم والدراية، وليس الإكثار والتوسع في الرواية، ولولا ضرورة التأمل والتبصر لساغ لكل من جمع جملة من الأحاديث أن يجعل نفسه قاضياً وحاكماً[2].

وقال أحمد: إذا كان عند الرجل الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ، واختلاف الصحابة والتابعين، فلا يجوز أن يعمل بما شاء ويتخير فيقضي به ويعمل به حتىٰ يسأل أهل العلم ما يؤخذ به فيكون يعمل علىٰ أمر صحيح[3].

ولما قيل لواحد من الحكماء: إن فلاناً جمع كتباً كثيرة؟ فقال: هل فهمه علىٰ قدر كتبه؟ قيل لا، قال فما صنع شيئاً ما تصنع البهيمة بالعلم[4].

فالأخذ من الصحف والكتب غير كافٍ بالمرة، لذا جاء تحذير العلماء ورفضهم الأخذ عن الوراقين. وقالوا: لا تحملوا العلم عن صحفي، ولا تأخذوا القرآن عن مصحفي.

---

(١) يحيىٰ بن معين بن عون، الإمام الناقد سيد الحفاظ وأعلم الناس بالرجال (١٥٨ ـ ٢٣٣ هـ) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، تاريخ بغداد ١٤/ ١٧٧، طبقات الحنابلة ١/ ٤٠٢، تاريخ الثقات للعجلي/ ٤٧٥، سير أعلام النبلاء ١١/ ٧١، ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٠، وفيات الأعيان ٦/ ١٣٩، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٢٩، تهذيب التهذيب ١١/ ٢٨٠.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٧٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٩٦ ـ أعلام الموقعين ١/ ٤٤.

(٤) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٥٩.

وتأمل ما حكاه عبد الوارث بن سعيد[1] عن ثلاثة من أقطاب العلم في زمانه ـ قال: قدمت مكة فوجدت بها أبا حنيفة، وابن أبي ليلىٰ، وابن شبرمة[2]، فسألت أبا حنيفة فقلت: ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً. قال: البيع باطل والشرط باطل. ثم أتيت ابن أبي ليلىٰ فسألته فقال: البيع جائز والشرط باطل، ثم أتيت ابن شبرمة فسألته فقال: البيع جائز والشرط جائز... فقلت ـ عبد الوارث ـ يا سبحان الله! ثلاثة من فقهاء العراق اختلفتم عليّ في مسألة واحدة ـ

فأتيت أبا حنيفة فأخبرته فقال: ما أدري ما قالا.... ثم ساق حديثاً بسنده أنّ الرسول ﷺ، «نهىٰ عن بيع وشرط»[3] البيع باطل والشرط باطل.

ثم أتيت ابن أبي ليلىٰ فأخبرته، فقال: ما أدري ما قالا، وساق حديثاً بسنده إلىٰ عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرني رسول الله ﷺ، أن أشتري بريرة[4] فأعتقتها»[5]، البيع جائز والشرط باطل.

ثم أتيت ابن شبرمة فأخبرته، فقال: ما أدري ما قالا، وساق هو الآخر بسنده إلىٰ جابر[6] قال: «بعت النبي ﷺ ناقة وشرط لي

---

(١) عبد الوارث بن سعيد ـ (ت ١٨٠ هـ) أحد الحفاظ المأمونين الصالحين، كان ثقة حجة، تهذيب التهذيب ٦/ ٤٤١.

(٢) ابن شبرمة: عبد الله بن شبرمة بن حسان ـ القاضي الفقيه ـ كان شاعراً ثقة قليل الحديث. (ت ١٤٤) هـ تهذيب التهذيب ٥/ ٢٥٠.

(٣) أورده الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٤٦ بلفظ: نهي عن بيع وسلف، وعن شرطين في بيعة ـ قال الحافظ: في إسناده مقال. وهو قابل للتأويل ـ فتح الباري ٥/ ٣١٥.

(٤) بريرة مولاة عائشة ـ لها ذكر في الإصابة ٤/ ٢٥١، تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٠٣، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧.

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط ٣/ ٢٤٨ ـ والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٤٢ ـ ٤٦.

(٦) جابر بن عبد الله الأنصاري ـ مفتي المدينة وممن شهد بيعة الرضوان (ت ٧٨هـ) ـ تذكرة الحفاظ ١/ ٤٢ سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩، تهذيب التهذيب ٢/ ٤٢.

حملانها إلىٰ المدينة»[1] ـ البيع جائز والشرط جائز[2].

فإذا الأمر بهذه الكيفية من الحيرة، والمتصدون له بهذه الدرجة، فهل يتصور أنّ الأمر سهل؟. وهل يليق بمن لم يتبحر في العلم أن يقدم علىٰ القول في دين الله قبل أن يستوفي ما ورد في المسألة الواحدة!؟ وهل يكتفي بما في الكتب فقط؟.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣/٢٤٨، وأحمد في مسنده ٣/٢٩٩.

(٢) القصة بتمامها وطرق أسانيد أحاديثها ـ أوردها الحاكم في معرفة علوم الحديث/ ١٢٢ ـ ١٢٨.

وانظرها في التنبيه علىٰ الأسباب التي أوجبت الاختلاف ١١٥ ـ ١١٧، ومجمع الزوائد ٤/٨٥، وقال: رواه الطبراني في الأوسط.

جنة العالم لا أدري. نصف العلم لا أدري. وما ذاك إلا لأن التوقف عن الفتيا وعدم التسرع بالوقوع فيها، والتحرز منها ما وجد العالم إلى ذلك سبيلاً سمة من سمات علماء الآخرة.

لا سيما إذا سئل عما يشك فيه، أو عما يظنه باجتهاد أو تخمين. فإن توقفه والحالة هذه ما لم يكن متحققاً من الإجابة، مستنداً إلى نص من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس ظاهر، فله أجره الذي لا يقل عن أجر من نطق، خاصة مع استحضار النية عند التوقف.

لأن الاعتراف بعدم العلم شديد على النفس، ثقيل، فإن تحمله في الدنيا وإلا فكما قيل: من أخطأ لا أدري فقد أصيبت مقاتله.

أخبر ابن عباس أن رجلاً أجنب، فسأل، فأمر بالغسل، فمات. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ما لهم؟ قتلوه؟ قتلهم الله. ثلاثا. قد جعل الله الصعيد أو التيمم طهوراً»[1].

فانظر خطورة الإقدام على الفتوى بجهل، وكيف عرضت صاحبها للدعاء عليه بالقتل. وتعلم من نبيك وكن وريثه.

ذلك أنه لما جاء رجل إليه ﷺ، فقال: «يا رسول الله أي البقاع

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ١/ ١٢٥، وابن ماجه في سننه ١/ ١٨٩، وابن حبان في صحيحه ١/ ٣٠٤ ـ وانظر الإحسان، وهذا لفظه ـ وابن خزيمة في صحيحه ١/ ١٣٨، والحاكم في مستدركه ١/ ١٦٥، والدارقطني في سننه ١/ ١٩٠، وابن حبان كما في موارد الظمآن/ ٧٦، والحديث ضعفه البوصيري للانقطاع الذي فيه، إذ هو من إرسال عطاء بن أبي رباح ـ مصباح الزجاجة ١/ ١٣٧.

خير؟ قال: لا أدري. فقال: أي البقاع شر؟ قال: لا أدري. قال: سل ربك، فأتاه جبريل ﷺ، فقال يا جبريل: أي البقاع خير؟ قال: لا أدري. فقال: أي البقاع شر؟ قال: لا أدري. فقال: سل ربك، فانتفض جبريل انتفاضة كاد يصعق منها محمد ﷺ، وقال ما أسأله عن شيء. فقال الله عز وجل لجبريل سألك محمد أي البقاع خير فقلت: لا أدري، وسألك أي البقاع شر فقلت لا أدري. فأخبره أن خير البقاع المساجد، وأن شر البقاع الأسواق»[1].

وثبت توقف النبي ﷺ، في غير هذا ـ لما قال: «ما أدري أعزير نبي أم لا، وما أدري أتبع ملعون أم لا»[2]؟

من هنا، بات الصحابة رضوان الله عليهم، ما بين مجيب ومتوقف. وكان من الفقهاء من يقول لا أدري أكثر مما يقول أدري.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: أيها الناس، من سئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم. وإن الله تبارك وتعالىٰ قال لنبيّه ﷺ، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ٣٨/٨٦.

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: هي زباء[3] هلباء، ذات وبر لا

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٤/٨١، والبيهقي في سننه ٧/٥٠. والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٦، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبيد بن واقد القيسي ـ وهو ضعيف. والحديث عند مسلم في صحيحه مختصراً، بلفظ أحب البلاد إلىٰ الله مساجدها، وأبغض البلاد إلىٰ الله أسواقها، ١/٤٦٤ ـ ومثله عند البزار ١/٢٠٦ كما في كشف الأستار، وأورده ابن عبد البر بتمامه في جامع بيان العلم وفضله ٢/٥٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة ٤/٢١٨، والحاكم في مستدركه ٣/٤٥٠ وصححه وأقره الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٥٢.

(٣) زباء ذات وبر يقال للداهية الصعبة، والزبب كثرة الشعر، يعني أنها جمعت بين الشعر والوبر، النهاية ٢/٢٩٣.

أحسنها، ولو ألقيت على بعض أصحاب رسول الله ﷺ، لأعضلت به، وإنما نحن في العنوق ولسنا في النوق، فقال له أصحابه قد استحيينا لك مما رأينا منك! فقال ولكن الملائكة المقربين لم تستحِ حين قالت ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ ٢/ ٣٢[1]

وهذا إمام دار الهجرة - نجم السنّة - كما وصفه الشافعي، إذا جاء الأثر فمالك النجم[2]. .

ولم لا وخزائنه العلمية كما وصفت بعد دفنه سبع صناديق من حديث ابن شهاب ظهورها وبطونها ملأىٰ، وعنده صناديق من كتب أهل المدينة. مما جعل الناس يقرؤون ويقولون رحمك الله يا أبا عبد الله، لقد جالسناك الدهر الطويل فما رأيناك داكرت شيء مما قرأناه[3]

ثم إن مالكاً يسأل مع هذا عن مسائل كثيرة، ويأتيه الناس ويقول في أكثرها لا أدري ولم يكن بالمدينة بعد التابعين من يشبهه علماً وفقهاً.

قال ابن وهب: لو شئت أن أملأ الواحي من قول مالك لا أدرىٰ لفعلت[4]

ولما جاءه رجل وقال يا أبا عبد الله، جئتك من مسيرة ستة أشهر، حملني أهل بلدي مسئلة أسألك عنها، قال سل، فسأله الرجل عن المسئلة، فقال: لا أحسنها، قال فبهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، فقال أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم قال ملك لا أحسن[5]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٥٢.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ١٤.

(٣) ترتيب المدارك ١/ ١٤٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٨، جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٥٤.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٥٣.

وهذا عقبة بن مسلم[1] يقول: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً، فكان كثيراً ما يسئل فيقول: لا أدري، ثم يلتفت إلي فيقول أتدري ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم.

وهذا التوقف ثابت لكثير من الفقهاء يطول ذكرهم.

وكان منهم القاسم بن محمد إذ قال لمن سأله: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول إني رفعت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه يا ابن أخي الزمها فوالله ما رأيتك في مجلس أقل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به[2].

ولم يكن هذا حكراً على علماء الشريعة من حديث وفقه، بل تعداه إلى علماء اللغة فكانوا على الدرب، فأخذوا بمأخذ الفقهاء والمحدثين، ذلك أنه كما قال أبو عمرو الزاهد[3] كنت في مجلس أبي العباس ثعلب فسأله سائل من شيء فقال: لا أدري، فقال له: تقول لا أدري وإليك تضرب أكباد الإبل، وإليك الرحلة من كل بلد؟ فقال له: لو كان لأمك بعدد لا أدري بعراً لاستغنت[4]. وثعلب كما وصف، فاروق النحويين وأصدقهم لساناً، وأعظمهم شأناً، وأصحهم علماً وأوسعهم حلماً، وأتقنهم حفظاً، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا.

---

(١) عقبة بن مسلم التجيبي (ت ١٢٠هـ) تقريباً. حدث عن عدد من الصحابة ـ تهذيب التهذيب ٧/٢٤٩.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٥٣، ٥٤.

(٣) أبو عمرو الزاهد ـ الإمام الأوحد، العلامة، الملقب بغلام ثعلب (٢٦١ ـ ٣٤٥ هـ).
من أقواله: ترك قضاء حقوق الأخوان مذلة، وفي قضاء حقوقهم رفعة.
له ترجمة في: تاريخ بغداد ٢/٣٥٦، طبقات الحنابلة ٧/٦٧، وفيات الأعيان ٤/٣٢٩، تذكرة الحفاظ ٣/٨٧٣، سير أعلام النبلاء ١٥/٥٠٨.

(٤) تاريخ بغداد ٥/٢٠٩.

أنوار الحق

على الحق الخالص نور. ولكلام النبوة نور، وأدلة تؤيده، وسمات تظهره. فكل كلام تظهر عليه ملامحه.

كذا لزيغات أهل البدع والنفاق والضلال، سمات وملامح. فوجب التفريق والإنصاف.

قال معاذ رضي الله عنه[1].

إياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به، فإن على الحق نوراً.

قالوا: وكيف زيغة الحكيم! قال هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذه! فاحذروا زيغته ولا يصدنكم عنه، فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق، وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، فمن ابتغاهما فقد وجدهما[2].

وعنه قال: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي تقول ما هذه؟ ولا ينيئنك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع ويلقى الحق إذا سمعه فإن على الحق نوراً[3].

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو (ت ١٧ هـ) وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة، الجرح والتعديل ٨/ ٢٤٤، طبقات الشيرازي/ ٤٥، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٤٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١٩، تهذيب التهذيب ١٠/ ١٨٦، شذرات الذهب ١/ ٢٩.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١١١.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢١٠، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٥٧، الحلية ١/ ٢٣٣.

معادلات يفهمها المخلصون.

- الحذر من زيغة الحكيم، فالحكيم قد يزيغ، فضلاً عن الوقوع في البدع، والنفاق.

- وجوب قبول الحق وتلقيه ممن جاء به - وكذا البحث عنه والذهاب إليه وعدم انتظاره - فقد يطول. . .

- كل حق يسأل عنه أهله.

- يرتب هذا - أمراً آخر، التمييز بين العلماء وأدعياء العلم المتشبهين بهم، فنعرف فضل العلماء ومراتبهم وحقوقهم، ونحذر ممن مسخوا الحق وزيفوه وشوهوا العلم بتعمد. كما نحذر الخلط بين الفريقين، وألا يجرنا موقفنا من المتشبهين بالعلم إلى سحبه وتعميمه على غيرهم.

- خطورة الاستخفاف بالعلم والعلماء.

قال ابن المبارك: من استخف بالعلماء ذهبت آخرته[١].

وسئل مرة بحضرة ابن عيينة عن مسألة فقال: إنا نهينا أن نتكلم عند أكابرنا[٢].

وجاءه رجل من بني هاشم، ليسمع منه فأبى أن يحدثه، فقال الشريف لغلامه، قم بنا فإن أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال يا أبا عبد الرحمن: تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني؟ فقال: أذل بدني ولا أذل الحديث[٣].

فانظر هذا - وكن على يقين أن من استخف بالعلم استخف به العلم.

---

(١)(٢)(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٨، ٤٢٠، ٤٠٤.

قالها شعبة بن الحجاج، لجابر بن يزيد الجعفي[١] أحد الثقات العدول المأمونين ـ حتى قال سفيان: ما رأيت أروع منه في الحديث؟ وقال عنه شعبة: صدوق ما شككتم في شيء فلا تشكوا أن جابر الجعفي ثقة، ثم قال الشعبي: يا جابر لا تموت حتى تكذب على النبي ﷺ.

قال إسماعيل بن أبي خالد[٢] فما مضت الأيام والليالي حتى أتهم بالكذب.

وقد أطال الذهبي الكلام عن جابر وعن أسباب هذا التحول البغيض والأصل فيه كما قال خلف بن سالم[٣] أن من استخف بالحديث استخف به الحديث[٤].

نسأل الله السلامة.

---

(١) جابر بن يزيد الجعفي ـ له ترجمة في المجروحين ١/٢٠٨، ميزان الاعتدال ١/٢٧٩، تهذيب التهذيب ١/٤٦.

(٢) إسماعيل بن أبي خالد ـ كوفي تابعي ثقة (ت ١٤٦ هـ) تهذيب التهذيب ١/٢٩١.

(٣) خلف بن سالم المخرمي، ثقة حافظ، صنف المسند، تقريب التهذيب ٢/٢٢٥.

(٤) المدخل إلى كتاب الإكليل/٦٣.



الفصل السادس

مزرعة النوائب

- الدنيا حانوت الشيطان.
- المال حواز القلوب.
- نير المصائب.
- خائنة القلوب.
- وأولادكم فتنة.
- جهد البلاء.

وأجمع الحكماء والعقلاء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم.

وأن من رافق الراحة، فارق الراحة في دار النعيم والراحة.

وأن شجر المكاره يثمر المكارم.

وأن من تعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ولن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي.

ولن تبلغ الذي تحب إلا بالصبر على ما تكره.



الدنيا حانوت الشيطان
عيشها نكد
وصفوها كدر

كل ما للإنسان فيه حظ قبل الموت فهو من الدنيا، خاصة إذا فنى واعتراه الزوال والاضمحلال، ولم يسلم من عيب. وأعقب ندماً وحسرة، بزواله، أو بذهاب الإنسان عنه.

أما إذا بقي، وسلم من العيب، وأعقب فرحاً وسروراً في العاجل براحة النفس، وسكينة القلب، وهدوء البال.

وفي الآجل بالجنة والنظر إلى وجه الله الكريم. فهو وإن كان في الدنيا فليس منها.

وحظوظ الدنيا مع تشعبها ووفرتها فبينها نوع تتابع وترابط وتنوع، إذ يدعو بعضها بعضها، ويشد بعضها بعضا.

ويندرج تحتها جميع المهلكات والفتن، ويجمعها «فتنة المحيا والممات» من جاه، وظلم، واستبداد، وخلاف، وكمال وهمي، ومال وولد، وحريم، وشهوة، وشبهة، وجهل، وجهالات، وضلال، وضلالات، . . . . . وكل ما يعرض للإنسان مدة حياته من فتن، والتي آخرها ما يتعلق بأمر الخاتمة، كآخر عهد للمرء بالدنيا.

- تعريف فتنة الممات:

الفتنة عند الموت.

وقد أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا ما قبل الموت.

ويجوز أن يراد بفتنة الممات، فتنة القبر.

وقد ورد هذا صريحاً في السنة «إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال..»[1]

وقيل أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع فقدان الصبر، وبفتنة الممات، السؤال في القبر مع الحيرة. وهذا من العام بعد الخاص، لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا[2]..

---

(١) جزء من حديث طويل تقدم تخريجه/٢٨.

(٢) فتح الباري ٢/٣١٩.

الدور التي يمر بها الإنسان

الدور التي يمر بها الإنسان ثلاثة.

دنيا، وأخرى، وبينهما برزخ.

والعاقل من يعطي كل دار ما يناسبها، ويعمل لها بمقدار مكثه وبقائه فيها.

فيترك الدنيا قبل أن تتركه، ويعمر قبره قبل أن ينتقل إليه، ويرضي ربه قبل لقائه.

العمل لكل دار بما يناسبها، هوما دلت عليه الشرائع، والفطر السليمة، والعقول الصحيحة، وإن كان الواقع بخلافه.

فما سنتركها أنهمكنا فيها، وعشنا لها، وخربنا ما سننتقل إليها، ولذلك يهولنا الأمر، أمر المطلع، والمرتقىٰ صعب، فنندم ولا ينفع، ونتمنى الرجوع إلى الدنيا لتدارك الأمر، والعمل على التصحيح.

قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ٢٣/٩٩، ١٠٠.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾، ٣٥/٣٧.

ولو أبصر المرء حقيقة الأمر لتدبر ولقال لنفسه ها أنت في الأمنية فافعلى، قبل أن يحال بينك وبين الإجابة ثم يعالجها بالتخيير

والإلزام، كما كان إبراهيم بن يزيد التيمي[1]. لما تمثل الأمر على هذا النحو، قال: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها. وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها..

ثم قلت يا نفسي أي المنزلتين تحبين؟.

قالت أحب أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً فأدخل الجنة ـ قال: ها أنت في الأمنية فافعلي.

فمن يقوم بالدور؟.

وإبراهيم التيمي هو الذي قال لجيله: كم بينكم وبين القوم؟ أقبلت عليهم الدنيا فهربوا، وأدبرت عنكم فاتبعتموها[2].

فكيف لو عاش بيننا الآن!.

---

(١) إبراهيم التيمي، القدوة، الفقيه عابد الكوفة، كبير القدر (ت ٩٢ هـ).
كان يقول: ما عرضت قولي على عملي إلا خفت أن أكون مكذباً ـ وقال: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه، طبقات ابن سعد ٦/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٠، تهذيب التهذيب ١/ ١٧٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦١.

قدر الدنيا

من أعظم ما وصفت به الدنيا أنها فانية زائلة.

فهي عرض، لا بقاء له ولا استقرار.

قال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى..؟

ومع فنائها، فهي قليلة مهينة لا تساوي شيئاً، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ٤/ ٧٧.

وهي سجن المؤمن، مضرة بالآخرة ـ إذا كانت هي الغاية ـ لا تصفوا لمسلم، ما إن تضرب بيدك في ركن من أركانها، إلا ويسبقك الفجار والأشرار إليه.

في طلبها مذلة النفوس، لا تصيب منها شيئاً إلا نقص من درجتك عند الله غداً.

وهذا من شؤمها وبلائها.

ففي السنة أن النبي ﷺ، قال: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[1].

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا عند الله، أنه لا يعصي إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها.

---

(١) الحديث أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم/٢٧٨، وحكم بصحته.

وقال عيسى: «يا معشر الحواريين أرضوا برديء الدنيا. كما رضي أهل الدنيا برديء الدين».

من ثمّ أجمع الحكماء والعقلاء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، وأن من رافق الراحة، فارق الراحة في دار النعيم والراحة، وأن شجر المكاره يثمر المكارم، وأن من تعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، ولن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ الذي تحب إلا بترك ما تكره..

قال المسيح عليه السلام: «وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا..».

هذا قدر الدنيا عند الله وهي له خلقاً وملكاً، فما ينبغي أن يكون قدرها عندك وهي ليست لك؟.

طلاب الدنيا

لو أبصر المرء حقيقة الدنيا لعدها حقيرة، ولهانت عليه، وخرج منها لا عليه ولا له.

إلا أن الأمر بخلاف ذلك.

فقد أخبرت السنة النبوية أن طلاب الدنيا في ازدياد مستمر، وأن من الناس من يقدمها، بل يؤثرها على دينه، وربما تنازل عن دينه بالشيء القليل منها...

«ليغشين أمتي من بعدي فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل»[(١)].

وعند أحمد كما في المسند: يبيع أقوام أخلاقهم بعرض من الدنيا يسير.. أو بعرض من الدنيا..

قال الحسن: والله لقد رأيناهم، صوراً ولا عقول، أجساماً ولا أحلام، فراش نار وذبان طمع، يغدون بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينه بثمن العنز[(٢)].

أرأيت كيف تم البيع والشراء؟.

وما تم هذا إلا بسبب حب الدنيا، والإتفاق على حبها وتلك فضيحة شنيعة.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٤/٤٣٨ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٤/٢٧٣.

اصطلحنا في حب الدنيا والقوم حينما يصطلحون يفتضحون، اصطلحوا فافتضحوا.

وهذا كله من البلاء والفتن.

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن.

إن طلب الدنيا خروج بالإنسان عن مهمته التي خلق لها، ووضع للأمر في غير موضعه.

فوجب الرضا منها بالقليل، وارتفاع الهمة عنها، والزهد فيها.

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره — فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة — وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال بعض الحكماء.

كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهله منها على وجل.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك.

يا مخدوعاً قد فتن — يا مغروراً قد غبن
من لك إذا سوى عليك اللبن — في بيت قط ما سكن
سلب الرفيق نذير — والعاقل فطن

* * *

أنت في دار شتات — فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم — صمته عن شهواتك
وليكن فطرك عند — الله في يوم وفاتك

* * *

إياك والدنيا فإن حب الدنيا مبتوت واقنع منها باليسير فما يعز القوت
يا قوت الندم يغني عن القوت واحذر منها فإنها أسحر من هاروت وماروت[(١)]

فإن صرفها الله عنك فلكرامتك عليه، وإن زواها عنك، فمن باب اللطف بك، واعلم أن نعمه عليك فيما صرف عنك أعظم من نعمته فيما صرف إليك.

قال وهب: إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام، إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك القرى، وما ذاك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي موفراً، لم أعجل لهم شيئاً في الدنيا لم تكمله[(٢)].

ويشهد لهذا ما ثبت في السنة «إن الله إذا أحب عبداً حماه عن الدنيا، كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء»[(٣)].

وقال الفضيل: ليست الدنيا دار إقامة، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة، ألا ترى كيف يزويها عنه ويمررها عليه بالجوع، بالعري، بالحاجة. كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها تسقيه مرة حُضضاً[(٤)] ومرة صبراً، وإنما تريد بذلك ما هو خير له[(٥)].

---

(١) المدهش لابن الجوزي/ ٢٤٢.
(٢) جامع العلوم والحكم/ ٢٧٨.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣٨١ وقال: حسن غريب.
(٤) عصارة شجر معروف مر المذاق يتداوى به يشبه الصبر.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٤.

مساومة

قال بعض السلف: ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاما[1].

ثم اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه ثم يزول معك أينما زلت[2].

قال عمر: لولا أن تنقص من حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكن سمعت الله عير[3] قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ ٤٦/ ٢٠.

قد كانوا يملكون الطيبات إذاً، ولكنهم استنفذوها في الحياة الدنيا، فلم يدخروا للآخرة منها شيئاً، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساباً، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمَّ كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله..[4].

---

(١) الوابل الصيب/٤٣.

(٢) نفسه/٤٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٥٥.

(٤) في ظلال القرآن ٢٦/ ٣٢٦٤.

هو إذا من الرصيد.

إن أكثرت، أو أقللت هو من رصيدك.

ولأن مفاتن الدنيا براقة خلابة، ولأنها أنواع وضروب مؤثرة، منها ما يتعلق بالعقيدة - أو بالسلوك، أو بالنظام الاجتماعي... فقد جاءت آيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ، مزهدة فيها، وما تخوف النبي ﷺ، على الأمة من شيء تخوفه من الدنيا، أن تبسط عليهم، فيقع التنافس، ويعقبه الهلاك ولا بد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ ١٠/٧، ٨.

وقال عمر: لا تفتح على قوم الدنيا إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

نظرة القرآن إلى الدنيويين

من خلال النظر في آيات القرآن الكريم، ندرك بعداً يجب تأمله.

صفة من يعتز أو يغتر بدنياه، العامل لها، ومن ثمَّ ندرك حقيقة الافتتان بها.

من ذلك:

* مخالفة الميثاق مع الله، والاعتماد على الدهاء ومواثيق الأرض، ويترتب على ذلك قتل النفس، وإخراج الناس من ديارهم، والتعاون على الإثم والعدوان.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٢/ ٨٤ ـ ٨٦.

* إهمال قواعد الإسلام وآدابه في العلاقات والمعاملات، وذلك بالتسرع في الحكم وأخذ الناس بالظن وعدم التبين والتثبت.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ٤/ ٩٤.

* الاستخفاف بالدين والتلاعب به، ومثله كل من لا يجعل لدينه وقاره باتخاذه قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة وخلقاً وسلوكاً وشريعة وقانوناً.

قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ٦/ ٧٠.

* الوقوف عند الحياة الدنيا، وعدم إدراك أن الآخرة من ضرورات النظام الرباني، لذا فهم ينسون لقاء الله، ولا يرجونه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ ١٠/ ٧.

وقال سبحانه ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ٤٥/ ٣٤، ٣٥.

* كفر النعمة، نعمة إرسال الرسول بالكتاب، وهي نعمة كبرى يعجز الإنسان عن شكرها. قال الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ١٤/ ٢، ٣.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ١٦/ ١٠٦، ١٠٧.

* التولي والإعراض عن ذكر الله، وعن القرآن والدعوة... ومن ثمّ عدم الانتفاع به، وقد أمر الله نبيه ﷺ، وأمر الله لنبيه أمر لكل مسلم، بإهانة من كان هذا حاله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ ٥٣/ ٢٩.

* البغي والاعتداء والطغيان وتجاوز الحد والحق والهدي، والجري وراء الأهواء والبدع. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ ٧٩/٣٧ ـ ٣٩.

هذه أبعاد ندرك منها صفات الدنيويين. كما في القرآن، فلا تجلب لنفسك الغفلة عن عاقبة أمرك، والزم الأدب، وفارق حب الدنيا والهوى، والغضب، واعمل للسلامة منها، فإن من أحب دنياه وسرته، ذهب خوف الآخرة من قلبه.

هذا وجميع ما ورد في الدنيا من ذم، فإنما مرده إلى أفعال بني آدم الواقعة فيها لا سيما إذا وقعت على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، وإنما وقع على ما تذم عاقبته.

لا أن الذم راجع إلى الزمان من الليل والنهار، فإن الله جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً. لذا وجب إحسان السير عليهما إلى الآخرة، فهما مطيتان.

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق   والليالي متجر الإنسان والأيام سوق

كما أن الذم ليس عائداً إلى المكان من الأرض، وما أودعه الله فيها، فذلك كله من نعم الله على عباده.

ولهذا فسرت فتنة الدنيا، بفتنة الدجال، وهذا ثابت كما في الصحيح «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلي أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ـ يعني فتنة الدجال ـ وأعوذ بك من عذاب القبر»[١]..

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، دعوات: باب التعوذ من عذاب القبر ٩٧/٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء: باب التعوذ من العجز والكسل ٢٠٧٩/٤.

وجاء التحذير من زهرة الدنيا والتنافس فيها، والمعنى بهجتها ونضارتها وحسنها.

قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها، ولا ينافس غيره فيها. ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى، لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى، والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالباً، والفقير آمن من ذلك[1]. وفي الحديث «إن أكثرما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل وما بركات الأرض؟. قال: زهرة الدنيا، فقال رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ، حتى ظننت أن ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلمّ[2]، إلا آكلة الخضرة، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس، فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[3]..

يؤخذ منه أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير، وإنما يعرض

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٤٥.

(٢) يقتل حبطا أو يلم: الحبط انتفاخ البطن من كثرة الأكل، يقال حبطت الدابة تحبط حبطاً فأصابت مرعى طيباً فأمعنت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٣١.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، رقاق: باب ما يجد من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ١١٢، ومسلم في صحيحه، زكاة: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ٢/ ٧٢٧ ـ وابن ماجه في سننه، فتن، باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٣، وأحمد في مسنده ٣/ ٧، ٢١، ٩١.

له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع، وأن كل شيء قضىٰ الله أن يكون خيراً فلا يكون شراً وبالعكس، ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب له الشر.

قال الأزهري: هذا الحديث إذا فرق لم يكد يظهر معناه، وفيه مثلان:

أحدهما للمفرط في جمع الدنيا المانع من إخراجها في وجهها، وهو ما تقدم، أي الذي يقتل حبطاً.

والثاني المقتصد في جمعها وفي الانتفاع بها، وهو آكلة الخضر.

قال الحافظ: ويؤخذ من الحديث التمثيل لثلاثة أصناف، لأن الماشية إذا رعت الخضر إما أن تقتصر منه على الكفاية، وإما أن تستكثر. الأول الزّهاد، والثاني إما أن يحتال على إخراج ما لو بقي لضر، فإذا أخرجه زال الضرر واستمر النفع، وإما أن يهمل ذلك. الأول العاملون في جميع الدنيا بما يجب من إمساك وبذل، والثاني العاملون في ذلك بخلاف ذلك.

وفي الحديث غير ما تقدم من وجوه التشبيهات البديعة، تشبيه المال ونحوه بالنبات، تشبيه المنهمك في الكسب والأسباب بالبهائم المنهمكة في العشب، تشبيه الاستكثار بالشره، تشبيه الخارج من المال بما تطرحه البهيمة، تشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدواً. . .[1].

نخلص إلى أن زهرة الدنيا والمال على هذا فتنة، فخرجا عن كونهما خيراً حقيقياً لما يحدثانه من انشغال وعدم إقبال على الله تعالى.

---

(١) فتح الباري ١١/٢٤٦.

ثم ومن مراجعة تراجم البخاري لأبواب كتاب الدعوات، ندرك أن الذم راجع إلى أفعال بني آدم لا إلى الزمان ولا إلى المكان، وإليك بعضاً من تراجمه.

التعوذ من جهد البلاء، التعوذ من الفتن، التعوذ من غلبة الدين، التعوذ من فتنة المحيا والممات، التعوذ من الجبن والكسل، التعوذ من البخل، التعوذ من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا، التعوذ من فتنة الغنى، التعوذ من فتنة الفقر، التعوذ من فتنة الدنيا.

وكلها أمور وقضايا كما تشعر الترجمة مما يقع في الدنيا من أعمال العباد.

محبة الدنيا محنة، عيونها بابلية، كم تفتح باب بلية، ولا حلية كحلية من عين كحيلة، كم أفردت من أرفدت، كم أخمدت من أخدمت، كم فللت من ألفت، كم أفقرت من رافقت، كم فارقت من رافقت، كم قطعت من أقطعت، فعلها في التكدير كله هكذا، فإن آثرت الصفا فما في الزهد أذى، وإن أردت القذى فالق ذا[1].

---

(١) المدهش/١٥٤.

المال حواز القلوب

فتن الدنيا كثيرة الشعب، واسعة الأطراف.

والمال أعظم فتنها لأنه لا غنى لأحد عنه ولا بد منه، ففي وجده آفة، وفي فقده فاقة، في وجده طغيان وترف، وفي فقده آفات وغوائل، فمن عرف غوائله أمكنه الاحتراز منه.

والمال له صفة الميل والانحناء والانعطاف إلى الفناء، فما سمى مالًا إلا لكونه مائلاً زائلاً.

قال الراغب: ولذلك سمي عرضاً، غير ثابت، وعلى هذا دل قول من قال: المال قحبة تكون يوماً في بيت العطار. ويوماً في بيت بيطار[1].

وأيضاً فالناس يميلون إلى صاحبه. ومن لا عنده مالٌ فعنه الناس قد مالوا ـ فيميلون عنه عند فقده.

ومع هذا ـ فالمال سبيل موصل إلى غايات، ولا شك أن بلوغ هذه الغايات لا سيما ما فيه صلاح من الفروض والواجبات. بل من مقاصد الشرع حفظه وتنميته لأنه سبب موصل إلى غاية. ولأنه سبب بقاء المرء، ومن عوامل قوامه، وعليه تتوقف حياة الإنسان. وحفظ المال إنما يكون بما يثبت أركانه، ويقيم قواعده، وحمايته من الاختلال الذي يمكن أن يطرأ عليه بعد وجوده.

---

(١) المفردات/ ٤٧٨.

والمال عصب الحياة، وأحد الضرورات، وهو دواء الأمة، كما أن العالم طبيبها. والدواء يؤخذ بقدر وبدون إفراط وعلى قدر الحاجة، والمال منبهة للكريم، وغنى عن اللئيم، به يكف المرء وجهه، ويؤد أمانته، ويصون عرضه، وهو عون على الدين.

والغنى من العافية، وصلاح المعيشة من صلاح الدين، وصلاح الدين من صلاح العقل والقلب.

والقصد أن يطلب المال من حله، ويوضع في حله، ويؤدي حقه، وأن يطاع الله فيه، ويستعان به على مرضاته، ويتقىٰ به غضبه.

من فقه السلف

ـ منهم من نفى عن نفسه كراهة جمع المال، وميز بين ذلك وبين حب الدنيا ـ كابن عمر إذ قال: لو كان عندي أحد ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك، أو ما خشيت أن يضرني[١].

وإن كان في كلامه ما يشعر باحتمال الضرر؟

ومنهم من خاف الحساب كأبي الدرداء ـ لما قال: أهل المال يأكلون كما نأكل، ويشربون كما نشرب، ويلبسون كما نلبس، ويركبون كما نركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها، وننظر إليها معهم، وحسابهم على الله ونحن منها براء.

وعنه قال: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذ، ما أنصفنا إخواننا الأغنياء: يحبوننا على الدين، ويعادوننا على الدنيا[٢].

ومنهم من أحب أن يخلف ثروة ولو حاسبه الله عليها، كسفيان الثوري قال: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن احتاج إلى الناس.

وقال: كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن.

وسئل: يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير؟. وكانت بيده، قال: اسكت فلولاها لتمندل بنا الملوك[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٠.

(٣) طبقات الحنابلة ١/ ١٥٩ سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤١.

ـ ومنهم غير واحد قالوا: ليس من حبك الدنيا طلبك ما يصلحك فيها.

بل عدوا من فقه الرجل المسلم استصلاح معيشته، وأن صلاح المعيشة من صلاح الدين، وقالوا: السعة عون على الدين، ونعم العون على التقى الغنى.

واتخذوا الأسباب الموصلة إلى ذلك.

فهذا عمر رضي الله عنه يقول: يا معشر القراء، استبقوا الخيرات وابتغوا من فضل الله، ولا تكونوا عيالاً على الناس.

وقال أبو قلابة[1] قال لي أيوب: الزم سوقك فإن فيها غنى عن الناس وصلاحاً في الدين[2].

لذا لا تعجب وأنت تطالع أخبار السلف وما خلفه بعضهم من مال، ومنهم ابن مسعود: مات وترك سبعين ألف درهم، كذا عمر وأبو بكر، وعبد الرحمن ابن عوف[3] وغيرهم.

بل إن عبد الرحمن، قد خلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً.

---

(١) أبو قلابة الجرمي/ عبد الله بن زيد، أحد الأعلام (ت ١٠٤هـ) ذكر عند ابن سيرين فقال: ذاك أخي حقاً، وهو ممن ابتلى في بدنه ودينه أريد على القضاء فهرب إلى الشام، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع هذا حامد شاكر. طبقات ابن سعد ٧/١٨٣، الحلية ٢/ ٢٨٢، طبقات الشيرازي/٨٩، سير أعلام النبلاء ٤/٤٦٨، تذكرة الحفاظ ١/٨، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٤، شذرات الذهب ١/١٢٦.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٤.

(٣) عبد الرحمن بن عوف، أحد العشرة، ومن السابقين البدريين (ت ٣٢ هـ) حلية الأولياء ١/٩٨، سير أعلام النبلاء ١/٦٨، تهذيب التهذيب ٦/٢٤٤، شذرات الذهب ١/٣٨.

وكان لكل امرأة من نسائه بعد موته مئة ألف[1].

ومن جيل التابعين سعيد[2] ترك أربعمائة دينار، وقال: إني والله ما تركتها إلا لأصون بها عرضي أو وجهي.

وأورد ابن عبد البر بسنده أن عبد الرحمن بن شريح[3] وعمرو بن الحارث[4] جمع بينهما الصف في المسجد فلما سلم الإمام، قال ابن شريح لعمرو بن الحارث، يا أبا أمية، ما تقول في رجل ورث مالاً حلالاً فأراد أن يخرج من جميعه إلى الله زهداً في الدنيا ورغبة فيما عنده قال: لا تفعل؟ قال ابن شريح فقلت لعمرو، سبحان الله، لا يفعل لا يزهد في الدنيا؟ فقال عمرو بن الحارث ما أدب الله به نبيهﷺ، أفضل من ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ ٢٩/١٧ ولكن يقدم بعضا ويمسك بعضا.

فانظر هذا وتأمله جيداً. وانظر معه مدى التراحم والتواصل بين العلماء وهو أحد وظائف المال وضرب من معرفة حقه وتأدية واجبه.

فصيانة الوجه تتعدى وجه صاحب المال إلى غيره من أهل الشرف والإخوان.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٩٢.

(٢) سعيد بن المسيِّب بن حَزْن ـ عالم المدينة وسيد التابعين في زمانه. (ت ٩٣ هـ) من أقواله: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم. طبقات ابن سعد ٥/١١٩. طبقات الشيرازي/٥٧، وفيات الأعيان ٢/٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٤/٢١٧، تذكرة الحفاظ ١/٥١، تهذيب التهذيب ٤/٨٤.

(٣) عبد الرحمن بن شريح المعافري (ت ١٦٧ هـ) ـ كان صاحب عبادة وفضل. وثقه ابن حبان، شذرات الذهب ١/٢٦٣.

(٤) عمرو بن الحارث المصري ـ الفقيه (ت ١٤٨ هـ) كان أحفظ الناس في زمانه: قال ابن وهب: ما رأيت أحفظ منه ولم يكن له نظير في الحفظ ـ شذرات الذهب ١/٢٢٣.

أرسل ابن المبارك، إلى أبي بكر ابن عياش[1] بألف درهم وقال سد بهذه فتنة القوم عنك[2].

هذا الجانب يجب أن يتيقظ من جديد في قلوب أبناء الأمة خاصة العلماء ومن قال فيهم الثوري: المال داء الأمة والعالم طبيبها، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس[3].

فانظر هذه الموازنة الدقيقة التي اقتضت سد كل أبواب الفتنة، وعدم الاحتياج إلى الناس، وصيانة الوجه.

وتأمل معنى آخر في كيفية الصيانة ـ لما سأل أحد تلامذة الإمام أحمد، قال: إن فلاناً ربما سعى في الأمور، مثل المصانع، والمساجد، والآبار. قال: فقال لي أحمد: لا، نفسه أولى به، وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجه[4].

أو لما استشار رجل الإمام الثوري في الحج، قال: لا تصحب من يكرم عليك، فإن ساويته في النفقة أضرّ بك، وإن تفضل عليك استذلك[5].

أرأيت كيفية الحفاظ على ماء الوجه وصيانته، عند نقص الأموال وإرادة عمل الخير، وما يحتاج إلى المزيد منه، وهو أمر قديم معتمد ضمن أساسيات الفقه الإسلامي وأولويات المنهج الدعوي.

فنفس المرء أولى من بناء المساجد والمصانع...

---

(١) أبو بكر بن عياش، مختلف في اسمه، وكان صاحب قرآن، وصبر (ت١٩٢ هـ) لم يأت فاحشة قط، وكان يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم ـ تهذيب التهذيب ١٢/٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٩٥، تذكرة الحفاظ: ١١/ ٢٦٥، ميزان الاعتدال: ٤/ ٤٩٤.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٠، سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣.

(٤) طبقات الحنابلة ١/ ١٥٩.

(٥) سير أعلام، النبلاء ٧/ ٢٤١.

حتى إنهم نفوا الخيرية عمن لم يكف بالمال وجهه عن الناس، فقال سعيد: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي حقه.

ولما تعجب الفضيل من صنيع ابن المبارك، حيث كان يأمرهم بالزهد والتقلل من الدنيا، ويطلب منهم التخفف.

قال الفضيل: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا..؟

قال يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي وأكرم عرضي واستعين به على طاعة ربي.

قال يا ابن المبارك ما أحسن ذا، إذا تم ذا؟[1].

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنىٰ عن الناس. فإنه يجمع لك دينك، فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع، ولا أفة قد طرأت علىٰ عالم إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر[2]..

وقال يوسف بن أسباط[3]: ما كان المال في زماننا أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر[4].

ففي هذا كله دليل على أن العبرة في كل شيء إنما تكون في

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٠ ـ سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٧.

(٢) صيد الخاطر/ ٢٢٣.

(٣) يوسف بن أسباط، الزاهد من سادات المشايخ، من أقواله، إذا رأيت الرجل قد أشر وبطر فلا تعظه، فليس للعظة فيه موضع، لي أربعون سنة ماحك في صدري شيء إلا تركته، الجرح والتعديل ٩/ ٢١٨، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٦٩، حلية الأولياء ٨/ ٢٣٧، ميزان الاعتدال ٤/ ٤٦٢.

(٤) عدة الصابرين/ ٣٠١.

توظيفه والتوجه به. وإن المال.. أو الدنيا، المذمومة ما قصدت للدنيا، فإن طلبت للدين والتوصل إلى الآخرة فإنها لا تذم.

أو كان ملهيا عن طلب الآخرة وإرادتها، وما لا يهلي فليس كذلك، قال يحيى بن معاذ: كيف لا أحب دنيا قدر لي فيها قوت اكتسب بها حياة، أدرك بها طاعة، أنال بها الآخرة[1]..

وقد لخص ابن عبد البر المسئلة في عبارة شافية، تأملها وكن عند حسن ظنه.

قال بعد أن أورد الكثير من النصوص والأخبار، عن الكثير من سلف الأمة، في التدليل على مذهبه في أن طلب المال من حله وتأدية حقه ليس من الدنيا المذمومة، ولا من الأمور المنهي عنها.

قال: إنما أورد هذا هاهنا، لئلا يظن ظان جاهل بما يقرأ في هذا الكتاب. أن طلب المال من وجهه للكفاف والاستغناء عن الناس، هو طلب الدنيا المكروه الممنوع منه، فإنه ليس كذلك[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم/ ٢٨٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٥.

تخوف وخشية

فإذا كان الأمر كذلك، فلأي معنى تخوف النبي ﷺ، على الأمة من المال.

فقد ثبت عنه أنه قال: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

وقال «إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي الغنى»[2].

وكان ﷺ، يستعيذ بالله من شر فتنة الغنى[3].

وفتنة الغنى: الحرص على جمع المال، وحبه حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه[4].

وتأمل أهمية التصريح في فتنة الغنى بذكر الشر.. «شر فتنة الغنى».

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجزية ٤/١١٩، وكتاب المغازي ٥/١٠٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد ٤/٢٢٧٤، والترمذي في سننه، كتاب القيامة ٤/٦٤٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن ٢/ ١٣٢٤.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد ٤/ ٥٦٩ من حديث كعب بن عياض، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في مسنده ٤/ ١٦٠ من حديث كعب أيضاً، والحاكم في المستدرك ٤/٣١٨ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر صحيح البخاري ٨/٩٨، ١٠٠، وصحيح مسلم ٤/٢٠٧٨، وسنن الترمذي ٥/ ٥٢٥، وسنن ابن ماجه ٢/ ١٢٦٢.

(٤) فتح الباري ١١/١٧٧.

فإن كان هذا فهل مضرة المال أكثر من مضرة فقده؟ أم أن هذا صدر من النبي ﷺ، على سبيل التغليظ كي لا يغتر أحد فيغفل عن مفاسده؟! أو إيماء إلى أن صورته لا يكون فيها خير بخلاف الفقر فقد يكون فيه خير؟

وقد يؤدي الغنى إلى الترف والبطر، والفسق مما هو سبب في قتل المواهب وطمر الملكات، وتعطيل الفرائض.

وقد يجر صاحبه إلى المعاصي والطغيان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ ٩٦/٦، ٧.

هذا التجاوز سببه الاستغناء. الناتج عن القوة المادية، التي ما إن يشعر بها صاحبها إلا ويعمل على إذلال غيره وتسخير الآخرين لمشيئته. والمال نوع من القدرة يحرك داعيه إلى ارتكاب الفجور واقتحام الشهوات والشبهات، ولا يسلم صاحبه من مباشرة حظوظه، ومن المال تثور العداوة والصداقة وينشأ التنافس والحسد والرياء والإنبات عليه.

وقد يعجز المرء على استدامته فيتوصل إليه بالظلم والاستعانة بالظلمة.

ومن بلاياه الانشغال بتنميته وتثميره واصلاحه، وحفظه، وقد يحصل بسبب هذا من الهموم ما يملأ القلب والعقل، ثم والخوف مما قد يعتريه ودفع الناس عنه، إلى غير ذلك مما هو سبب في انصراف المرء عن غايته الكبرى، ونسيانه لوظيفته الحقيقية. وبعده عن ربه وحرمانه منه.

قال عيسى عليه السلام: «في المال ثلاث آفات. أن يأخذه من غير حله، فقيل: إن أخذه من حله، فقال يضعه في غير حقه، فقيل

إن وضعه في حقه؟. فقال: يشغله إصلاحه عن الله تعالى...»[1]

والمال زينة للإنسان، وشهوة من شهواته العنيفة، والإقبال على سد هذه الشهوة لا يزيدها إلا تأججاً وتوسعاً ونهماً.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ ٣/ ١٤.

فليس الأمر في المال مجرد الميل والتوصل إلى المطلوب، وإنما يدل قوله تعالى ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ إلى حالات النهم والجشع الموصل إلى تكديس الذهب والفضة، هذا التكديس في ذاته شهوة فوق ما يحققه المال من شهوات أخرى.

والله سبحانه قد ذكر المال في موضع الذم ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ ٩٦/٦ ـ وأحياناً يذكره كفتنة وعامل من عوامل الابتلاء ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ ٦٤/ ١٥.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٢٣/ ٥٥، ٥٦.

استدراج، وأخذهم من الجهة التي لا يشعرون أنّ بها أخذاً.

ثم قال ربنا سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

تحذير من اللهو بالأموال والأولاد عن طاعة الله.

وفي معرض الاغترار بالمال والتفاخر به والتكاثر.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٧.

قال الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ ٣/ ١٠.

فإذا جاء وعد الله، لم تسد هذه الأموال من الله شيئاً، أو تدفع عنهم عذاباً. ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ٣٤/ ٣٥ ـ ٣٧.

فالأموال لا تقرب إلىٰ الله شيئاً إذا تجردت من العمل الصالح وكثرتها وقلتها سواء لمن كان هذا حاله أو غابت عنه حكمتها.

والمال متعة لمن لا نصيب له في الآخرة. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ٥٦/ ٤٥.

وقال النبيّ ﷺ، لعمر «أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[1] كما ذمّ الله تعالىٰ، محب المال فقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ ٨٩/ ٢٠. ومتمني الدنيا والغنىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ﴾ ٢٨/ ٨٠.

ولقد صان الله أحبابه، ومنع ما منع لطفاً وعطفاً، وتطهيراً ورفعة، وأعلمهم ربنا أنّ في البسط فتنة، وفي الغنىٰ طغياناً ومحنة. وأنّ الزيادة في جمعه وتحصيله ابتلاء واختبار، لا محبة وكرامة.

والمطلوب ـ فهم فائدة المال، وأنه آلة سلوك الطريق، وزاد المسافر، فإن أخذ المسافر فوق ما يزيد، فلربما أثقله وأعياه، فلم يبلغ مقصده، والزياده علىٰ قدر الحاجة لاحظ للعبد فيها، إنما هي إسراف، وهو حظ الشيطان، ومنفذ من منافذه، وفي الزيادة دعوة إلىٰ المعاصي

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير ٦/ ١٩٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد ٢/ ١٣٩٠.

فإن الزيادة تمكن من المعاصي. وفيها دعوة إلىٰ التنعم.

قال ابن القيم: كل ذي لب يعلم أنّ لا سبيل للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات: أحدها التزيد والإسراف، فيزيد علىٰ قدر الحاجة، فيصير فضله، وهي حظ الشيطان. ومدخله إلىٰ القلب.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتىٰ غفل فتح باب الحصن ولجه العدو.

الثالثة: تكلف الإنسان ما لا يعنيه[1].

كما أنّ في الزيادة سيطرة علىٰ النفس، وتصويراً لها أنّ المال هو القيمة الحقيقية، بل كل شيء في الحياة، وأنّ صاحبه قادر علىٰ كل شيء، ولا يقف أمامه شيء ولا يعجزه شيء. ولو كان الموت فهو قادر علىٰ دفعه ورده - ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ ١٠٤/٢، ٣.

ومع الزيادة كذلك بخل، واستغناء عن كل شيء - ولو كان هدىٰ الله سبحانه وتصديق بدعوته، وفي النهاية تردي وسقوط في العثرات، وتعسير للأمور: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ ٩٢/٨ - ١١.

---

(١) الفوائد/ ١٩١.

«هل تنتظرون إلا فقراً منسيا»؟[1]

وكان ﷺ، كثيراً ما يستعيذ بالله من فتنة الفقر، وشر فتنة الفقر[2]..

وتقييد فتنة الفقر بالشر دليل خلوه من كل خير قل أو كثر.

وفتنة الفقر يراد به الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير، ولا ورع حتىٰ يتورط صاحبه بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة ولا يبالي بسبب فاقته علىٰ أي حرام وثب ولا في أي حالة تورط[3].

والفقر والحالة هذه خطر علىٰ كل شيء - العقيدة - السلوك - الفرد - المجتمع. الأسرة - الفكر.

ولذلك عمل الإسلام علىٰ علاجه والقضاء عليه بوسائل كثيرة[4].

وقد يراد بفتنة الفقر فقر الهمة والنفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها.

فم التنين

يحتمل أن يكون معنىٰ تخوف النبيّ ﷺ، «ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكن أخشىٰ أن تبسط عليكم الدنيا...» أن الخشية مقيدة بما إذا كان الغنىٰ بعد فقر، فإذا صار الحفاة العراة أصحاب الثروة ورأس

---

(١) جزء حديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد ٤/ ٥٥٢ وقال: هذا حديث حسن غريب، والحديث في سنده محرر بن هارون، قال الحافظ في التقريب ٣/ ٢٣١، متروك.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٩٨، ١٠٠ - وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٨، وسنن الترمذي ٥/ ٥٢٥ وسنن ابن ماجه ٢/ ١٢٦٢.

(٣) فتح الباري ١١/ ١٧٧.

(٤) راجع مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

المال، وتحكموا في الناس، فسد نظام الدين والدنيا معاً، ومن مظاهر الفتن، وقد قال بعض السلف: لأن تمد يدك إلىٰ فم التنين فيقضمها خير لك من أن تمدها إلىٰ يد غني قد عالج الفقر، وللمبرد:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ... وأصبحت فيها بعد عسر أخا يسر
لقد كشف الإثراء عنك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر[1]

(١) آداب العشرة/ ٥٤.

نير المصائب

المرأة ذات كيد واحتيال واستدراج، فكيدها عظيم، تجمع بين الضعف والقوة، كلامها سكر، وتحت لسانها سحر.

- هي فتنة حين عطلت أمومتها ووظيفتها، وجعلت من نفسها أداة فساد ودعاية وغواية.

- حين صارت عنوان جنس ورمز إثارة.

- حين باتت محط كل عين نهمة ونفس مريضة عفنة، مما هو سبب خلل النفس والمجتمع.

- هي فتنة بما تحدثه من تأثير وميوعة، ووسائل خبيثة متهالكة مهيجة للغرائز.

- هي فتنة السراء، والصبر عليها صعب لخطورة مداخلها.

قال معاذ بن جبل: إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإني أخاف عليكم فتنة السراء، وإن من أشد ذلك عندي النساء إذا تحلين الذهب ولبسن رَيْط[١] الشأم، وعَصْبَ[٢] أيمن، فأتعبن الغنىٰ وكلفن الفقير ما لا يجد[٣].

فتنة النساء من أشد فتن السراء عند معاذ بن جبل أحد من ضبط عن النبي ﷺ، مسائل الفقه عامة.

---

(١) الريط: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة.

(٢) العصب: برد يصبغ غزله ثم ينسج.

(٣) عيون الأخبار ٤/ ١١٣.

وهي كذلك، أشد من كل فتنة، وأضرّ من غيرها، ولخطورتها بدأ ربنا بها في قوله تعالىٰ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ١٤/٣.

فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهنّ قبل بقية الأنواع، وفي هذا إشارة إلىٰ أنهنّ الأصل في ذلك.

- هي فتنة حين شغلت بال كل عاقل ومفكر، وتناولها كل قلم، وتحدث عنها كل محدث، وتكلم فيها كل فقيه، وروجت بها السلع، واعتمد عليها أصحاب الدعايات، وأصبحت المرأة وقضاياها فتنة تبحث في كل مكان، ويلغ فيها كل لسان.

- هي فتنة في عوجها إذا تركت، فتنة عند محاولة تقويمها، الصبر عنها خير من الصبر عليها، والصبر عليها خير من الصبر على النار.

- هي فتنة بتكوينها ونقص عقلها ودينها.

- هي فتنة إذا خرجت متبرجة بزينتها - فأمرها مبني علىٰ الستر ولو لم يتحقق بتمامه غالباً.

قال عمر رضي الله عنه: النساء عورة فاستروهن بالبيوت وداووا ضعفهنّ بالسكوت. وفي الحديث «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[1] ولهذا شرع لها أن ترخي ثيابها، ولا يجوز لها كشف شيء من بدنها إلا لضرورة.

ومن عوامل تزكية القلب وطهارة النفس إجراء الحديث معها من وراء حجاب.

ومعنىٰ استشرفها الشيطان، رفع بصره إليها ليغويها ويغوي بها،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع ٤٧٦/٣. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويوقع الرجل في فتنتها، ويوقعها في فتنة الرجل، أو يوقعهما جميعاً.

- هي فتنة عند سفرها بدون محرم.

تعدو الذئاب علىٰ من لا كلاب له — وتتقي مربض المستأسد الحامي(1)

- هي فتنة إذا تعطرت، ففي الحديث «إذا استعطرت المرأة فمرت علىٰ القوم ليجدوا ريحها فهي زانية»(2).

- هي فتنة عند الخلوة بها، فالعفة حجاب يمزقه الاختلاط. ولذا لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة بمن لا تحل له.

والنساء معراج الشرف بعفتهنّ، ونير المصائب بابتذالهنّ..

- هي هي فتنة حين تكون مطاعة في غير طاعة الله.

قال عمر رضي الله عنه: أكثروا لهنّ من قول لا، فإن نعم تضر بهنّ علىٰ المسألة.

- هي فتنة حين يكون الأمر إليها، قال الحسن: والله ما أصبح أحد يطيع امرأته إلا كبه الله في النار، فكم أهلكت الرجال حين أطاعوا النساء.

- هي فتنة حين تكثر الطلب، وترهق الرجل بما فوق الحاجة، وما لا تدعو الضرورة إليه، فبإرهاقه بما لا يطيق إساءة إلىٰ نفسها وإلىٰ رجلها، وربما ألجأه هذا إلىٰ طلب الحرام، ونيل العيش بسخط الله وفي ذلك هلاك الاثنين معاً.

---

(1) للنابغة، انظر عيون الأخبار ١٠٩/٤.

(2) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدب ١٠٦/٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في سننه، كتاب الزينة ١٥٣/٨، والدارمي في سننه، كتاب الاستئذان ٢٧٩/٢، وأحمد في مسنده ٤٠٠/٤، ٤١٤، ٤١٨، من حديث أبي موسى الأشعري.

قال بعض السلف: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنة واحدة، فأما اللتان في النساء:

فإحداهما: أن تؤدي إلىٰ قطع الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأخوات.

وثانيها: يبتلىٰ بجمع المال من الحلال والحرام.

وأما البنون فالفتنة فيهم واحدة، وهو ما ابتلي بجمع المال من أجلهم ـ.

ـ هي فتنة حين تحمل الرجل علىٰ تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور الدين وحمله علىٰ التهالك وطلب الدنيا، وذلك أشد الفساد.

ـ هي فتنة عند النظر إليها. فالنظر يزرع في القلب شهوة، وكفىٰ بها خطيئة.

لذا قالوا: لا يزني فرجك ما غضضت بصرك. احتفظ من العين، فإنها إنما عليك من اللسان. ربّ طرف أفصح من لسان. والعين تظهر ما في القلب أو تصف. أما تبصر في عينيّ عنوان الذي تبدىٰ. لذة المرأة في شهوتها، وغيرتها علىٰ قدر محبتها.

ـ هي فتنة حين تشتط في غيرتها وتنساق وراء الظنون والشبهات وتبالغ في الارتياب والتعنت واستطلاع بواطن الأمور. والغيرة بهيمة، أو هي ضرب من البخل.

وتأمل وصية أبي الأسود[1] لابنته: إياك والغيرة فإنها مفتاح

---

(١) أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو، ولد في أيام النبوة. (ت٦٩هـ) طبقات ابن سعد ٧/٩٩، وفيات الأعيان ٢/٥٣٥، سير أعلام النبلاء ٤/٨١، تهذيب التهذيب ١٢/١٠.

الطلاق، وعليك بالزينة وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب

فإني وجدت الحب في الصدر والأذىٰ ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب[1]

- هي فتنة عند المشاورة.

قال عمر: خالفوا النساء فإن مخالفتهن بركة.

وقال غيره: إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهنّ إلىٰ أفن، وعزمهنّ إلىٰ وهن، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهنّ بأشد من دخول من لا تثق به عليهن، فإن استطعت ألا يعرفن عليك فافعل، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها وأرخىٰ لبالها، وأدوم لجمالها، وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمللنك وتمللهن، واستبقِ من نفسك بقية، فإنّ إمساكك عنهنّ وهن يردنك باقتدار خير من أن يهجمن عليك علىٰ انكسار، وإياك والتغاير في غير موضع غيره، فإن ذلك يدعوا الصحيحة منهن إلىٰ السقم[2].

- هي فتنة في كيدها ومكرها، وحيلها وخداعها، هي هكذا فتنة وأي فتنة؟ بعدما قال النبي ﷺ: «إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء»[3].

وفي الجمع بين الدنيا والنساء دلالة.

---

(١) عيون الأخبار ٤/٧٧.

(٢) عيون الأخبار ٤/٧٩.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٩٨، وأحمد في مسنده ٣/٢٢.

ويدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهن وابتلاء أكثر الرجال بهن.

وفي الحديث «ما من صباح إلا وملكان يناديان، ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال»[1]..

وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء»[2].

وهذا الحديث ترجم له البخاري بقوله: باب ما يتقىٰ من شؤم المرأة. وهي ترجمة تخلع القلوب.

وفي الاعتصام والتحرز والتصون من ذلك كله صعوبة ومشقة، وأي اعتصام وموجات العري وغارات الجنس والاستغلال السيء والدعايات المغرضة لا تتوقف؟ حتىٰ أصبح هذا شغل الكثيرين الشاغل، بل غدت ممارسته والإغراق فيه أمنية الكثيرين، حتىٰ استحال التجول في أي مكان دون أن تصاب بناره أو تلاحقك آثاره.

قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن، وأشر ما فيهنّ عدم الاستغناء عنهن:

إنّ النساء كأشجار نبتن معاً ... منها المرار وبعض المر مأكول
إنّ النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واقع لا بد مفعول

فيه إشارة إلىٰ قول القائل:

ما نهيت المرأة عن شيء إلا أتته.

فهل تستقيم لك علىٰ طريق؟

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٢٥، وإسناده ضعيف.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، نكاح: باب ما يتقى من شؤم المرأة ٧/ ١١، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٩٧، وابن ماجه في سننه، فتن ٢/ ١٣٢٥. والترمذي في سننه، أدب ٥/ ١٠٣، وأحمد في مسنده ٥/ ٢٠٠، ٢١٠.

كيد امرأة

وتأمل كيد امرأة العزيز لنبي الله يوسف عليه السلام، بتغليق الأبواب، ودعائه إلىٰ نفسها، وكيدها له بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٢/ ٢٥.

فكادته بالمراودة أولاً، وكادته بالكذب عليه ثانياً، ولهذا قال لها الشاهد لما تبين له براءة يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ١٢/ ٢٨.

كيدها له حيث جمعت له النسوة، وأخرجته عليهن، تستعين بهنّ عليه، وتستعذر إليهن من شغفها.

كيد النسوة له، حتىٰ استجار بالله تعالىٰ من كيدهن فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ ١٢/ ٣٣، ٣٤.

ولهذا لما جاء الرسول بالخروج من السجن قال له ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ١٢/ ٥٠.

قال الشيخ ابن القيم: فإن قيل فما كان مكر النسوة اللائي مكرن به وسمعت به امرأة العزيز، فإن الله سبحانه لم يقصه في كتابه؟

قيل: بلىٰ قد أشار إليه بقوله ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ١٢/ ٣٠.

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر.

إحداها: قولهن ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ ولم يسموها باسمها بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أنّ الذي تراوده مملوك لاحر، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتىٰ وصل حبها له إلىٰ شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبرّ وأوفىٰ، حيث كانت هي المراودة الطالبة وهو الممتنع، عفافاً وكرماً وحياءً، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهنّ أتينَ بفعل المراودة المطالبة بصيغة المستقبل الدالة علىٰ الاستمرار والوقوع، حالاً واستقبالاً، وإن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرق بين قولك فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقري الضيف ويطعم الطعام، ويحمل الكل. فإن هذا يدل علىٰ أنّ هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهنّ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح إليها، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً علىٰ الهوىٰ، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، كما يساعد

الرجال بعضهم بعضاً على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهنّ جمعن لها في هذا الكلام بين العشق المفرط والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأما الطلب فقولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا﴾ والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق وشدة الحرص على الفاحشة، فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهنّ مكراً أبلغ منه، فهيأت لهنّ متكأ، ثم أرسلت إليهن، فجمعتهن وخبأت يوسف عليه السلام عنهن[1].

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١١٤، ١١٦، التفسير القيم/ ٣١٤، ٣١٥.

خائنة القلوب

لا يتوقف أثر افتتان المرأة علىٰ ما يظهر منها، أو يبدو علىٰ جوارح الرجل من فتنة النظر وعشق الصورة وإظهار الزينة، وكل ما يجمل المرأة في عين الأجنبي فيلتذ به ويستمتع برؤيته أو شمه أو ملامسته، أو سمعه بإذنه، وما أكثر ما يبعثه اللسان من فتن مما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ ٣٣/ ٣٢.

وربما سكت اللسان وقامت حركات أخرىٰ أشد تأثيراً في السمع وهو ما عبر عنه القرآن بقوله ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ ٢٤/ ٣١.

وقد تقوم المرأة بما هو أخطر وأشد فتنة حين تباشر امرأة أخرىٰ، ثم تصفها لرجل كأنه قام فنظر إليها.

وفي الحديث «لا تباشر المرأة المرأة، حتىٰ تصفها لزوجها كأنه ينظر إليها»[1].

لما في ذلك من الفتنة.

والإسلام لا يحتمل هذا ـ بل يعده خيانة قلبية، ونمطاً من الزنىٰ المعنوي مما هو علة العلل في إثارة الفتنة.

وإذا القانون لا يعاقب المرء علىٰ مثل هذا، فإن النظام الأخلاقي

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، نكاح ٧/ ٤٩، وأبو داود في سننه ٢/ ٢٤٦، والترمذي في سننه، أدب ٥/ ١٠٩.

يجرمه ويجرم كل ميل جنسي مخالف، متىٰ وقع خارج دائرة الزواج. باعتباره في حكم الزنا من حيث النية والإرادة والخاطر، وباعتبار تمتع العبد بجمال الأجنبية، وتلذذ الأذن بحسن صوتها، والتكسر والخضوع في قولها، وتلوي اللسان في كلامها، والسعي الذهني وتحرك القدم، واشتهاء النفس، وتمني القلب، مما هو مقدمات الزنىٰ، بل هو عينه باعتبار معانيه. يعاقب عليه الإسلام والقانون الأخلاقي - وإليه الإشارة بقول النبيّ ﷺ «كتب علىٰ ابن آدم نصيبه من الزنىٰ مدرك ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا والقلب يهوىٰ ويتمنىٰ ويصدق ذلك الفرج ويكذبه»[1]. وحديث «إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية» وقد تقدم[2].

ومعنى الحديث: أن الزنا لا يختص بالفرج، بل يطلق على ما دون الفرج من نظر وغيره. وأن الزنا منه الحقيقي ومنه المجازي. وإنما سمي النظر والنطق زنا، لأنه يدعو إلى الزنا الحقيقي، ولذلك قال: «والفرج يصدق ذلك ويكذبه» أي قد يحقق الزنا بالفرج وقد لا يحققه.

وبهذا ترجم البخاري للحديث: زنا الجوارح دون الفروج.

واختلف العلماء فيما لو قال: زنت يداك، هل يحد؟ فمنهم من قال يحد، وهو قول الشافعي. وخالفه بعض الأصحاب.

ومن احتج للشافعي قال بأن الأفعال تضاف إلى الأيدي، لقول الله تعالى ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ٤٢/ ٣٠، وقوله تعالى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ٢٢/ ١٠.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ٦٧، ١٥٦، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٤٦، وهذا لفظه، وأبو داود في سننه ٢/ ٢٤٦، ٢٤٧، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٧٦، ٣١٧.

(٢) راجع ص٢٧٣.

قال الحافظ: وليس المراد في الآيتين جناية الأيدي فقط. بل جميع الجنايات اتفاقاً فكأنه إذا قال زنت يداك وصف ذات بالزنا لأن الزنا لا يتبعض»[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الشيطان من الرجال والنساء في ثلاثة منازل: في النظر والقلب والفروج.

(١) فتح الباري ١١/٢٦.

وأولادكم فتنة

الشعور النفسي الفطري نحو الأولاد وإبراز ما أودع الله في قلوب الآباء من حب وعاطفة قلبية، ركيزة أساسية في النفس الإنسانية، فالأبناء زينة الحياة الدنيا، ومن نعم الله التي امتن بها على عباده، قال الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ ٣/ ١٤

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ١٨/ ٤٦.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ١٧/ ٦.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ ٧١/ ١٢

وهم كذلك قرة عين المؤمنين قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ ٢٥/ ٧٤.

وفيهم بقاء الذكر وامتداد النوع وترويح النفس وإيناس الطبع، ومحادثة ومجالسة وتعزز من ذلة، واستكثار من قلة

وهذا كله تقرير للواقع ولا ينازع فيه أحد

فالولد محبب مزين، وفي كل إنسان ميل له، ولهذا لم يرد في القرآن وصية الآباء بالأبناء، فهم لا يحتاجون لذلك.

وطالما الأمر هكذا فالواجب تحييد النظر وتقنين العاطفة والتعامل مع الأمر بلا استغراق أو شطط، حتى لا تطغى العاطفة على الغاية الشريفة النبيلة.

لا بد من معرفة طبيعة حدود الزينة والميل حتى يتم وضع كل

شيء في مكانه الذي لا يتعداه، وإلا فسد بالتعدي ما هو أكرم وأعز من الولد، وتحولت الزينة رذيلة والنعمة نقمة، والعطية بلية، ويصبح الأمر كما قال القائل.

أرى ولد الفتى ضرراً عليه لقد سعد الذي أمسى عقيماً

من صور الافتتان

قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ١٥/٦٤.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ٨/٢٨.

بلاء وشغل عن الآخرة.

وكفىٰ بها فتنة.

وهو إخبار من الله عز وجل أن الأولاد مما نفتن به، وهذا شامل لجميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بطلب الحلال وقد لا يجده.

أو قد لا يتيسر له خاصة في هذه الأزمان التي عز فيها وجود الطيب، وندر فيها الصالح.

شيئان ليس في الأرض أعزّ منهما، لا يزدادان إلا قلة: أخ في الله يسكن إليه، ودرهم حلال يوضع في حقه.

ليس شيء أعز من اثنين، درهم طيب ورجل يعمل في سنة.

وكان يونس بن عبيد يقول: ولا أستطيع أن أقول لمائة درهم أصبتها إنه طاب لي منها عشرة، وأيم الله لو قلت، خمسة لبررت ـ قالها غير مرة[1].

ففي الولد توسع في الطلب، وحمل علىٰ الإكثار، وفيه مداخل من اتباع الهوىٰ وتحقيق رغبات الأولاد، وقل من يسلم.

---

(١) حلية الأولياء ١٧/٣.

فإن سلم فلا شيء يعدله، ولا شيء يقع موقع الكسب على العيال ولا الجهاد في سبيل الله.

فإصلاح أمر معاشهم عبادة، متى صفت النية، وسلمت من التخليط. وإلا فقد غبط النبيّ ﷺ. من خف ظهره ـ جاء في السنة أنّ النبيّ ﷺ، قال: «إنّ أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ[1] ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفض بيده فقال: عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه»[2].

فخفة الظهر من العيال، واحدة من صفات أحبها النبيّ ﷺ. وهي مع الغموض وخمول الذكر، والرضى بالقليل، والقناعة باليسير، وحسن العبادة، والطاعة في السر، أمور قلّ أن تتوفر في جمع معين من الناس، فهي مشعرة بالغربة والتفرد عن الأقران. لذا عجلت منيته، لئلا يطول مقامه بين الناس.

واشترط قبل كل هذه الصفات خفة الظهر، لئلا يشغله الكسب لهم.

لذا قيل: العيال سوس المال.

في كثرة العيال فضيحة الرجال.

ما أيسر ذو عيال وإن كان بحسن حال.

ولما عوتب ابن عيينة على قبوله عطاء السلطان قال صاحب العيال لا يفلح[3]..

---

(١) خفيف الحاذ: الحاذ والحال واحد ـ أي خفيف الظهر من العيال ـ النهاية ١/ ٤٥٧.

(٢) الحديث أخرج الترمذي في سننه ٤/ ٥٧٥، وقال: هذا حديث حسن، والخطابي في العزلة/ ١٢٠.

(٣) العزلة/ ١٢٦.

وحين عوتب الكسائي[1] عالم اللغة في ترك التزوج قال: وجدت مكابدة العزبة أيسر من مكابدة العيال.

ومنهم من قال: يخبز في بيتي كل يوم ألف رغيف، وكلهم يأكله حالاً غيري، وكان يأكل رغيفاً واحداً ويقول: يقولون فلان رب البيت وإنما هو كلب البيت[2].

* وقال عمر بن عبد العزيز: زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم[3] قالت خرج رسول الله ﷺ، ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول: «إنكم لتبخلون وتجبنون وإنكم لمن ريحانة الله»[4].

والحديث عند الخطابي في كتاب العزلة بصيغة القسم، والله إنكم - قال أبو سليمان: يريد أنهم يحملون الرجل على البخل والجبن ويدعونه إلى الجهل حباً وشفقة عليهم[5].

وهذا واقع، فالقلب لا يخلو من الانشغال بهم.

- كذا اللهو وقضاء الوقت وقد قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ ٦٣/ ٩.

---

(١) الكسائي: الشيخ النحوي البارع محمد بن إبراهيم بن يحيىٰ، (ت٣٨٥هـ) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٦٥، ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٠، لسان الميزان ٥/ ٢٦، شذرات الذهب ٣/ ١١٧.

(٢) عيون الأخبار ٤/ ٨١، ٨٧.

(٣) خولة بنت حكيم بن أمية، كانت من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فأرجأها، لها ترجمة في: طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٨، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٠، تهذيب التهذيب ١٢/ ٤١٥.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣١٧ وفيه انقطاع فإن عمر لم يثبت له سماع من خولة.

(٥) الخطابي في العزلة/ ١٢٧.

فانظر كيف قرن بين الأولاد والأموال وحذر من أن يكونا من عوامل الإلهاء عن ذكر الله.

فالأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده والتي منها كمال محبة الله والشوق إليه، فهو سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية.

ودوام ذكره يساعد علىٰ هذا، وسبب فيه، ومن أنفع ما للعبد. ولهذا أمر ربنا به، ونهىٰ عن ضده، وعلق الفلاح عليه. وجعله سبباً للاتصال بالله، ومن يغفل عن هذا فهو من الخاسرين، وكل ما يؤدي إلىٰ الخسران فهو خسران، ومن أشد أنواعه أن يخسر الإنسان نفسه، فمن خسر نفسه فقد خسر كل شيء، ومن خسر نفسه فهو لما سواها أخسر مهما كان مالكاً من مال وولد.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ ٧١/ ٢١، ٢٢.

ـ والعداوة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ ٦٤/ ١٤ نزلت الآية في رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فأبىٰ أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم. فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فهموا أن يعاقبوهم فكان يقول أحدهم لأرجعن إلىٰ الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلن ولأفعلن، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٦٤/ ١٤.

وسبب النزول علىٰ هذا يحمل بيان سبب العداوة، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً لفعله، فإذا فعلت الزوجة والولد فعل العدو وقاموا به كانوا أعداء، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين طاعة ربه.

هذا عند من يرىٰ أنّ الآية نزلت علىٰ سبب خاص وأن العبرة بخصوصه، لكن الآية أعمّ وأشمل من قصرها علىٰ هذا السبب، وأبعد أثراً، ففيها تحذير من كافة الأزواج والأولاد، وتنبيه إلىٰ أنّ من الأزواج والأولاد من يكون عدواً. كالشمول في الآية بعدها ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ١٥/٦٤.

وتتمثل العداوة في كونهما ملهاة ومشغلة، كما أنهما قد يكونان، من عوامل التقصير في القيام بما يرتبه الإيمان من واجبات، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في أهله فيبخل ويجبن ليوفر لهم. كما أنهم قد يقفوا دون جهاده، ولهذا كرر التحذير بأسلوب آخر وصورة أخرىٰ ـ من فتنة الأموال والأولاد.

والفتنة في الآية ـ اختبار، يحتاج إلىٰ عزم وهمة ويقظة وتجرد للخلاص منه. أو المعنىٰ أنّ الأموال والأولاد فتنة تؤدي إلىٰ المخالفة والمعصية، فوجب الحذر، ومن ثَمّ اقتضت هذه الأحوال إثارة الضمير واليقظة في القلوب فجاء الأمر بعدهما ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ ١٦/٦٤.

ـ ومنها: العجز عن التأديب والتربية وعدم درء أسباب الانحراف.

أو العجز عن معالجتها. أو فك الفراغ الذي يتحكم في الأولاد، وعدم انتقاء الأصحاب والإخوان. فمخالطة رفقاء السوء تكسب الولد أحط العادات.

إنّ العجز عن التربية، أو التخلي عن التوجيه من أكبر الفتن وعوامل الضياع.

وفي السنة «كفىٰ بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»[1].

وقد شاع في الناس أمر الهرب من مسؤولية الأولاد، والتقصير في القيام بحقوقهم. والله يقول ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ ٦٦/٦.

قال علي رضي الله عنه: قوا أنفسكم بفعالكم، وأهليكم بوصيتكم إياهم[2].

كملوا أنفسكم ثم كملوا غيركم. ومن ثمّ وجب أن يصلح المرء نفسه بالطاعة، ويصلح أهله، إصلاح الراعي لرعيته. وفي الحديث «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[3] وفي ذلك مصلحة للجميع.

والرجل كما يؤدب ولده لمصلحته، ويتابع ذلك، يجب أن يدرك أنّ الجواذب والصوارف كثيرة وخطيرة، والنفس تهوىٰ وتتمنىٰ، والإغراق في ملاعبة الأولاد والتنقل بهم من مكان إلىٰ آخر، فيقضي الرجل وقته وليله ونهاره. ولا يتفرغ لدينه وآخرته، فيخسر نفسه، ويقضي علىٰ ولده بعوامل الإدلال المفرط. والتربية الخاطئة، وما يتولد بسببها من عوامل خطيرة، وانحراف نفسي وخلقي ـ والذي يؤدي في النهاية إلىٰ إحساس الولد بمركب النقص ونظرته العداونية الحاقدة علىٰ الحياة والأحياء ـ ويمارس الولد أول ما يمارس هذا مع والديه، فيكون العقوق ونكران الجميل، وقد يصل الأمر إلىٰ حد القتل.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ١٣٢، وعنده «يقوت بدل يعول» وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٥٢.

(٣) أخرّجه البخاري في صحيحه في عدة أماكن منها: كتاب الجمعة ٢/ ٦، وجنائز ٢/ ١٠٠، والاستقراض ٣/ ١٥٧، وعتق ٣/ ١٩٧، ومسلم في صحيحه: كتاب الإمارة ٣/ ١٤٥٩، وأبو داود في سننه كتاب الإمارة ٣/ ١٣٠، والترمذي في سننه كتاب الجهاد ٤/ ٢٠٨، وأحمد في مسنده ٢/ ٥، ٥٤.

وكم من ولد جر على أبيه الويل، بل كم من أبناء قدموا صوراً شائهة، ونماذج محزنة ومخزية، عجيبة غريبة - وممارسات غير إنسانية، بل كم من آباء ذاقوا حتفهم على يد أبنائهم! وكلها فتن مضلة مؤلمة، كما قيل: ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاء غير ولد جحود. نسأل الله السلامة من مضلات الفتن.

وقد استعاذ نبي الله داود من ولد يكون عليه وبالا، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من جار السوء، ومن مال يكون علي عذاباً، ومن ولد يكون علي وبالا، ومن زوجة تشيبني قبل المشيب، ومن خليل ماكر عينه ترعاني وقلبه يشنؤني، إن رأى خيراً أخفاه وإن رأى شراً أفشاه»[1]..

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٩/ ٥٥.

وقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٩/ ٨٥.

---

(١) العزلة للخطابي/ ١٢٤.

جهد البلاء

كم تعوذ النبي ﷺ، منه، ففي الصحيح أنه عليه السلام، كان يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، قال سفيان: الحديث ثلاث، زدت أنا واحدة لا أدري أيتهن هي[1].

قال ابن بطال: وجهد البلاء كل ما أصاب المرء من شدة مشقة، وما لا طاقة له بحمله، ولا يقدر على دفعه. وقيل المراد بجهد البلاء، قلة المال وكثرة العيال، كذا جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما[2].

والحق أن ذلك فرد من أفراد جهد البلاء.

وقيل: هو ما يختار الموت عليه.

وهذا الأخير مع ما قاله ابن بطال مفيد للعموم، داخل تحته كل أنماط الأذى وأصناف العقوق وما يلحقه الأبناء بالآباء. وإنما تعوذ النبي ﷺ، من ذلك، تعليماً لأمته، فإن الله تعالى، كان آمنه من جميع ذلك.

ويحتمل أن يكون استعاذ بربه من وقوع ذلك بأمته.

قال الحافظ: وفي الحديث دلالة على الاستعاذة من الأشياء المذكورة، وأجمع على ذلك العلماء في جميع الأعصار والأمصار[3].

---

(١) البخاري في الصحيح ٨/ ٩٣، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٨٠، والنسائي في سننه ٨/ ٢٦٩.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٣٥.

(٣) فتح الباري ١١/ ١٤٩.

أن تلد الأمة ربتها[1]

من علامات الساعة، وفي بيان تحديد المعنى أقوال عدة، والخلاف في تحديد المراد قديم، والمعنى الرابع: أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام. فأطلق عليه ربها مجازاً. لذلك، أو المراد بالرب المربى فيكون حقيقة. قال الحافظ: وهذ أوجه الأوجه عندي لعمومه. ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربى مربياً والسافل عاليا[2].

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه في عدة أماكن، منها في كتاب الإيمان ١/١٩، وفي كتاب التفسير، سورة لقمان ٦/١٤٣، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ١/٣٩، والترمذي في سننه ٥/٦، وابن ماجه في سننه، مقدمة ١/٢٤، وفتن ٢/١٣٤٢، وأحمد في مسنده ١/٣١٩.

(٢) فتح الباري ١/١٢٢.

الخاتمة...

في ختام الجزء الأول والتمهيد للثاني، ماذا نريد..؟ نريد أن نعي حقيقة الفتن، وأن ندرك بداياتها، وكيفية تشعبها وتنوعها، وأن لها نطاق انطلاق، وتتابع وتوالد، وأنها ثالبة ثالمة محفوفة بالشهوات معجونة بماء الشبهات، علل وأمراض، قرينة الهوى، بل هي الهوى وأخته وأمه وأبوه، براقة خداعة ذات إغراء وإغواء، وأسر وقيد.

مع هذا، تراها ضعيفة جبانة، تحذر المواجهة، وتخشى يقظة المؤمن وصحوته، وثباته وصموده، عقله وإيمانه، فهمه وفقهه، اعتصامه والتزامه. ويتم هذا كله بفقه نبوي، واستنارة بأنوار السنة عند مواجهة الفتن أو حلولها وورودها. فللسنة عند كل بارقة فتنة بيان وأدب وفطنة، هداية ورشد، أمان ونجاة وسلامة، أضواء لها خاصية الإحراق، وأنوار نبوية لها سمة الإشراق، واستشعار بأنك لست وحدك في الطريق وإن كنت فرداً. فاستشعر المعنى، واعلم أنك في سلسلة بدايتها رسول الله ﷺ، ونهايتها المسيح عليه السلام. أمر بدايته نبي كبير من أولى العزم من الرسل، ونهايته كذلك، فما الظن به؟

قال ﷺ: «ليدركن المسيح أقواماً، إنهم لمثلكم أو خير ـ ثلاثاً ـ ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»[1].

فاستبشر وأمل خيراً.

---

(١) فتح الباري ٦/٧ وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وحسن إسناده.

مراجع البحث

١ - إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الغزالي، ٥٠٥ هـ ط دار المعرفة

٢ - أخلاق العلماء للآجري. محمد بن الحسن ٣٦٠ هـ ط إدارات البحوث العلمية.

٣ - آداب العشرة بدر الدين العزي ٩٠٤ - ٩٨٤ هـ ط دار ابن حزم.

٤ - إرشاد الفحول للشوكاني محمد بن علي بن محمد ١٢٥٥ هـ ط دار الفكر.

٥ - أعلام الموقعين لابن القيم محمد بن أبي بكر ٧٥١ هـ ط دار الجيل.

٦ - إغاثة اللهفان لابن القيم ط دار المعرفة.

٧ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان علاء الدين علي بن بلبان ٧٢٩ هـ ط الكتب العلمية.

٨ - الإحكام في أصول الأحكام للآمدي. علي بن محمد ط دار الكتب العلمية.

٩ - الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي ت٤٥٦هـ.

١٠ - الاستيعاب لابن عبد البر يوسف بن عبد الله ٤٦٣ هـ ط دار إحياء التراث.

١١ - الإصابة لابن حجر أحمد علي بن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ ط دار إحياء التراث.

١٢ - الاعتصام للشاطبي إبراهيم بن موسىٰ ٧٩٠ هـ ط دار المعرفة.

١٣ - الأعلام للزركلي - خير الدين ط دار العلم للملايين.

١٤ - البداية والنهاية لابن كثير - إسماعيل ت ٧٧٤ هـ ط دار الفكر العربي.

١٥ - البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني عبد الملك ٤٧٨ هـ ط الدوحة قطر.

١٦ - البرهان في أحكام القرآن للزركشي.

١٧ - التفسير القيم لابن القيم -.

١٨ - التوبة لابن تيمية - أحمد بن عبد الحليم ت٧٢٨هـ.

١٩ ـ الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري، ت٢٥٦ هـ ط دار إحياء التراث العربي.
٢٠ ـ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت٣١٧ هـ ط دار الكتب العلمية.
٢١ ـ الجواب الكافي لابن القيم.
٢٢ ـ الرسالة المستطرفه للكتاني: محمد بن جعفر ـ ط دار الكتب العلمية.
٢٣ ـ الزهد لابن المبارك: عبد الله ت١٨١ هـ.
٢٤ ـ السنن الكبرىٰ للبيهقي: أحمد بن الحسين ت٤٥٨ هـ ط دار المعرفة.
٢٥ ـ الصارم المسلول لابن تيمية ط دار الكتب العلمية.
٢٦ ـ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: محمد بن سعد ت٢٣٠ هـ ط دار صادر.
٢٧ ـ العزلة للخطابي أحمد بن محمد ٣٨٨ هـ ط دار ابن كثير.
٢٨ ـ الغياثي للجويني ط الدوحة/ قطر.
٢٩ ـ الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي أحمد بن علي ت ٤٦٣ هـ ط دار الكتب العلمية.
٣٠ ـ الفوائد لابن القيم.
٣١ ـ اللباب لابن الأثير: علي بن محمد ت٦٣٠ هـ ط دار صادر.
٣٢ ـ المجروحين لابن حبان ط دار المعرفة.
٣٣ ـ المدخل إلىٰ كتاب الإكليل للحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله ٤٠٦ هـ ط دار الدعوة.
٣٤ ـ المدهش لابن الجوزي ت٥٩٧ هـ.
٣٥ ـ المفردات للراغب الأصبهاني ت٥٠٢ هـ ط دار المعرفة.
٣٦ ـ المنطلق لمحمد أحمد الراشد، ط مؤسسة الرسالة.
٣٧ ـ الموافقات للشاطبي ت٧٩٠ هـ ط دار المعرفة.
٣٨ ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس ت١٧٩ هـ ط دار النفائس.
٣٩ ـ الميزان الكبرىٰ الشعراني: عبد الوهاب بن أحمد ت٩٧٣ هـ ط دار الفكر.
٤٠ ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: المبارك بن محمد ت٦٠٦ هـ ط دار إحياء التراث العربي.
٤١ ـ تاريخ الثقات للعجلي: أحمد بن عبد الله ت٢٦١ هـ ط دار الكتب العلمية.

٤٢ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ط دار الكتب العلمية.
٤٣ ـ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: عبد الله بن مسلم ت٣٧٦ هـ ط دار الكتاب العربي.
٤٤ ـ تبيين كذب المفتري لابن عساكر: علي بن الحسن ت٥٧١ هـ ط، دار الكتاب العربي.
٤٥ ـ تجريد أسماء الصحابة للذهبي أحمد بن عثمان ت٧٤٨ هـ ط دار المعرفة.
٤٦ ـ تدريب الراوي للسيوطي ت٩١١ هـ ط دار الكتب العلمية.
٤٧ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي: ط دار إحياء التراث.
٤٨ ـ ترتيب القاموس المحيط لأحمد الراوي ط عيسىٰ الحلبي.
٤٩ ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض بن موسىٰ ت٥٤٤ هـ ط مكتبة الحياة.
٥٠ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار
٥١ ـ تقريب التهذيب لابن حجر ط دار المعرفة.
٥٢ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر ط دائرة المعارف بالهند.
٥٣ ـ جامع الأصول لابن الأثير ط المكتب الإسلامي.
٥٤ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب ت٧٩٥ هـ ط مكتبة الرسالة الحديثة.
٥٥ ـ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية.
٥٦ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله ت٤٣٠ هـ ط دار الكتاب العربي.
٥٧ ـ ذيل تذكرة الحفاظ السيوطي: ط دار إحياء التراث العربي.
٥٨ ـ ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.
٥٩ ـ رسائل الإمام البنا.
٦٠ ـ رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي.
٦١ ـ سنن أبي داود السجستاني ت٢٧٥ هـ ط دار إحياء السنة.
٦٢ ـ سنن ابن ماجه محمد بن يزيد ت٢٧٥ هـ ط دار إحياء التراث.
٦٣ ـ سنن الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن ت٢٥٥ هـ ط دار الكتب العلمية.
٦٤ ـ سنن النسائي أحمد بن شعيب ت٣٠٣ هـ ط دار الكتب العلمية.
٦٥ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي ط مؤسسة الرسالة.
٦٦ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ت٢١٤ هـ ط دار الاتحاد للطباعة.

٦٧ ـ شذرات الذهب لابن العماد: عبد الحي بن العماد ت١٠٨٩ هـ ط دار المسيرة.
٦٨ ـ شرح السنة للبغوي: الحسين بن مسعود ت٥١٦ هـ ط المكتب الإسلامي.
٦٩ ـ شرح علل الترمذي لابن رجب: ط دار الملاح.
٧٠ ـ صحيح الإمام مسلم بن الحجاج ت٣٦١ هـ ط دار إحياء التراث.
٧١ ـ صون المنطق للسيوطي: دار الكتب العلمية.
٧٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي.
٧٣ ـ طبقات الحنابلة لأبي يعلىٰ: محمد بن الحسن ت٤٥٨ هـ ط دار المعرفة.
٧٤ ـ طبقات الشافعية للسبكي ت٧٧١ هـ ط دار المعرفة.
٧٥ ـ طبقات الفقهاء للشيرازي ت٤٧٦ هـ ط دار الرائد العربي.
٧٦ ـ طبقات المفسرين للداودي: محمد بن علي ت٩٤٥ هـ ط دار الكتب العلمية.
٧٧ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة: عبد الله بن مسلم.
٧٨ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: محمد بن محمد ت٨٣٣ هـ ط دار الكتب العلمية.
٧٩ ـ فتح الباري لابن حجر: ط دار المعرفة.
٨٠ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب، ط دار الشروق.
٨١ ـ قاعدة في الجرح والتعديل السبكي ط مكتب المطبوعات.
٨٢ ـ كبرىٰ اليقينيات د. محمد سعيد رمضان البوطي.
٨٣ ـ كشف الأستار للهيثمي: علي بن أبي بكر ت٨٠٧ هـ ط دار الرسالة.
٨٤ ـ لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم ت٧١١ هـ ط دار الفكر.
٨٥ ـ لسان العرب المحيط.
٨٦ ـ لسان الميزان لابن حجر ط مؤسسة الأعلمي.
٨٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي: ط دار القلم.
٨٨ ـ مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي ط دار الكتاب العربي.
٨٩ ـ مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ط (١) ١٣٩٨ هـ.
٩٠ ـ مدارج السالكين لابن القيم ط دار الكتب العلمية.
٩١ ـ مراتب الإجماع لابن حزم الأندلسي ط دار زاهد القدسي.

٩٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ت٢٤١ هـ ط عالم الكتب.
٩٣ ـ مسند الحميدي عبد الله بن الزبير ت٢١٩ هـ ط عالم الكتب.
٩٤ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام د. يوسف القرضاوي ـ ط مكتبة وهبه.
٩٥ ـ مصباح الزجاجة للبوصيري: أحمد بن أبي بكر ت٨٤٠ هـ ط مؤسسة الكتب.
٩٦ ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ط دار إحياء التراث.
٩٧ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ت٦٢٦ هـ ط دار صادر.
٩٨ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس أحمد بن زكريا ت٣٩٥ ط مصطفىٰ الحلبي.
٩٩ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ط دار الآفاق.
١٠٠ ـمناقب الإمام الشافعي للرازي.
١٠١ ـمناهل العرفان للزرقاني محمد عبد العظيم ط عيسىٰ الحلبي.
١٠٢ ـموارد الظمآن للهيثمي.
١٠٣ ـميزان الاعتدال للذهبي ط دار المعرفة.
١٠٤ ـنزهة النظر لابن حجر ط دار الكتب العلمية.
١٠٥ ـنقض المنطق لابن تيمية ط مكتبة السنة المحمدية.
١٠٦ ـهدىٰ الساري لابن حجر ط دار المعرفة.
١٠٧ ـوجهة العالم الإسلام مالك بن نبي.
١٠٨ ـوفيات الأعيان لابن خلكان أحمد بن محمد ت٦٨١ هـ ط دار صادر.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة